فرانز كافكا

الأعمال الكاملة

ترجمة: د. خالد البلتاجي

2

العربي للنشر والتوزيع

فرانز

كافكا

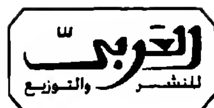
الأعمال الكاملة

2

الجزء الثاني

ترجمها عن التشيكية

د. خالد البلتاجي



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
(+202)27921943 - (+202)27954529 فاكس:(+202)27947566
sherifbakr@yahoo.com
www.alarabipublishing.com.eg

كافكا - الأعمال الكاملة

الجزء الثاني

فرانز كافكا

ترجمة: خالد البلتاجي

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع 2013/22420

ISBN 978-977-319-194-8

تدقيق لغوي: حمدي عبد الرحيم

This book was published with support of the Embassy of the Czech Republic in Cairo.

بطاقة فهرسة

كافكا، فرانز، 1883 – 1924

الأعمال الكاملة/ كافكا، ترجمة خالد البلتاجي.، ط1 – القاهرة:

العربي للنشر والتوزيع، 2013 ص؛ سم

تدمك 9789773191948

1- القصص الألمانية 2-الأدب الألماني: مجموعات

البلتاجي، خالد (مترجم) ب- العنوان 35,894

كافكا وبراج – بقلم يوسف تشيرماك[1]

ذاع صيت الأديب الألماني فرانز كافكا المولود بمدينة براج في كل أنحاء العالم رغم أنه ظل ما يقرب من ربع القرن في طي النسيان، ولم يعرفه سوى عدد قليل من المهتمين بالأدب الألماني، وذلك في دوائر قليلة بمنطقة وسط أوربا. ثم بدأ الاهتمام بأدبه ينتشر بقوة بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوربا الغربية. وغزت أعماله سريعًا كل أرجاء أوربا ومنها إلى كل أنحاء العالم الثقافي. أدي هذا الانتشار الكبير للأديب إلى أن تحتل براج بؤرة اهتمام الجميع، وهى المدينة التي قضى فيها كافكا كل حياته باستثناء بعض الرحلات الخارجية التي أجبرته عليها حالته الصحية. واصبحت براج مرادفًا رمزيًا لكافكا، وصارت بفضله هدفًا منشودًا من قبل السياحة الثقافية.

وفي هذا الصدد يمكننا القول إن كافكا ليس من نوع كتاب براج الذين كتبوا عن المدينة بشكل مباشر – كما ظهر عند العديد من الأدباء التشيك –، فلم تظهر مدينة براج في كتاباته بواقعها المعاصر أو حتى التاريخي. كافكا ليس أديبًا مرتبطًا بالتقاليد. لذلك جاءت براج في أعماله بصورة مُستترة، وبشكل رمزي مُعقد. فقد ظهرت المدينة

---

[1] يوسف تشيرماك (1931 – 1970) مؤرخ أدبي ومترجم تشيكي، وأحد أشهر المترجمين الذين نقلوا انتاج كافكا إلى اللغة التشيكية.

بصورة جزئية من خلال قصة حُفِظت من كتاباته الأولى وهى قصة "صراع" كما أن الشخص العارف بجغرافية مدينة براج سيكتشف بسهولة موقع براج الرمزي في مكانين من رواية "المحاكمة" وهى: كاتدرائية القديس فيت، وشاهد ضريح القديس يان نيباموتسكي، وكذلك المكان الذي جرت فيه أحداث قصة "أمام القانون" في الفصل المعنون بـ "في المعبد". الحالة الثانية التي جاء فيها ذكر لمدينة براج كان في سياق الطريق إلى الإعدام في أحد المحاجر خارج المدينة. باستثناء ذلك ظهرت براج بصورة عامة من خلال تفاصيل في أعمال كافكا، وخاصة في قصصه القصيرة، وبصورة رمزية. كان كافكا يضع تفاصيل الواقع في أعماله النثرية بصورة رمزية كما رآها في لحظة كتابتها مباشرة. كان يهوى الكتابة بهذه الطريقة. وقد أشار إلى هذا الأمر في أكثر من موضع في مخاطباته. كما احتوت العديد من قصصه الأوضاع في مدينة براج. وظهرت على سبيل المثال من خلال الأوضاع المعيشية والاجتماعية لأبطال أعماله، بدءًا من أسلوب حياتهم، وهمومهم اليومية، وعلاقاتهم الاجتماعية، وانتهاءً بوصف الأماكن التي يتحركون، ويعيشون فيها. كانت شخصيات تنتمي إلى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى، وتجار صغار، وموظفين، أو رجال عوانس. ويظل كافكا رائدًا في الوصف. تشعر من خلال أعماله بموهبته الفنية، وميله إلى الوصف الذي يتجلى أيضا من خلال لوحاته التعبيرية التي رسمها.

كل تلك السمات نجدها منتشرة في إنتاج كافكا القصصي. تظهر في مراحلها الأولى، وتنتهي بمرض عضال. تتميز بإصرار واضح على رسم صورة كاملة. كان كافكا على سبيل المثال على قناعة بأنه من الصعب التعبير عن الشيء نفسه مرة أخرى بنفس الطريقة وبنفس القدر. لذلك يتغير الطريق إلى النص في المرحلة الثانية التي تستمر حتى نهاية الحياة، وتظهر فيها محاولة للتعبير عن الأفكار بصورة أكثر دقة. هذا بالطبع ينطبق فقط على المستوى الأول السطحي لإبداع كافكا القصصي. ثم يأتي المستوى الثاني الأعمق وهو مستوى جوهر العمل، وهذا ما تتصارع فيه الدراسات التي تتعرض إلي أعمال كافكا حتى اليوم.

استمر كافكا يكتب بكل اجتهاد وإصرار لمدة عشر سنوات قبل أن يكتشف نفسه بمساعدة صديقه ماكس برود، ثم وافق بعدها على نشر أول أعماله. كثير من أعماله التي كتبها خلال السنوات العشر تلك التهمتها النيران، ولم يتبق منها إلا القليل. نشر كافكا خلال حياته ست مجموعات قصصية بكل تردد ورهبة. أما رواياته الثلاث، والغالبية العظمى من قصصه لم تصدر إلا بعد وفاته بأعوام.

تمثل رواية "المحاكمة" منعطفًا هامًا في إنتاج كافكا الأدبي. كتبها في إحدى ليالي شهر أغسطس عام 1912. وتكاد تكون العمل الوحيد الذي نال إعجاب كافكا نفسه دون أية ملاحظات. أصدر في العام نفسه مختارات لأعمال نثرية قصيرة كتبها في أوقات سابقة تحت عنوان "تأملات" في العام نفسه أيضًا صدرت قصة "الوقّاد"، وهي في الواقع

عبارة عن الفصل الأول من رواية "أمريكا" التي لم تكتمل، وصدرت بعد وفاته. بعد عامين من ذلك التاريخ كتب كافكا القصة الأكثر شهرة وانتشارًا، وهى "التحول" وبعد توقف استمر أربعة أعوام صدرت المجموعة القصصية "طبيب القرية" (طبيب الأرياف)، وهى أكبر مجموعة قصصية نشرت في حياة فرانز كافكا. كما صدرت أيضًا في حياة كافكا عام 1919 القصة الطويلة "في مستعمرة العقاب"

في الختام يجب التنويه إلي أن اسم مدينة براج ظهر عند كافكا بصورة سلبية، وهو الأمر الذي اعتبره البعض أن براج كانت بالنسبة له مدينة كريهة. لكن هذا الرأي جاء نتيجة لقراءة سطحية للأمر. الواقع أن كلمة براج ظهرت في كتابات كافكا بصورة مجازية، ولا تتعلق بالمدينة نفسها، بل تشير إلى طريقة الحياة التي اضطر إليها الخضوع لها في مدينةبراج. عبر بهذه الطريقة عن الضغوط الكئيبة التي تعرض لها في مدينة براج، وحاول عبثًا أن يهرب منها: إنها ضغوط أسرة يتحكم فيها والده الذي سعى طيلة حياته إلى العثور على لغة مشتركة بينهما، لكن دون جدوى، ولعنة الحياة المزدوجة، بين عمل في شركة تأمين ينفر منه، وبين رغبة جامحة في الكتابة، بين الحاجة إلى الوحدة من جانب والرغبة في الحياة الاجتماعية، وتأسيس أسرة من جانب آخر. حاجته إلى الهدوء بينما الضجيج يطارده في كل مكان ومن كل مكان.

يوسف تشيرماك

سور الصين العظيم[1]



[1] أقام كافكا في الفترة من 1915 وحتى 1917 في بيت شقيقته أوتلا بالعاصمة براغ. كان يحب ذلك المنزل كثيرًا، وهناك كتب العديد من القصص. استأجر بعدها شقة في أحد القصور بسوط العاصمة، وهناك كتب قصة (سور الصين العظيم). بدأ كافكا في كتابة هذه القصة على ما يبدو في الأسبوع الأخير من فبراير عام 1917 وأنهاها في الأسبوع الأخير من مارس في نفس العام.

بُني سور الصين في أقصى شمال البلاد. امتد البناء من جنوب غرب البلاد وجنوب شرقها، والتقى هنا في الشمال. التزموا بهذا النظام بكل تفاصيله وأدقها داخل جيشي العمل الكبيرين؛ الجيش الشرقي والجيش الغربي. تكونت كل مجموعة من حوالي عشرين عاملًا، كان من المفترض أن تقوم هذه المجموعات ببناء سور طوله خمسمائة متر تقريبًا، وشيدت المجموعة المجاورة حائطًا فرعيًا مقابلًا له بنفس الطول. يبدو أنه عندما التحم طرفا السور لم يتواصل البناء من نهاية السور الذي يبلغ ألف متر، لأن مجموعات العمال تم إرسالها للبناء في أماكن أخرى. بهذه الطريقة نشأت العديد من الثغرات الكبيرة التي قاموا بسدها تدريجيًا. بقي بعضها مفتوحًا إلى أن أعلنوا عن اكتمال بناء السور. حتى أن ثغرات في السور لم يكتمل بناؤها على الإطلاق. وهذه واحدة من الأساطير الكثيرة التي انتشرت حول تشييد السور والتي لا يمكن – على الأقل من قبل الأفراد – التحقق منها بشكل شخصي نظرًا لإتساع المبنى.

في نهاية المطاف يمكن القول أنه ربما كان من الأفضل من نواحٍ عديدة مواصلة البناء بشكل متصل، أو على الأقل مواصلته بصورة متصلة في أجزاءه الرئيسية. بني السور – حسب ما تردد وحسب ما هو معروف – لتوفير الحماية من الشعوب الشمالية. لكن كيف يوفر الحماية سور لم يبنى بشكل متصل؟ سور كهذا لا يمكنه أن يوفر الحماية، كما أن قوة السور كانت معرضة للخطر الدائم. فالأجزاء المهجورة من الحائط والتي تقع في مناطق موحشة كان يمكن أن

تتعرض للتدمير من قبل القبائل الرُحّل. خاصة وأن سورًا كهذا بث الرعب في نفوس تلك القبائل، فغيروا من أماكن إقامتهم بسرعة فائقة، وبالتالي أصبح لديهم تصور عن مراحل تطور البناء أكثر منا شخصيًا، نحن البناة. رغم ذلك لم يكن في الإمكان بناء السور بطريقة أخرى غير التي بُنى بها. لكي نفهم الأمر يجب أن نأخذ الأمور التالية في الإعتبار: كان من المفترض أن يوفر السور الحماية لمدة قرون، ومقومات العمل الضرورية كانت تكمن في بناء متقن للغاية، واستخدام خبرات البنائين الحكماء من كل العصور والشعوب المعروفة، والشعور الدائم بالمسؤولية من قبل البنائين. ورغم أنهم استعملوا في الأعمال العادية كل من قَبِل العمل بمقابل مالي جيد من الرجال والنساء والأطفال. كان رئيس كل أربعة عمال رجلًا حكيمًا، وعلى دراية بالعمارة. كان رجلًا قادرًا على أن يشعر في أعماق قلبه بالمهمة التي يقوم بها. وكلما صعبت المهمة، صعبت متطلباتها. كانت أعداد مثل هؤلاء الرجال كبيرة للغاية، رغم أنها لم تبلغ العدد الذي يحتاجه السور بالفعل.

لم يبدأ العمل في الجدار إعتباطًا. فقبل خمسين عامًا من الشروع فيه تم الإعلان في كل الأراضي الصينية التي قررت بناء سور فيها عن أن فن العمارة ومن بعده التشييد من أهم العلوم، وأن أهمية العلوم الأخرى تتحدّد بمدى ارتباطها بهما. مازلت أتذكر جيدًا وأنا طفل صغير، بالكاد تعلم المشي، عندما وقفنا في حديقة أستاذنا، وبدأنا نبني من الحصي شيئًا يشبه السور. أتذكر أنه خلع معطفه، وأسرع نحو

الحائط، ودمر كل شيء بالطبع، ثم راح يوبخنا نتيجة ضعف البناء الذي قمنا به. انفجرنا جميعًا في البكاء، وانطلق كل منا تجاه والديه. موقف عادي، لكنه يميز تلك الفترة.

كنت سعيد الحظ لأن الشروع في تشييد السور بدأ وأنا في سن العشرين، بعد أن اجتزت أكبر امتحان في مدرسة عادية للغاية. أقول سعيد الحظ لأن كل من حصل من قبل على أعلى درجة علمية ممكنة لم يستفد على مدى أعوام كثيرة بالمعارف التي تلقاها. كانوا يرتحلون عبثًا في كل مكان وهم يحملون في رؤوسهم خططًا معمارية عظيمة بلا فائدة. لكن كل من اشترك لاحقًا في التشييد في وظيفة رئيس عمال، حتى ولو في مرتبة أقل، كان بالفعل مفيدًا للغاية.كان هؤلاء رجالًا بنّائين، يفكرون كثيرًا في أعمال البناء، ولا يملون من التفكير فيها ليلًا ونهارًا. إنهم رجال شعروا أنهم ترعرعوا مع أول حجر وضعوه في الأرض. إضافة إلى رغبتهم في إتمام عملهم بكل دقة، كانوا يتعجلون رؤية المبنى يقف مكتملًا. لكن صغار العمال لم يكونوا بنفس الحماس. لم يتعجلوا سوى وقت الحصول على رواتبهم. كان المديرون وحتى الرؤساء المتوسطون يشعرون مع نمو السور في كل اتجاه بدفعة نفسية تكسبهم المزيد من القوة، وتنبههم إلى ضرورة الإهتمام بالعمال الأقل درجة الذين يتجاوز الإنجاز أعمالهم البسيطة. فلم يكن مسموحًا على الإطلاق تركهم في أطراف نائية خالية من السكان وبعيدة آلاف الأميال عن موطنهم الأصلي لمدة شهور طويلة أو ربما أعوام، يضعون حجرًا

على حجر. فاليأس من هذا العمل الشاق الذي لا يصل إلى هدف محدد خلال حياتهم البشرية المديدة قد يملأهم بخيبة الأمل والإحباط، ويؤثر سلباً على أداءهم. لذلك تبنوا نظام البناء المتقطع. كانوا يكملون كل خمسة أعوام تقريبًا بناء خمسمائة متر، وبعدها يصبح رؤسائهم في العادة مرهقين، ويفقدوا الثقة بأنفسهم وفي البناء وفي العالم. لذلك كانوا يرسلونهم – وهم لايزالون في حالة نفسية مرتفعة وعند احتفالهم بتوصيل ألف متر من الجدار – إلى أمكان نائية للغاية، فيرون بين الحين والآخر في أثناء الطريق أجزاءًا مكتملة من الجدار، ويتوقفون في أماكن إقامة الرؤساء الذين نالوا شارات التكريم، ويستمعون إلى تهليل جيوش العاملين الجدد الذين يأتون إلى هنا من داخل البلاد. كانوا يرون الغابات التي اجتزت لعمل سقالات للبناء، والجبال التي تحولت إلى أحجار لبناء الجدار، ويسمعون أناشيد حماسية في الأماكن المقدسة عن اكتمال السور. كل هذا كان يشد من أذرهم. كانت الحياة الهادئة داخل الوطن، حيث يقضون بعض الوقت، تمدهم بالقوة. الصرامة التي امتاز بها جميع البنائين، والتفاني والتواضع الذي كانوا يستقبلون به أخبارهم، والإيمان الذي تمتع به المواطن البسيط الهادىء في اكتمال السور في المستقبل. كل هذا شد من أوتار أرواحهم. بعدها يودعون الوطن. كانت رغبتهم الجامحة في العودة إلى العمل من جديد في المشروع القومي تجعلهم مثل الأطفال في حماسهم الشديد للعودة. كانوا يغادرون بيوتهم حتى قبل الموعد. يرافقهم نصف سكان القرية مصطفين في طابور طويل. وتنتشر في الطرقات مجموعات من السكان

والأعلام والرايات الصغيرة. لم يروا من قبل وطنهم بمثل هذه العظمة والثراء والجمال، الوطن الذي هو جدير بحبهم له. كان كل فلاح بمثابة شقيق لكل منهم، يبنون السد من أجله، ويكافئهم على ذلك بكل ما يملك. الإتحاد! الإتحاد! يد بيد، رقص وابتهاج من الشعب، دم ليس محبوسًا في دورة جسد صغير، بل دم يتدفق ناعمًا، ذهابًا وإيابًا في كل أرجاء الصين المترامية.

لهذا السبب كان هناك نظام البناء المتقطع. ربما كانت هناك أيضًا أسباب أخرى لوجوده. ليس غريبًا أن أتوقف طويلًا عند هذه المسألة، فهى مسألة جوهرية متعلقة ببناء السور، وإن بدت من الوهلة الأولى غير ذلك. كلما أردت أن أعبر بوضوح عن فكرتي وذكرياتي عن تلك الفترة فدائمًا يحتاج الاهتمام بهذه القضية إلى مزيد من التعمق.

يجب أن أقول في البداية أن الجهود التي كانت تبذل في ذلك الوقت، والتي تكاد تضارع تلك التي بذلت في بناء برج بابل، تجاوزت البناء نفسه. أقول هذا لأن أحد الباحثين ألف عند بداية الإنشاء كتابًا، يتناول فيه تلك المقارنة بالتفصيل المسهب. حاول أن يثبت أن الأسباب التي جعلت برج بابل يتجاوز الهدف الذي بني من أجله ليست هى نفسها التي انتشرت بين الناس، أو على الأقل لا تُذكر الأسباب الأصلية بين بقية الحجج المعروفة. استمد البراهين من السجلات والتقارير. فقد قام بأبحاث في المكان نفسه، وتأكد لديه أن المبنى تهدّم، وكان يجب أن

يسقط نتيجة ضعف أساساته. من هذه الناحية فإن العصر الذي نعيش فيه قد تجاوز كثيرًا العصور الماضية. وأصبح كل شخص متعلم تقريبًا يمتهن البناء، وخبيرًا في قضية الأساسات. لم يكن هذا هو مايقصده ذلك الباحث بالطبع. فقد أكد أن السور العظيم صار لأول مرة في تاريخ البشرية أساسًا متينًا لبناء برج بابل جديد. أي أن السور هو الأصل ومن بعده البرج.كان هذا الكتاب موجودًا في كل بيت تقريبًا، لكنني أعترف أنني مازلت حتى اليوم لا أفهم ما الذي كان يقصده ببناء البرج. هل من المفترض أن يكون السور الذي لا يشكل حلقة مكتملة، بل مجرد ربع أو نصف حلقة، أساسًا لبناء برج؟ ربما كان هذا ممكنًا من منظور ديني فقط. لكن ما هى الجدوى من سور كان بالفعل قائمًا، بذلت في سبيله جهود وزهقت أرواح مئات الآلاف؟ وما هى جدوى وجود تخطيط لبناء برج في ذلك الكتاب – هو بالطبع تخطيط ضبابي، غير واضح المعالم – والإقتراحات المسهبة لتركيز جهود البشر في عمل ضخم جديد؟

كان هناك الكثير من الفوضي في عقول الناس – وهذا الكتاب مجرد مثال على ذلك، ربما كانت هذه الفوضى نابعة من محاولة جمع العديد من الناس حول هدف واحد. الإنسان بطبيعته متراخي، مثل التراب العالق في الهواء، لا يحب القيود، ولو أخذ على عاتقه شيئًا بنفسه، سرعان ما يبدأ في تكسير قيوده بجنون، وتدمير السدود والقيود، وتدمير نفسه بكل ما أوتي من قوة.

ربما أن إدارة السور التي قررت تبني فكرة العمل المتقطع لم تغفل هذه الأفكار التي تقف عائقًا أمام بناء السور نفسه. ونحن – أتحدث هنا ربما باسم العديد من الناس – عندما نكرر أوامر القيادة العليا كلمة وراء كلمة، فنحن بهذا نتعرف على أنفسنا. نعترف بأنه بدون قيادة لن تساعدنا الحكمة التي تعلمناها في المدارس ولا الذكاء البشري على القيام بواجباتنا. في غرفة القيادة – حيث لم يجبني أحد ممن سألتهم عن مكانها ولا عمن كان يجلس بها – في هذا المحراب تطايرت جميع الأفكار والرغبات البشرية، وتشابكت جميع الأهداف والإنجازات البشرية. وهبطت من النافذة صورة العوالم الإلهية على أيدي القادة الذين رسموا الخطط.

لذلك فإنه من الصعب على المراقب الموضوعي أن يفهم أن الإدارة لم تستطع تخطي العقبات التي وقفت في طريق بناء حائط متصل، حتى لو كانت حاولت. ولا يبقى سوى رأي واحد، وهو أن الإدارة كانت تخطط منذ البداية لأعمال البناء المتقطعة.

لكن البناء المتقطع كان مخرجًا من أزمة وليس هدفًا في حد ذاته. النتيجة هى أن القيادة أرادت شيئًا بلا هدف – نتيجة عجيبة! – بالتأكيد، لكنها نتيجة لها من ناحية أخرى وجاهتها. يمكننا اليوم أن نتحدث عن هذا الأمر بكل اطمئنان. كانت القاعدة السرية للعديد منهم، وبخاصة لأفضل عناصرهم هى الآتي: حاول بكل ما أوتيت من قوة أن

تفهم أوامر القادة، لكن بالطبع في حدود معينة، ثم كف عن التفكير! إنها قاعدة منطقية للغاية، كان لها فيما بعد تفسير آخر في مواقف مشابهة تكررت كثيرًا فيما بعد. لا تعتقد أن التوقف عن التفكير قد يؤذيك، فلا يوجد ما يؤكد هذا. فلا مجال هنا للحديث عن الأذى، أو عدمه. ستزدهر حياتك مثل النهر في أوقات الربيع. ترتفع أمواجه ويقوى ويحيي الأرض بقوة على امتداد شواطئه الطويلة. وسوف يحافظ على طبيعته ويستمر حتى يصل إلى البحر، بل سيناطح البحر ويفوز عليه – ومن هنا يمكنك أن تفكر.

لا تناقش أوامر القادة. – عندها سيفيض النهر من شطآنه، وسيفقد حدوده ومظهره، وستهدأ سرعة تياره، وسيحاول أن يصنع، على عكس طبيعته، بحارًا صغيرة في داخل البلاد، فيضر الأرض، ويعجز عن البقاء في تلك المنطقة، فيعود إلى شطآنه، لكنه سيجف من الحزن خلال موجه حارة تالية – فلا تناقش أوامر القادة كثيرًا.

ربما كانت هذه المقارنة في موضعها تمامًا عند بناء السور، لكنها بالنسبة للتقرير الذي أُعدّه حاليًا ليست على الأقل حقيقة مطلقة. فالبحث الذي أنا بصدده هو بحث تاريخي بحت. فيمكنني بعد أن توقف منذ وقت بعيد وميض البرق من خلف السحب العاصفة والمتناثرة أن أبحث عن تفسير للسور الفرعي الذي امتد إلى أبعد مما

أرادوا. إن الحدود التي تطوق قدراتي الذهنية ضيقة للغاية، في حين أن الفضاء الذي يجب أن أتجاوزه لا نهاية له.

من هو العدو الذي كان السور سيحيمنا منه؟ إنها شعوب الشمال. أنا من جنوب شرق الصين. ولا يوجد هناك أي شعب شمالي يهدد حياتنا. أقرأ عنهم في كتب الأجداد، ونصاب بالهلع من الأعمال المروعة التي يرتكبونها نتيجة طبائعم التي يحكون لنا عنها في حلقات الدراسة الهادئة. نرى في لوحات كبار الفنانين وجوهًا ملعونة، وأفواه منفرجة، وأشداقًا بها أسنان مدببة، وعيونًا جاحظة، تنظر شزرًا إلى الفريسة وعلى وشك أن تلتهمها وتسحقها بأقدامها. وعندما تزعجنا الأطفال نريهم تلك الصور، فيقبلون علينا باكين، ويتعلقون في رقابنا. ولا نعرف أكثر من ذلك عن شعوب الشمال تلك.لم نرهم، ولو بقينا في قريتنا لن نراهم مدى الحياة، حتى لو جاءونا فوق خيولهم الوحشية، وتوجهوا إلينا مباشرة. إن بلادنا مترامية الأطراف ولن تسمح لهم بالمجيء إلينا، سوف يبقون عالقين في الهواء الخاوى.

وبما أن الوضع هكذا، لماذا أترك بيتي، ونهري، وجسوري، وأمي وأبي، وزوجتي وأطفالي الذين يحتاجون للتربية، وأرافقهم إلى مدرسة في مدينة بعيدة، والأبعد منها أفكاري التي تتعلق بالسور في الشمال؟ اسأل القيادة! هى تعرفنا. القيادة التي تهتم بنا كثيرًا، تعرف عنا كل شيء، تعرف وظيفتنا البسيطة، ترانا ونحن جالسين معًا جميعًا في كوخ

صغير، ربما تعجبها أو لا تعجبها الصلاة التي يؤديها صاحب البيت مساءً في صحبة المقربين. وبما أنني سمحت لنفسي بالحديث عن القيادة فيجب أن أقول أن القيادة موجودة منذ زمن بعيد، لكنهالم تكن تجتمع مثل كبار موظفي الصين عندما يدعون إلى اجتماع عاجل بعد حلم في صباح جميل، وينهونه على الفور، وفي مساء نفس اليوم يجبرون المواطنين على النهوض من فراشهم لكي ينفذوا ما اتخذوه من قرارات. حتى ولو كان حفل أضواء على شرف أحد الآلهة التي تجلت لهم بالأمس، وفي اليوم التالي، وبمجرد أن تطفأ الأنوار يوسعونهم ضربًا في أحد الأركان المظلمة. فالقيادة موجودة منذ القدم، وكذلك قرار بناء السد. وماذا عن شعوب الشمال البريئة التي نعتقد أنها كانت السبب في القرار، وفخامة القيصر البريء الذي اعتقد أنه أمر ببناء السد! نحن البناة نعرف الحقيقة، لكننا نرفض الحديث عنها.

في ذلك الوقت عندما تم الانتهاء من تشييد السد، ولاحقًا، وحتى اليوم تخصصت تقريبًا في شيء واحد، وهو تاريخ الشعوب المقارن – لا يمكن التوصل إلى جوهر بعض القضايا إلا بهذه الوسائل تقريبًا – وتوصلت إلى أن مؤسسات قومية وحكومية معينة تتمتع عندنا في الصين بدرجة كاملة من الوضوح، والبعض الآخر على العكس يتميز بالضبابية الكاملة. ودائمًا ما جذبني تتبع أسباب ظاهرة ما وفحصها. كل هذه الأمور تتعلق بشكل أساسي ببناء السور.

من بين أجهزتنا الأكثر وضوحًا بالطبع مقر الإمبراطورية. فالأمور المتعلقة بهذا الشأن في بكين، وخاصة في مجتمع بلاط القيصر واضحة تمامًا، رغم أنها قد تكون خيالية وتتجاوز الحقيقة. يدّعي أساتذة إدارة الدولة والتاريخ في الجامعات أنهم فقهاء كبار في هذا الأمر، وأنهم يمكنهم نقل معارفهم هذه إلى طلبتهم. وكلما نزلنا إلى المدارس الأدنى تختفي الشكوك حول المعرفة الشخصية بصورة أكبر. وتتمحور أمواج أنصاف المتعلمين المتكسرة حول بضع معلومات بسيطة، تُطبع في العقول على مدار قرون. وهى معلومات لا تخلو من حقائق مطلقة، لكنها تظل غير واضحة المعالم وسط أبخرة ضبابية.

أعتقد أنه قد يكون من المفيد أن نسأل الناس في مقر الإمبراطورية، فالناس هى الدعامة الأخيرة التي تقوم عليها الإمبراطورية. ويمكنني هنا بالطبع الحديث فقط عن وطني. فضلًا عن آلهة الحرب وطقوس عبادتها والتي تتنوع وتتكرر على مدار العام، نمنح كل أفكارنا للقيصر وحده. ليس لقيصر اليوم، وربما منحناها أيضًا لقيصر اليوم لو أننا عرفناه، أو عرفنا عنه شيئًا محددًا. دائمًا ما حاولنا أن نعرف شيئًا – وحب الإستطلاع هو الشيء الوحيد الذي تبقى لنا – في هذا الشأن، لكننا، رغم أن هذا يبدو غريبًا، لم نتمكن من معرفة أي شئ، ولا حتى من ذلك المسافر الذي يجوب بقاع الأرض، ولا في القرى القريبة أو النائية، ولا حتى من البحارة الذين يبحرون في أنهارنا أو في المياه المقدسة. ورغم أننا سمعنا الكثير، لكننا لم نتمكن من أن تستخلص أي شئ منها.

إن بلادنا متسعة لدرجة أن أية قصة خيالية لا يمكنها أن تغطي اتساعها، ليس هناك سوى الأفق الذي يحتويها - وبكين ما هى إلا نقطة صغيرة، وقصر القيصر نقطة أصغر. صحيح أن القيصر رجل عظيم، يعلو كل درجات العالم. لكن القيصر كإنسان حي ليس سوى إنسان مثلنا، ينام في فراش مثلنا، فراش وثير، لكنه قد يكون فراش صغير وقصير. إنه مثلنا، يمدد أعضاء جسده، ويتثاءب أيضًا - لو اعتبرنا أنه يصاب بالإرهاق - بفمه المستدير برقة. وكيف لنا أن نعرف عن هذا الأمر ونحن على حدود جبال التبت - آلاف الأميال سيرًا من هنا. فضلًا عن أن كل خبر - لو وصل إلينا أصلًا - قد يكون متأخرًا جدًا وقديمًا. تدور في فلك القيصر جموع رائعة وغامضة أيضا. حقد وعداوة في صورة خدم وأصدقاء - ثقل مقابل للقيصرية، تحاول أن تقتل القيصر وتسقطه من كفة الميزان. إن القيصرية خالدة، لكن قيصر واحد يسقط، ويُقتَل، وتختفي معه كل الأسرة الحاكمة، ويلفظون آخر أنفاسهم. لن يعرف الشعب يومًا ما عن تلك الحروب وتلك الآلام. سيتسكعون مثل رجل في آخر القافلة، مثل الأجانب في المدينة في أطراف شوارع جانبية مزدحمة بالمارة، يقتاتون على المؤن القادمة بكل رضى، في الوقت الذي يعدمون فيه سيدهم في السوق، هناك في المقدمة.

هناك أسطورة تعبر بصورة جيدة عن هذه الحالة. يُقال إن القيصر أرسل لك، أيها المواطن، أيها الظل الخاضع المسكين التافه، الذي هرب من شمس القيصر إلى أبعد مكان، أرسل لك القيصر رسالة

من على سرير الموت. وأمر الرسول أن يدنو من فراشه، وهمس له في أذنه بهذه الرسالة. كان حريصًا على أن يكررها في أذنه مرات ومرات. فأومأ له مؤكدًا صحة ما قاله. وأرسل الرسول أمام كل الذين وقفوا يراقبون لحظة موته - أُزيلت كل الحوائط، واصطف كل النبلاء فوق درجات السلم طولًا وعرضا. انطلق الرسول على الفور، وكان رجلًا قويًا لا ينال منه الإرهاق، يمد أمامه ذراعًا بعد الآخر، يشق الطريق، وإن صادفه عائق يشير إلى صدره الذي يحمل علامة الشمس، يتقدم إلى الأمام بسهولة لا يباريه فيها أحد. لكن الحشد كبير، والحشود لا تنتهي.وكان ليطير لو انفتحت أمامه الأراضي الخاوية، وكنت لتسمع على الباب صوت طرقات قبضته الرائعة. لكنه بدلًا من هذا ظل يجاهد عبثًا، يبحث عن طريقه وسط غرفات القصر الداخلي، غير قادر على تجاوزها، وحتى لو تجاوزها فلن يفيده هذا في شيء. كان عليه أن يجاهد حتى يهبط عبر الدرج، ولو تمكن من هذا فلن يفيده في شيء. كان عليه أن يتجاوز الأفنية، وخلفها القصر الآخر الذي يطوق القصر الأول، وهناك تظهر أفنية ودرجات جديدة، وقصر جديد، وهكذا عبر آلاف السنين. ولو استطاع أن يخرج من آخر بوابة - وهو ما لا يمكن أن يحدث - فسيجد أمامه مدينة مأهولة بالسكان، منتصف العالم، وأكوام من الرواسب. لا يمكن لأحد المرور منها، فما بالك برجل يحمل رسالة رجل ميت. - لكنك تجلس بجوار النافذة، تحلم بوصول الرسالة، والمساء يقترب.

هكذا، بكل هذا الأمل، وكل هذا اليأس يرى شعبنا القيصر. لا يعرف حتى أي قيصر يحكمه، وغير متأكد من إسم الأسرة الحاكمة. ففي المدرسة يُعلّمون التلاميذ الكثير من هذا الأشياء، لكن الإلتباس في هذا الشأن عظيم، لدرجة أن أفضل تلاميذ المدرسة يقع ضحية له. ففي قُرانا صار الملوك الذين ماتوا من قديم الأزل يعتلون العرش. والملك الذي لا يذكر إسمه إلا في الأغاني يصدر مرسومًا يقرأه الكاهن أمام المذبح. إن أخبار أقدم المواقع الحربية التاريخية لم يعرفها جاري إلا الآن، يحكيها بوجه مشتعل بالحماس. إن نساء القيصر المتخمات فوق وسائد حريرية، المنصرفين المنصرفات عن أخلاق النبلاء بفضل رجال البلاط الماكرين، المفعمين بالسلطة وبشهوة الجنس الجامح يتمرغون يتمرغن بفسوق في جنة جرائمهم المخزية. وكلما مر الوقت، ازدادات بشاعة كل الألوان، ويوما ما تحكي كل القرية بكل الأنين أن زوجة القيصر تجرعت دم زوجها منذ آلاف السنين.

هكذا يتذكر الناس الملوك السابقين، ويخلطون بين الأموات والأحياء منهم. ولو حدث يومًا ما، ولو لمرة واحدة في تاريخ البشر، أن جاء صدفة إلى قريتنا موظف من قبل القيصر، في رحلة عبر المحافظة فسيبلغنا باسم الحكومة عن بعض المطالب، ويراجع سجلات الضرائب، وسيَحُضر حصة في إحدى المدارس، وسيسأل الكاهن عن سلوكنا وعما نفعله، وقبل أن يستقر على أكتاف حامليه، سيوجز كل شيء في أحاديث مطولة أمام القرية المجتمعة. فينظر أحدهم خلسة على الآخر، ثم

ينحني على الأطفال حتى لا يراه مبعوث القيصر، ويقول لنفسه: ما هذا؟ إنه يتحدث عن رجل ميت وكأنه على قيد الحياة، إن هذا القيصر قد مات منذ زمن قديم، واندثرت أسرته. إن هذا الموظف يهذأ بنا، لكننا نتصرف وكأننا لا نعرف بهذا الأمر كي لا يغضب. في الحقيقة لن نستمع إلا لسيدنا هنا، وكل ما عدا ذلك ذنب كبير. وخلف خطوات ثقيلة من حملة الموظف الذي يتباعد يظهر من صندوق متهدم رجل من بين الأموات على أنه سيد قريتنا.

كذلك لا يتأثر أهلنا كثيرًا بالإنقلابات في السلطة والحروب المعاصرة. أتذكر حكاية من طفولتي. فقد حدثت انتفاضة في إحدى المحافظات المجاورة لنا والنائية هى الأخرى. لا أتذكر أسبابها، وهى ليست مهمة على أي حال. إن الإنتفاضات تحدث هناك مع صباح كل يومٍ جديد، إنه شعب ثائر. في ذلك الوقت أحضر لنا في البيت أحد المتسولين الذين يمرون بقريتنا منشورًا للثوار. في ذلك اليوم كان عندنا بالصدفة عيد، وكانت الحجرة ممتلئة بالضيوف، وكان الكاهن يجلس في منتصفها ويطالع هذا المنشور. وانفجر جميع الحاضرين في الضحك فجاة، وتمزق المنشور في وسط الزحام، وحصل المتسول بالطبع على عطايا سخية، وخرجوا من الغرفة، وتفرقوا جميعًا لقضاء يوم جميل. لماذا؟ لأن لهجة المحافظة المجاورة تختلف عن لهجتنا، ويظهر هذا في بعض صيغ اللغة الفصحى التي تبدو لنا لغة قديمة. وما أن قرأ الكاهن صفحتين من الصحيفة حتى عرف الجيمع: أمورًا قديمة، سمعنا عنها

من قبل، وعانينا منها من قبل. ورغم ذلك – وهذا ما يعنيني من هذه الذكرى – فإن المتسول راح يحكي عن أمور حياتية مؤلمة. هزوا جميعًا رؤسهم من الضحك، وفقدوا رغبتهم في سماع أي شيء آخر. هكذا نحن قادرون على محو الحاضر.

لو أراد أحد أن يستنتج من هذا أننا بدون قيصر فلن يكون ابتعد كثيرًا عن الحقيقة. ويجب أن أكرر مرات ومرات: لا يوجد شعب وفيّ لقيصره أكثر من شعبنا في الجنوب، لكن الوفاء لا يكفي القيصر. هناك تنين مقدس معلق يقف فوق عامود صغير في نهاية القرية كرمز للإحترام ويتقد من الحماس تجاه بكين، لكن بكين غريبة عن أهل القرية، كغربة يوم الحساب. هل يمكن أن نجد بالفعل قرية، البيوت فيها متراصة فوق بعضها في كل الحقول، وأبعد من أن نراها من فوق تل قريتنا، وبين تلك البيوت تتراص رؤوس فوق بعضها ليلًا ونهارًا؟ أسهل من تصور مدينة كهذه هو التصديق بأن بكين والقيصر شيء واحد، سحابة تطوف الأفق تحت الشمس على مر العصور.

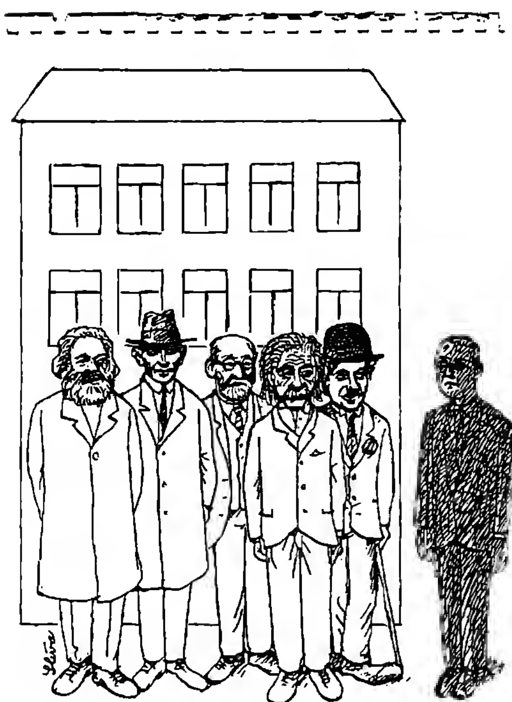
نتيجة مثل هذه الآراء هى حياة حرة طليقة. حياة فاسدة تمامًا. لم أجد العفة الخالصة في أي مكان سافرت إليه مثلما وجدتها في وطني – لكن رغم ذلك فالحياة لا تخضع فيه لأي من القوانين المعاصرة، فنحن نتبع تعاليم وتحذيرات تأتي إلينا من العصور الماضية.

أتخوف تمامًا من التعميم، ولا أؤكد أن هذا الأمر يسري بنفس القدر في عشرات الآلاف من القري في محافظتنا، فما بالك بخمسمائة محافظة من محافظات الصين. لكن يمكنني مع ذلك بناء على العديد من المخطوطات التي قرأتها في هذا الشأن، وبناء على ملاحظاتي الخاصة – وخاصة أنه العنصر البشري الذي عند تشييد السد قدم للإنسان المرهف الحس فرصة لكي تسافر روحة إلى كل المحافظات –، بناء على هذا كله يمكنني القول أن الرأي السائد حول القيصر يدلل دائمًا وفي كل مكان على وجود سمة أساسية متفق عليها مع الرأي السائد عندنا. لا أريد على الإطلاق أن أقدم هذا المفهوم عن غيره، بل على العكس. عيب هذا المفهوم هو حكومتي التي لم تكن قادرة في أقدم مملكة على وجه الأرض وحتى اليوم على أن تصون مؤسسة القيصر بالوضوح المطلوب حتى تؤثر على الدوام حتى في أقصى حدود المملكة. لكن هذا من ناحية أخرى يعد دليلًا على ضعف الخيال، وضعف الثقة بالوطن الذي يعجز عن انتشال القيصرية من فساد بكين ويحتضنها بماضيها وحاضرها فوق صدره الخنوع الذي لا يتطلع الى شيء أفضل من أن يشعر يومًا ما بهذه اللمسة، ويموت بها.

إذن لا يوجد تفضيل مطلق لهذا المفهوم. وبالتالي يصبح من الواضح أن نقطة الضعف هذه تبدو واحدة من الحلقات الهامة في وطننا، بل إنها – لو سمحت لنفسي أن أتمادى في الوصف – الأرض التي نعيش عليها. إن البداية بذكر الأسباب التفصيلية والإنتهاء بإلقاء

اللوم يعني ليس فقط زعزعة ضمائرنا، ولكن أيضا الأرض من تحت أقدامنا. لذلك لا أنوي البحث في هذه المسألة أكثر من ذلك.

تقرير إلى الأكاديمية[1]



[1] في الفترة من عام 1915 وحتى 1917 أقام كافكا بعض الوقت عند شقيقته (أوتيللا) في بيتها الصغير، ثم انتقل لاحقًا للإقامة في شقة استأجرها بقصر شونبورن بالعاصمة براج. في تلك الشقة كتب فرانس كافكا قصتي "تقرير إلى الأكاديمية" و"سور الصين العظيم"

السادة أعضاء الأكاديمية المحترمون!

تشرفت بتلقي دعوتكم الكريمة لي لكي أقدم للأكاديمية تقريرًا عن حياتي السابقة كقرد.

للأسف لا يمكنني قبول الدعوة على هذا الأساس. فما يقرب من خمسة أعوام تفصلني عن حياة القرود. ربما تكون فترة قصيرة بحساب الزمن، لكنها طويلة جدًا لو أنكم قضيتموها عدوًا كما فعلت أنا. محاطًا من وقت لآخر بأناس رائعين، وبالنصائح والتصفيق وعزف الأوركسترا، لكني كنت في الواقع وحيدًا، لأن كل المرافقين – حتى أبقى في الموضوع – وقفوا بعيدًا عن الحائط العازل. لم يكن في استطاعتي إثبات هذا لولا إصراري على أصلي بكل حسم، على ذكرياتي من فترة الشباب. فالتخلي عن العناد كان من أكثر التعليمات التي ألزمت نفسي بها. أخذت على نفسي، أنا القرد الحر، هذا العهد. لكن ذكرياتي بدأت تُغلَق أمامي شيئًا فشيئًا. ليت بوابة ذكرياتي – لو أراد الناس – كانت منذ البداية مفتوحة عن آخرها لتسمح لي بالعودة، لكن هذه البوابة ضاقت وانخفضت، وكأن السماء المقنطرة اقتربت من الأرض، وراح التطور يضربني بالسوط لأتقدم إلى الأمام. انتابني شعور لطيف بالأمن في حياة البشر. هدأت العاصفة التي تطاردني من الماضي. صارت اليوم مجرد تيار هواء خفيف يبرد قدمي. ضاقت الفجوة البعيدة التي تهب منها، الفجوة التي نفذت منها أنا أيضا. لو كان لدي المزيد من القوة

والرغبة، وأردت أن أعود إلى هناك، فعلي أن أنزع شعري من فوق جلدي حتى أنسل منها. بصراحة أحب دائمًا أن أتحدث عن هذه الأشياء بصورة تعبيرية. بصراحة، حضرات القرود، سادتي، لو مررتم بتجربة كتلك، فلن تكون بعيدة عنكم أكثر من بعدي عن الحياة في مجتمع القرود. فهى تدغدغ قدم كل من يسير على الأرض، بدءًا من الشمبانزي الصغير وحتى (آخيل) الكبير.

لكني ربما أجيبكم على سؤالكم في أضيق الحدود، وسيسعدني ذلك. كان أول ما تعلمت هو مد يدي، ومد اليد يعني الصراحة، رغم أن الكلمة الصادقة اليوم، وبعد أن بلغت من حياتي ما بلغت تساوي مد اليد. أنا لا أضيف للأكاديمية بهذا شيئًا جديدًا، وسأظل دائمًا أقوم بما هو مطلوب مني، وما لست قادرًا على الحديث عنه – ومع ذلك أتمنى أن يكون فيما أقوله اتجاه واضح، جاء منه قرد سابق إلى عالم البشر واستقر فيه. لكن هذا القليل الذي سوف تسمعونه لم يكن بإمكاني قوله ما لم أكن واثقًا تمامًا منه، وهو بفضل مكانتي التي تدعمت بصورة راسخة في كل الأشكال المتعددة للعالم المتحضر.

أنا قادم من ساحل الذهب. لا أعرف شيئًا عن اصطيادي إلا من التقارير الأجنبية. كانت بعثة الصيد التابعة لشركة هاجينباخ – تناولت مع أحد مدرائها كأسًا من النبيذ الأحمر وقتها – تستلقي على الشاطيء في أحد الأدغال. تترقب فريسة عندما جئت في المساء مع كل القطيع إلى مورد

الماء. سمعت صوت طلقات نار، ولم يُجرح أحد من القطيع إلا أنا، فأصبت بجرحين. أحدهما في وجهي. كان جرحًا خفيفًا. لكنه ترك ندبة غائرة حمراء. أطلق عليّ أحد القرود اسم (بيتر الأحمر) بسبب هذه الندبة الغبية والكريهة. صرت لا أتميز إلا بتلك الندبة الحمراء، وكأنني لم أكن يومًا ما إلا ذلك القرد المسمى بيتر الأحمر. هذا فقط على هامش الحديث.

أصابتني الطلقة الثانية في مفصل الركبة. كانت ضربة قوية، تسببت في أني مازلت أعرج حتى اليوم. قرأت في وقت لاحق في مقالة لأحد الصحفيين الذين أشاعوا عني في الجرائد أن طبيعتي كقرد لم تختفِ حتى الآن. يقال إن الدليل على ذلك هو أنه عندما تأتيني زيارة أخلع السروال بكل سرور، وأشير إلى المكان الذي أصابتني فيه الطلقة. يجب قطع أصابع هذا الشاب والتى كتبت المقالة، كلها، إصبعًا بعد الآخر. أنا، أنا يمكنني أن أخلع السروال أمام أي شخص كما أريد، لكنه لن يرى سوى شعر كثيف، وندبة من طلقات المجرمين – أستخدم هنا الكلمة الدقيقة لهدف معين، وأتمنى ألا تُفهم خطأً. كل شيء بديهي، ولا يوجد ما يستدعي الإخفاء. لو كنا نسعى إلى الحقيقة، فكل إنسان محترم عليه أن ينبذ تلك الأساليب النخبوية. فلو أن ذلك الكاتب خلع سرواله أمام الضيوف، سيكون الأمر مختلفًا. لكني أعتقد أنه سيكون من الفطنة ألا يفعل ذلك. لكن فليكف عن إزعاجي، وليتوقف عن حساسيته المفرطة!

بعد تلك الإصابات - وهنا تبدأ ذاكرتي الخاصة في العمل - وجدت نفسي في أحد الأقفاص على متن الباخرة (هاجينبيك). لم يكن قفصا شبكيًا بأربعة حوائط. بل كانت ثلاث حوائط مُعدّة لصنع صندوق ما. كان الصندوق بمثابة الحائط الرابع. كان كل هذا قصيرًا للغاية، فلم يسمح لي بالوقوف، وضيقًا بحيث منعني من الجلوس. فجلست القرفصاء، وحنيت ظهري، واتكأت على ركبتي المنتفضتين. في البداية لم أرغب في رؤية أحد، أردت فقط أن أظل جالسًا في الظلام. أسندت وجهي على الصندوق والشِّباك تقطع في لحم ظهري. يعتبرون أن هذا مناسبًا لتربية حيوان بريّ في الفترة الأولى، ولا يمكنني اليوم بعد تلك التجارب أن أنفي أن هذا من المنظور البشري صحيح.

لم أفكر وقتها في هذا الأمر. كنت وقتها لأول مرة في حياتي بدون مخرج. فلم يكن هناك طريق مباشر على الأقل. لم يكن أمامي مباشرة غير الصندوق، كل لوح فيه مثبت بقوة بلوح آخر، وتوجد بين الألواح فتحة بطول كل لوح. عندما اكتشفتها ألقيت عليها التحية بنباح مخلوق جاهل. لكن تلك الفتحة لم تكن تسمح بخروج ذيلي، ولم يكن ممكنًا توسيعها بأي قوة يمتلكها قرد.

لم أصنع ضجيجًا كبيرًا على غير المعتاد، كما قالوا لي لاحقًا. استخلصوا منه أنني إما أن أموت سريعًا، أو أنني سأكون مناسبًا تمامًا للتدريب لو تجاوزت الفترة الأولى الحرجة. تجاوزتها. نشيج مكتوم،

وتنظيف جسدي مس البراغيث وما صاحبه من ألم، ولعق ثمار جوز الهند بكل إرهاق، وضرب برأسي على الصندوق، وإظهار لساني لكل من يقترب مني. كانت هذه أول الأفعال في حياتي الجديدة. رغم كل هذا ظل الإحساس الوحيد الذي تملكني، هو أنه لا مفر مما أنا فيه. كل ما شعرت به وقتها كقرد يمكنني الآن أن أصفه بالطبع بكلمات بشرية فقط، وبهذا لا يكون وصف ما حدث دقيقًا. لكن رغم أنني عاجز عن وصف حقيقة القرد العجوز، لكنه على الأقل في نفس الاتجاه. وهذا أمر مؤكد.

كان لدي في الواقع العديد من المخارج، رغم أني لا أملك واحدًا منها الآن. لقد وقعت في الفخ. لو أنهم ثبتوني بمسامير لما أثر ذلك في تطلعي إلى الحرية على الإطلاق. لماذا؟ يمكنك أن تمزق اللحم بين أصابع قدميك، ولن تفهم. يمكنك أن تضغط بظهرك على الشِّباك حتى يتفسّخ، ولن تفهم. لم يكن هناك مخرج. لكن كان عليّ أن أجده، لأني بدونه لن أتحمل الحياة. سألقى حتفي لا محالة عند حائط ذلك الصندوق. كان السائد فوق الباخرة هاجنبيك أن تُوضع القرود في صندوق. لهذا توقفت عن كوني قردا. إنها مسيرة فكرية واضحة وجميلة، قمت بتجربتها في معدتي، لأن القرود تفكر ببطنها.

أخشى أن ما أقوله حول ذلك المخرج ليس واضحًا بالقدر الكافي.

أنا أستخدم هذه الكلمة بمعناها الطبيعي والكامل. لا أستخدم لفظ الحرية عن عمد. لا أعني ذلك الشعور الكبير بالحرية متعددة النواحي.

ربما كنت أعرفها كقرد، وكنت أعرف البشر الذين يتوقون إليها. فيما يتعلق بي، فأنا لم أشتق إلى الحرية، لا في ذلك الوقت ولا اليوم. بالمناسبة: إن الحرية بين البشر غالبًا ما تكون وهمًا كبيرًا. وبما أن الحرية تعد من أسمى المشاعر، فإن الوهم الناتج عنها هو أيضًا من أسمى الأوهام. كنت كثيرًا ما أرى في مختلف المسرحيات الهزلية التي تسبق ظهوري اثنين من الفنانين العالقين فوق أرجوحة البهلوان عند السقف يتمرنان. كانا يثبان ويتأرجحان ويتساقطان في أحضان بعضهما، يمسك أحدهما بشعر الآخر بين أسنانه. قلت لنفسي: "هذه هى حرية البشر. حرية الحركة" يا لها من سخرية من الطبيعة الشامخة! لا يمكن لأي مبنى أن يتحمل قهقهة جنس القرود وهي ترى ذلك المشهد.

لا، لم أسع إلى لحرية. لا يمكن أن أستغني عن هدوئي الداخلي. وبالفعل أدين بالفضل للهدوء على كل ما حدث لي. الهدوء الذي شعرت به فجأة بعد أول أيامي على متن الباخرة. كذلك أشكر من كانوا على متن الباخرة على هذا الهدوء بالطبع.

كانوا جميعًا أناسًا طيبين. مازلت حتى اليوم أتذكر بسعادة صوت خطواتهم الثقيلة التي كنت أسمعها وأنا نائم. كانوا معتادين على التعامل المتمهل جدًا مع كل شيء. عندما كان أحدهم يريد أن يفرك عينيه، كان يرفع يده مثل الميزان المعلق. كانت مزحاتهم عنيفة، لكنها كانت تتسم بالود. كانت ضحكاتهم تختلط بالسعال الذي بدا خطيرًا،

لكنه لم يكن يعني شيئًا. كانوا دائمًا يضعون شيئًا ما في أفواههم، ولا يهمهم أين سيلفظونه. يشتكون على الدوام من أن البراغيث الموجودة في شعري تقفز عليهم. رغم ذلك لم يغضبوا مني بحدة يومًا ما. كانوا يعرفون أن البراغيث تحيا بسعادة بين ثنايا الفرو على جسدي، وأنها حشرة وثّابة. فتعايشوا مع الأمر. كان بعضهم يتجمع حولي في أوقات فراغهم. يجلسون في نصف دائرة، لا يتحدثون تقريبًا، فقط يتهامسون، ويتمرغون فوق الصناديق، ويدخنون الغليون. يلطمون بعضهم فوق أرجلهم بمجرد أن أقوم بأية حركة. يمسك أحدهم من وقت لآخر بعصا ما، ويوخذني بها في أماكن أشعر معها بالراحة. لو دعاني أحدهم اليوم لكي أعود إلى السفينة لرفضت الدعوة بكل تأكيد. لكن من المؤكد أيضًا أن ذكرياتي هناك لم تكن كلها سيئة.

صرفني الهدوء الذي تمتعت به وسط هؤلاء البحارة عن أي محاولة للهرب. اليوم أرى الأمر وكأنني توقعت وقتها أني يجب أن أعثر على مخرج طالما أردت البقاء على قيد الحياة، لكني لن أعثر على هذا المخرج بالهرب. لا أعرف حتى إن كان الهروب وقتها ممكنًا، لكني أعتقد أنه كان كذلك. القرد يستطيع دائمًا الهرب. اليوم عليّ أن أكون حريصًا بأسناني الحالية عند شق ثمرة البندق. لكني وقتها كنت قادرًا على قرض قصر كامل بأسناني. لكني لم أفعل. ما هى جدوى شيء كهذا؟ كنت بالكاد سأخرج رأسي، وسيمسكونني مرة أخرى، ويضعوني في قفص أسوأ مما كنت فيه. أو أهرب خلسة عند حيوانات

أخرى، مثل الحيات التي كانت أمامي على سبيل المثال، وألفظ أنفاسي الأخيرة في أحضانها، أو أتمكن في النهاية من الزحف إلى ظهر الباخرة وأقفز في الماء، أتهادى قليلًا في المحيط ثم أغرق. أفعال لا يقوم بها إلا يائس. لم أفكر بطريقة بشرية كما أفكر الآن، لكنني تصرفت تحت تأثير الظروف تمامًا وكأنني تدبرت الموقف.

لكني لم أفكر، وبقيت أتابعهم بكل هدوء. رأيتهم يتحركون هنا وهناك، نفس الوجوه، نفس الحركات. كثيرًا ما كان يُهيّأ لي أنه رجل واحد. هذا الرجل أو هؤلاء الناس كانوا يروحون ويجيئون، ولم يتوقفوا عن ذلك. بدا لي الهدف الأكبر. لم يعدني أحد أنهم سيرفعون الشِّباك عندما أصير مثلهم. إنهم لا يقدمون مثل هذه الوعود التي لا يمكن تحقيقها. لكن لو تحققت ستظهر الوعود في مكان بحثنا فيه من قبل طويلًا وبلا طائل. لم يكن لدى هؤلاء الناس أي شيء مميز يمكن أن يلفت نظري. لو أنني كنت من أنصار الحرية المذكورة لكنت فضلت المحيط عن ذلك المخرج الذي انعكس على نظرات هؤلاء الناس العابسة. لكن المؤكد هو أنني كنت أراقبهم قبل أن أفكر في مثل هذه الأمور. دفعني ما تجمع لدي من هذه الملاحظة إلى اتجاه بعينه.

كان من السهل تقليد البشر. تعلمت كيف أبصق في الأيام الأولى. صار كل منا يبصق في وجه الآخر. الفرق بيننا هو أنني كنت ألعق وجهي بعدها، وهم لا. سرعان ما تعلمت تدخين الغليون مثل أي رجل

كبير. عندما كنت أسوي الدخان في رأس الغليون بإصبعي كانت البهجة تنتشر في الطابق على الباخرة. لكنني ظللت لفترة طويلة لا أفهم الفرق بين الغليون الفارغ والمملوء.

أكثر ما أعجبني هو عندما كنت أبلل نفسي من زجاجة الكحول. كانت رائحة الكحول تزعجني. أجبرت نفسي على القيام بكل ما أستطيع. مرت أسابيع قبل أن أتغلب على الأمر. ما أثار دهشتي هو عندما كان الناس يأخذون هذا الصراع الداخلي بجدية كبيرة، أكبر من أي شيء آخر أقوم به. لم أكن قادرًا على التفرقة بين هؤلاء الناس في مخيلتي. لكن كان بينهم رجل يأتي دائمًا معهم. مع أصدقائه ليلًا ونهارًا، وفي ساعات مختلفة، ثم يتقدم مني ويعطيني دروسًا. لم يفهمني، أراد أن يفهم الغموض في حياتي. كان ينزع سدادة الزجاجة على مهل، ثم يتفحصني بعينيه ليتأكد من أني كنت أفهم ما يقوله. أعترف أني كنت دائمًا أستمع إليه بكل إنصات وتهور واستغراب. لن يجد مدرس بشري طالبًا مثلي في كل الكرة الأرضية. كان يرفع الزجاجة إلى فمه بعد أن يزيل السدادة، وأنا أتابعه بنظري، وأتابع الشراب وهو ينزلق في حلقه. كان يومىء برضى، ثم يضع الزجاجة على فمه، وأنا منتشٍ من المعرفة المتصاعدة التي أحصل عليها، أصرخ وأثرثر، أروح وأجيء قدر استطاعتي. فيضع الزجاجة بسعادة ويشرب منها. أحاول أن أقلده بيأس وبتعجل، فتثور ثائرتي في القفص. وهو ما يستدعي شعوره بالرضا الكبير، فيبسط ذراعيه عن آخرهما وهو يحمل

الزجاجة، ثم يقربها من فمه وهو يصنع قوسًا في الهواء، ويشرب الزجاجة حتى آخر قطرة فيها بنفس واحد. ثم يرتد إلى الخلف بشكل استعراضي مبالغ فيه. أرهقتني الرغبة الجامحة، فلم أستطع متابعته. تعلقت بين الشِّباك مستسلمًا للإرهاق. لكنه واصل شرح نظرياته وهو يمرر يده على بطنه، ويضحك.

وهنا بدأت التدريبات العملية. ألا يكفي ما أصابني من إرهاق بسبب النظرية؟ بالطبع، إرهاق شديد. هذا هو قدري. رغم ذلك مددت يدي قدر استطاعتي لأمسك بالزجاجة التي يقدمها لي. أنزع غطاءها بيد مرتعشة وأنا أشعر بقوة جديدة تسري في جسدي، فأرفع الزجاجة بنفس الطريقة التي رفعها بها الرجل. أضعها على فمي - ثم ألقيها بعيدًا بكل اشمئزاز. فرغم أنها فارغة، إلا أن رائحة الكحول تفوح منها. رميتها على الأرض بكل قرف. انتاب مدرسي الحزن وانتابني حزن أكبر. لم يخفف منه أنني لم أنس أن أتحسس بطني وأضحك بعد أن رميت الزجاجة بصورة لافتة.

كانت حصص التعليم تتكرر كثيرًا بهذه الصورة. لم يغضب مني مدرسي، وهو ما أعجبني فيه. كان أحيانًا يضع الغليون المشتعل على فرو جسمي، في مكان يصعب عليّ الوصول إليه، ويبدأ في التدخين. ثم سرعان ما يطفئه بيده القوية. لم يكن يغضب مني. فَهِم أن كل منا

يحارب في الجبهة نفسها ضد طبيعة القرود، وأن نصيبي في هذه المعركة أصعب بكثير.

كان ما حدث نصرًا كبيرًا لي وله. فذات مساء انطلقت فيه الموسيقى من جهاز الفونوجراف أمام عدد كبير من المشاهدين – ربما كان هذا احتفالًا كبيرًا، وجاء أحد الضباط يتجول بين الناس - في ذلك المساء أمسكت زجاجة الخمر التي تركها لي فوق القفص دون أن يدري، ونزعت عنها السدادة وسط انتباه الحاضرين الواضح. وضعتها على فمي مثل أي طالب نجيب، وبدون أي تردد، أو اشمئزاز، أفرغت الزجاجة في جوفي. أقسم لكم! شربتها كلها مثل أي مدمن على الشراب، بعينين جاحظتين. ثم رميت الزجاجة بعيدًا، ليس من يأس، بل بإيماءة فنان. نسيت أن أملس على بطني. ولكن في المقابل صرخت قائلًا: "مرحى!" لم أستطع أن أفعل شيئًا آخر، لأنني شعرت برغبة في قول ذلك، لأن كل حواسي كانت منتشية. لهذا انطلق من داخلي صوت بشري واضح. بهذه الصرخة قفزت وسط الناس. سمعت صيحاتهم: "اسمعوا! إنه يتكلم"وكأنها قبلة على كل جسدي المشبع بالعرق.

أكرر: لم يكن لدي دافع لتقليد البشر. قلدتهم لأني كنت أبحث عن مخرج، وليس لسبب آخر. لكن الفوز لم يكن يعني لي الكثير. سرعان ما ضاع مني صوتي، ولم يعد إليّ إلا بعد بضعة أشهر. ازداد اشمئزازي من زجاجة الخمر. لكن الهدف قد تحدد، وإلى الأبد.

عندما خصصوا لي في مدينة (هامبورج) أول مدرب، عرفت على الفور أن أمامي خيارين: حديقة الحيوان، أو المسرح الهزلي. لم أتردد. قلت لنفسي: استجمع كل قواك حتى تصل إلى المسرح الهزليّ. هذه هي نقطة الانطلاق. فحديقة الحيوان ليست سوى قفص كبير. ولو ذهبت إلى هناك فأنت ضائع لا محالة!

تعلمت أيها السادة! عندما لا يوجد طريق آخر، فعليك أن تتعلم. عليك أن تتعلم. إن أردت أن تعثر على بوابة الخروج، عليك أن تتعلم دون النظر إلى أي اعتبارات أخرى. تصحو والسيف فوق رقبتك. تعترف من تلقاء نفسك عند أول محاولة للمقاومة. اختفت طبيعة القرود من نفسي، وانطلقت إلى الخارج هائجًا. كاد مدرسي الأول يتحول إلى قرد مما رآه، فترك التعليم، ونقلوه إلى إحدى المصحات. لكن من حسن الحظ أنه شفي سريعًا مما ألمّ به.

لقد تناوب عليّ الكثير من المدرسين، وأحيانًا كانوا يأتون معًا. عندما صرت أكثر ثقة فى قدراتي، عندما راح العامة يتابعون ما يحدث لي من تقدم. بدأ المستقبل يتضح أمام عيني، بدأت أختار المدرسين بنفسي. أستقبلهم في خمس غرف متجاورة، وأتعلم منهم جميعًا في الوقت نفسه. فأتنقل باستمرار بين الغرف.

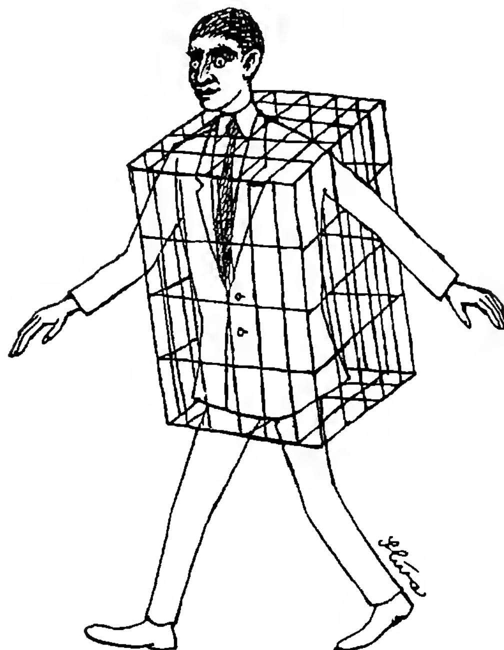
كم كانت نجاحات كبيرة! تدفقت أشعة العلم إلى عقلي المتيقظ من كل جانب! لا أنكر أن هذا الأمر أسعدني. لكنني أعترف أنني أيضًالم

أبالغ في تقدير ما وصلت إليه. لم أفعلها وقتها، ولا حتى اليوم. لقد حصلت على معدل متوسط من معارف المواطن الأوربي بمجهود لا يقارن بأي مجهود غيره على وجه الأرض. ربما أن هذا لا يعني شيئًا في حد ذاته، لكنه ساعدني في أن أخرج من القفص، وأمّن لي طريق خروج خاصًا، أمن لي مخرجًا إنسانيًا. هناك قول مأثور يقول: بوابة الخروج. وقد صنعتها. لقد هربت. لم يكن أمامي طريق آخر، على اعتبار أن الحرية ليست خيارًا مطروحًا.

عندما أنظر إلى التطور الذي مررت به، وإلى الهدف الذي حققته حتى الآن، أجد نفسي راضيًا، ولست راضيًا في الوقت نفسه. أستلقي غير مستقر، وأجلس غير مستقر في مقعد هزّاز، وأنظر من النافذة، وأضع يدي في جيوبي، وأضع زجاجة النبيذ على الطاولة. لو جاءتني زيارة أستقبلها كما يليق. راعي الحفل يجلس في الدهليز، يأتي إليّ عندما أدق الجرس، ويستمع إلى ما أريد أن أقوله له. أقدم عرضًا في كل ليلة تقريبًا. نجاحاتي تتصاعد بصعوبة. عندما أعود إلى بيتي في المساء بعد انتهاء الولائم، وبعد الاجتماعات العلمية، وبعد اللقاءات الجيدة، أجد شمبانزي صغيرًا مدربًا إلى حد ما ينتظرني، ألاطفه على طريقة القرود. لا أحب رؤيته أثناء النهار. فعيناه تلمعان بجنون حيوان مشوش يتدرب. أنا أعرف هذا الشعور، وأمقته. لقد بلغت بلا شك كل ما كنت أصبو إليه. لا تقولوا لي أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا العناء. لكني لست معنيًا بما يقوله الناس. فقط أريد

أن أنشر المعرفة. وما أقدمه ليس سوى تقرير. ولم أقدم لكم، حضرات السادة أعضاء الأكاديمية، سوى مجرد تقرير.

هو[1] (مذكرات من عام 1920)



[1] أقام كافكا في عام 1920 في إحدى المصحات العلاجية في مدينة (مورانو). كتب خلالها قصة "هو" وغيرها من القصص. في ذلك الوقت أيضًا بدأ الاتصال بصديقته ميلانا ياسنسكا بولاكوفا التي أعطاها وقتها كل يومياته كدليل على ثقته الكبيرة بها. كانت متزوجة من رجل آخر رغما عنها. لكن كافكا كان يعلم أن وقت الحب قد ولى، لهذا لم تتجاوز علاقتهما بعض اللقاءات العابرة.

لا يمكن أن يكون مستعدًا بشكل كافٍ لأي موقف. لذلك لا يمكنه أن يشعر باللوم. من لديه الوقت للاستعداد في هذه الحياة التي تتطلب الاستعداد التام في كل لحظة؟ لو توافر الوقت، هل يكون الاستعداد ممكنًا، ونحن لا نعرف ما هو مطلوب منا؟ هل من الممكن أن نقف وجهًا لوجه أمام مهمة ما طبيعية، ليست مُعدة بشكل جيد؟ لذلك نجده مسحوقًا منذ القدم. من الغريب، من دواعي سروره أيضًا أنه لم يكن مستعدًا لهذا الانسحاق.

كل ما يفعله يبدو له جديدًا تمامًا. لكنه أيضًا - نظرًا لاستحالة وجود الكثير من الأشياء الجديدة - بسيط للغاية. يفعل أشياءً من الصعب قبولها، أشياء عاجزةً عن أن تصبح جزءًا من التاريخ. تمزق سلسلة الجيل، وتضخ في عمق الأعماق موسيقى العالم الذي يؤمنون بوجوده. أحيانًا يدفعه الغرور إلى الخوف على العالم أكثر من خوفه على نفسه.

إنه قد يتكيف مع السجن. وينتهي به الحال كسجين – وقد يصبح هذا هدفًا لحياته. لكن السجن لم يكن سوى فقص عليه شِبَاك، يتدفق منه ضجيج العالم، ويتردد هنا وهناك بكل فتور وكبرياء. صار السجين حرًا، في استطاعته أن يشارك في كل شيء. لم يكن يفوته شيءٌ في الخارج. استطاع أن يغادر القفص. فلم تكن أسلاك الشباك تبعد عنه إلا مترًا واحدًا، لم يكن حتى سجينًا.

شعر بأنه يعوق الطريق بوجوده على قيد الحياة. لكن هذا العائق كان دليلًا على أنه مازال حيًا.

إن عظام جبينه تقف عائقًا في طريقه، فيخبط جبينه بجبينه حتى تسيل منه الدماء.

يشعر بأنه سجين في هذه البلاد. يشعر بالضيق، يعتصره الألم والوهن والمرض، وأفكار السجناء الجنونية. لا عزاء يبعث في نفسه السرور. لأنه مجرد عزاء هش. عزاء يعصف برأسه ليقاوم به حقيقة السجن القاسي. لو سأله أحدهم عما يريده، لن يعرف الإجابة، لأن هذه هى أحد الأدلة الدامغة على أنه لايعرف شيئًا عن الحرية.

البعض يرفض الآلام التي تسببها الشمس، أما هو فيرفض الشمس التي تسبب الآلام.

حركة الحياة المتلاطمة التي تعذب ذاتها، حركة ثقيلة، تتعثر كثيرًا، لكنها لا تهدأ. حركة تعذب نفسها وغيرها لأنها تقدم دعوة إلى التفكير لا تَكِلّ. أحيانًا يعتقد أن هذا الحزن يسبق الأحداث. وعندما يعرف أن صديقه سيرزق بطفل يدرك أنه سيعاني من أفكاره عن قريب.

يرى أمرين: الأول تفكير، ودراسة، وتدبر، وتدفق هادئ ممتلئ بالحياة، لا يتحقق إلا بنوع من الراحة أمور لا تحصى، وإمكانيات لا

تعد. وحتى نبات القُرّاص، كي يصنع لنفسه جذرًا يحتاج إلى فتحة كبيرة في الحائط. لكن تلك الأنشطة لا تحتاج إلى مكان. يمكنها أن تنمو حيث لا وجود لأي فتحة. يمكنها أن تعيش بالآلاف متشابكة ومتناغمة. هذا هو الأمر الأول. الأمر الثاني: إن اللحظة التي يُستدعى فيها الإنسان كي يسدد ديونه. لا يصدر منه صوت واحد. يعود من جديد إلى التفكير، الخ. لكنه الآن وهو لا يملك أي رؤية لا يمكنه أن يتخبط هكذا بلا طائل. يصير ثقيلًا ثم يغرق مصحوبًا باللعنة.

القضية هي أنني منذ أعوام كثيرة مضت كنت أجلس مبتئسًا فوق مرتفع في منطقة باترشين أسأل نفسي عما أريد من الحياة. اتضح لي أن أهم وأعذب أمنياتي هو أن أُكوّن رؤية عن الحياة (وأتمكن من إقناع الآخرين بها كتابة – وهما أمران مرتبطان ببعضما لا ينفصلان)، رؤية تحافظ فيها الحياة على غلظة سقطاتها وارتفاعاتها، لكنها في نفس الوقت تظهر بجلاء وكأن شيئًا لم يكن. وكأنها حلم، وكأنها ارتقاء. قد تكون أمنية جميلة لو أنني تمنيتها على نحو سليم. مثلًا مثل أمنية أن تدق على الطاولة بكل حرص الحرفي وتدقيقه، وفي نفس الوقت تتظاهر وكأنك لا تفعل شيئًا. لكن ليس على طريقة أن يقول أحدهم: "إن هذا الرجل يعتبر عمله بالمطرقة وكأنه لا يعني شيئًا"لكن "النص يعتبر العمل بالمطرقة عملًا حقيقيًا، وفي نفس الوقت لا شيء" بهذا يظل العمل بالمطرقة أكثر جرأة وأكثر حسمًا وأكثر واقعية، ويمكن أن نقول أكثر جنونًا.

لكنه لم يجرؤ على أن يتمنى شيئًا كهذا، لأن أمنيته لم تكن أمنية. كانت مجرد دفاع، مجرد ترويض للعدم، وهو بنشاط ما، أراد أن يضفيه على العدم الذي خطا فيه بالكاد أولى خطواته الناضجة. الخطوات التي شعر بها وكأنها أحد عناصره. كان الأمر وقتها مجرد توديع لعالم الشباب الخادع. لم يترك نفسه يومًا لأن ينخدع فيه. لم يستسلم إلا لخطب منمقة وهمية عن قامات هنا وهناك. ومن هنا جاءت ضرورة "الأمنية"

إنه ليس دليلًا إلا على نفسه. هو نفسه الدليل الوحيد على نفسه. كل أعدائه سيتغلبون عليه على الفور، ليس لأنهم قد ينحونه جانبًا (فهو لا يتزعزع) لكن لأنهم يبرهنون على أنفسهم بأنفسهم.

إن الترابط الإنساني قائم على أن الفرد بوجوده القوي يَرُدّ غيره من الأفراد. فهم في حد ذاتهم لا يمكن ردهم. يعد هذا الأمر مصدرًا للمتعة والسعادة لمثل هؤلاء الأفراد، لكن تنقصه الحقيقة، والأهم هو المثابرة الدائمة.

كان في السابق جزءاً من مجموعة تذكارية. تصطف حول مركزها المرتفع بشكل بديع رموز لكفاءات عسكرية، وأعلام الفن، والعلوم، والمهن. كان واحدًا من تلك القامات. هذه المجموعة تداعت منذ زمن، أو أنه غادرها، وراح يناضل في الحياة. فقد وظيفته القديمة، ونسى حتى ما كان يفعله من قبل. ربما أن ذلك النسيان كان سببًا في حزنه،

وتشككه، وقلقه، وشوقة إلى الأيام المنصرمة التي دنسها الحاضر. هذا الشوق هو أهم عناصر قوة الحياة، إن لم يكن القوة نفسها.

إنه لا يحيا من أجل حياته هو نفسه، فهو لايفكر من أجل أفكاره الخاصة. إنه يشعر وكأنه عاش وفكر تحت وطأة أسرة ما، كانت رغم هذا تمتلئ بقوة فكرية وحياتية. هذه القوة كانت تمثل لها، لقانون لا يعرفه، ضرورة لا جدال فيها. من أجل تلك الأسرة المجهولة وتلك القوانين المجهولة لا يمكنه أن يكون حرًا.

إنه ذنب وراثي، إثم قديم ارتكبه الإنسان. ويتوقف الأمر على اللائمة التي تقع على الإنسان، والتي لا يريد أن يتخلى عنها، أي أنه ارتكب إثمًا، وأنه بُلي بذنب موروث.

وقف طفلان أمام نافذة عرض في متجر كاسينيللي. يبلغ الولد من العمر حوالي ستة أعوام، والبنت حوالي سبعة أعوام. كل منهما يرتدي ملابسَ فاخرة. يتحدثان عن الله وعن الذنوب. ظللت واقفًا خلفهما. يبدو أن البنت كانت كاثوليكية، واعتبرَت أن الكذب على الله هو الذنب الحقيقي الوحيد. ربما كان الولد بروتستانتيًا، راح يسألها بكل عناد الأطفال عن معنى الكذب على الناس، وعن السرقة. قالت البنت: "إنه ذنب كبير. لكنه ليس من الكبائر. إن الذنوب التي ترتكبها معصيةً لله هى من أكبر الكبائر. أما الذنوب التي ترتكبها معصية للبشر فعلينا أن نعترف بها في الكنيسة. وعندما أعترف سيرافقني ملاك، وعندما أرتكب ذنبًا سيلاحقني

الشيطان، لكننا لا نراه" وعندما أصابها الإرهاق من هذا الحديث الذي لا يخلو من الجدية، التفتت إليه، وقالت له مازحة: "أترى، لا أحد يقف هنا خلفي" التفت الولد أيضًا خلفه، فرآني. قال دون أن يشغل باله إن كنت أسمعه أم لا، أو ربما لم يفكر في شيء كهذا: "أترين! إنه يقف خلفي". قالت البنت: "أنا أيضًا أراه. لكنني لم أقصد هذا"

إنه لا يبحث عن أي سلوى. ليس لأنه لا يريدها – ومن يرفض السلوى؟! لكن لأن البحث عن السعادة يعني أن تهبها حياتك، وتعيش دائمًا على حافة وجودك، وربما خارجه، لا تعرف تقريبًا لمن تبحث عن السعادة. ثم تعجز عن العثور على السعادة الفعّالة، وليست السعادة الحقيقية. فهذه لا وجود لها.

راح يتجنب نظرات جيرانه إليه. الإنسان، حتى لو كان بلا عيوب، لا يرى من الآخر إلا الجزء الذي يظهر له، ويتناسب مع رؤيته للأمور. حتى هو، وشأنه في ذلك شأن الآخرين، مع بعض العاطفة المتدفقة، يسعى إلى التوقع في إطار يمكن للآخر أن يراه من خلاله. لو أن روبينسون لم يغادر أعلى نقطة في الجزيرة، أو بالأحرى أكثر النقاط وضوحًا، سواء كان ذلك طلبًا للسلوى أو تواضعًا، أو خوفًا، أو جهلًا للموقف، أو حتى مجرد رغبة منه، كان سيلقى حتفه سريعًا. لكنه بقى على قيد الحياة لأنه بدأ يستطلع الجزيرة، ويسعد نفسه برؤيتها. بغض

النظر عن السفينة ومناظيرها الضعيفة. جعلهم يعثرون عليه في النهاية مع بعض الحذر الذي يتطلبه المنطق.

"تصنع من مأساتك عبرة".

"أولًا هذا ما يفعله كل إنسان، وثانيًا أن لا أفعل شيئًا كهذا. مشكلتي ستظل مشكلتي أنا، فأنا لا أجفف المستنقعات، لكني أعيش على بخارها المحموم"

"من هنا تصبح عبرة".

"كما قلت، مثل كل إنسان. لكني لا أفعل هذا إلا من أجل نفسي. أتحمل جرحًا في نفسي كي أحافظ على تواضعي"

كان مسموحًا له أن يفعل كل شيء إلا أن ينسى نفسه. فاستغرق في كل شيء، إلا في شيء واحد، شيء يُعد في هذه اللحظة ضروريًّا لكل شيء.

قضية الضمير مطلب اجتماعي.

إن كل الفضائل شخصية، وكل الرذائل اجتماعية. إن كل ما يحسب على فضائل المجتمع من حب وتواضع وعدل وتضحية ليست إلا رذائل اجتماعية منحطة.

الفرق بين الموافقة والرفض الذي يعرب عنه لأقرانه، وبين الموافقة والرفض الذي عليه أن يبلغ به أقرانه، هو ربما يكون هو نفسه الفرق بين الحياة الموت. ولا يمكنه أن يتوقع غير ذلك.

إن السبب الذي يجعل الخلَف قادرين على أن يصدروا أحكامًا على الآخرين أكثر صوابًا من أحكام المعاصرين يتوقف على الرجل الميت. فالإنسان لا يتطور إلا بعد الموت، عندما يصبح وحيدًا. إن الرجل الميت هو تمامًا مثل عامل المداخن في أمسيات أيام السبت حيث يزيل السخام من على جسده. يعرف إن كان المعاصرون قد آذوه أكثر من أذيته لهم، وفي الحالة الثانية سيصبح رجلًا عظيمًا.

دائمًا ما نتمتع بقوة الإنكار، إنكار الشكل الطبيعي للجسد البشري المناضل، دائم التغير والتجدد، الجسد الذي يحيا بالموت. لكننا لا نملك الشجاعة، رغم أن الحياة هي الإنكار، والإنكار هو التأكيد.

إنه لا يموت بموت أفكاره. فما الموت إلا ظاهرة في إطار العالم الداخلي (الذي يظل كائنًا حتى ولو مجرد فكرة). مجرد ظاهرة طبيعية مثل كل الظواهر الأخرى. مجرد ظاهرة لا تسبب سعادة ولا حزنًا.

إن التيار الذي يسبح ضده تيار هائج، إلى درجة تجعل الإنسان شارد الذهن يقنط من جموده، ويتعثر فيه، ويرتد إلى الخلف. هذا التيار يتراجع في لحظة الفشل.

إنه عطشان، ولا تفصله عن مورد الماء إلا الأحراش. لكن أوصاله تقطّعت إربًا. جزء منها يشرف على باقي الأجزاء. يرى أنه يقف هنا، وبجواره مباشرة يوجد مصدر الماء. لكن الجزء الثاني لا يتابع شيئًا، فقط يتنبأ بأن الجزء الأول يرى كل شيء. رغم ذلك لا يرى شيئًا، ولا يمكنه أن يروي ظمأه.

إنه ليس جريئًا ولا مستهترًا. ليس جبانًا. لا يخاف من حياة الحرية. لكن حياة كهذه لم تُتح له. وحتى أمر كهذا لا يشغل باله. إنه غير منشغل بنفسه على الإطلاق. لكنّ هناك شخصًا ما، شخصٌ لا يعرفه على الإطلاق. هذا الشخص مهتم به – به دون غيره – بشكل لا ينقطع. هذا الاهتمام من ذلك الشخص، وخاصة اهتمامه الدائم يسبب له أحيانًا في لحظات الصمت آلامًا شديدة بالرأس.

إنه يواجه عدوين. أحدهما يأتيه من خلفه منذ البداية. والثاني يمنعه من التقدم إلى الأمام. يحارب عدوين. أولهما يسانده في صراعه مع الآخر، لأنه يريد أن يدفعه إلى الأمام، والثاني يسانده في صراعه مع الأول، فيدفعه إلى الخلف. لكنّ كل هذا نظريٌ فقط. فلا وجود لأيٍ من هذين العدوين. إنه وحده، ومن غيره يعرف نواياه؟ رغم ذلك يحدث أحيانًا، أن ينصرف في لحظة سهو من حلبة الصراع – يحتاج لكي يفعل هذا إلى ليلة مظلمة، حالكة الظلام – ويتم ترقيته إلى درجة قاض نتيجةً لخبراته في الصراعات. يتم رفعه فوق عدوين، يحارب كل منهما الآخر.

ثم عثر على نقطة أرشميدس، لكنه استخدمها ضد نفسه، وهكذا، وبهذه الطريقة استطاع العثور عليها.

14 يناير 1920. إنه يعرف نفسه، يثق بالآخرين. هذا التناقض يفكك كل شيء. يعيش في حالة تشتت. العناصر التي يتكون منها ذلك القطيع الذي يتحرك بحرية، تتجول في العالم. ينظر أحيانًا إلى بعيد فقط لأن هدوءه جزءٌ من العالم. كيف يمكنه أن يتحمل عنه المسئولية؟ هل هذه هى المسئولية؟

باب شقته غريب. عندما يُغلَق هذا الباب بالمحبس لا يمكنه فتحه. أزال المحبس، وصار الباب مفتوحًا. كان يضع بين جناحي الباب الموارب لوحًا خشبيًا حتى لا ينغلق. هكذا فقد الشعور بالراحة في البيت. صحيح أنه كان يثق في جيرانه، لكنه اضطر إلى أن يحمل أشياءه الثمينة معه في الحقيبة. كان عندما يستلقي فوق الأريكة في الحجرة يشعر كأنه يجلس في دهليز البيت. كان الهواء الخانق صيفًا والبارد شتاءً يهب عليه وهو في بيته.

كان يضطر إلى القيام بكل الأشياء بمساعدة الشرطة، وحتى تلك الأشياء العادية، مثل الخدمة في المطعم. وهو ما حرمه من كل راحة في حياته.

كان لديه العديد من القضاة، مثل سرب طيور فوق الشجرة. يتكلم أحدهم مع الآخر. تشابك مراتبهم وجهات عملهم لا يمكن فضه.

إنها تغير أماكنها في كل لحظة. لكن بعضهم كان يسهل تمييزه. منهم على سبيل المثال من يعتقد أنه يكفي أن يتحول الإنسان إلى الخير، فيصبح محميًّا بغض النظر عن الماضي وعن المستقبل أيضًا. إنه رأي، من شأنه أن يؤدي إلى شر، ما لم يتم شرح التحول إلى الخير بطريقة صارمة للغاية. إنه بالطبع لا يشرح، فهذا القاضي حتى الآن لم يعترف بحالة واحدة تناسبه. حوله الكثير ممن ينتظر، بما فيهم وطن يثرثر، يردد أفراده من ورائه ما يقول، يستمعون إليه بلا توقف...

2 فبراير 1920. يتذكر لوحة تصور يومًا ما من أيام الأحد في وقت الصيف في منطقة تمجي. كان النهر ممتلئًا عن آخره بقوارب تنتظر حتى تُفتح بوابة السد. القوارب ممتلئة عن آخرها بشباب سعيد، يرتدي ملابس بيضاء خفيفة، يرقد فوق القوارب تمامًا ليستمتع بالهواء الدافيء والماء البارد. كان هناك شيء يجمعهم، ولم يقتصر جو الأنس على قوارب معينة. كانوا يتبادلون النكات والضحكات بين قارب وآخر.

هنا تخيل نفسه في أحد المروج على ضفة النهر – كانت الشواطئ غير اضحة واضحة المعالم في اللوحة، وكانت حشود القوارب تغطي على كل شيء – ويقف وحيدًا. شاهد احتفالًا لم يكن بالاحتفال، لكن لنقل أنه كان كذلك. كانت لديه رغبة كبيرة في أن يشارك فيه. تمنى أن يفعل ذلك. لكنه رضي بأنه مُستبعد من احتفال كهذا. كان من المستحيل أن يشارك فيه، لأنه يتطلب استعدادات كبيرة لا يكفيها أسبوع واحد، لكن

سنوات، وربما عمره بالكامل. لو أن الزمن هنا توقف لما تغيرت النتيجة. إنها تتطلب منه أن يكون من أصل مختلف، وبتربية مختلفة، وبتدريب بدني مختلف.

ظل بعيدًا عن هؤلاء الشباب الذين يمضون في رحلتهم. رغم ذلك كان قريبًا منهم للغاية. هذا أمر يصعُب فهمه. كانوا بشرًا مثله، يفعلون كل ما يفعله البشر. ولو تفحصهم الإنسان لتأكد من أن الشعور الذي يسيطر عليه، ويحول دون مشاركتهم رحلتهم هو نفسه الشعور الذي يملأهم. لكن لا يسيطر عليهم، بل يصيبهم بالفزع في قرارة أنفسم.

سجني هو قلعتي.

"عائق يمنعه من أن ينهض، شعور بالأمن على أي حال، تنبأ بأحد الأسِرّة في انتظاره، سرير يخصه هو وحده. يمنعه هاجس ما من أن ينام فيه بهدوء. هاجس يبعده عن الفراش، يمنعه من نفسه، ويضرب باستمرار على قلبه. خوف من الموت ورغبة في مقاومته. كل هذا يحول بينه وبين الاسترخاء، فينهض من جديد. إنها الحياة. النهوض والاستلقاء، والملاحظات العرضية السريعة، واللاشعورية التي قام بها أثناء جولاته".

"إن لوحتك يائسة، لكنها مفيدة في التحليل الذي يشير إلى خطئها الرئيسي. هكذا تسير الأمور؛ ينهض الإنسان، ثم يسقط، ثم ينهض. هكذا على الدوام. لكن الحقيقة الأكثر وضوحًا هو أن الأمر ليس كذلك.

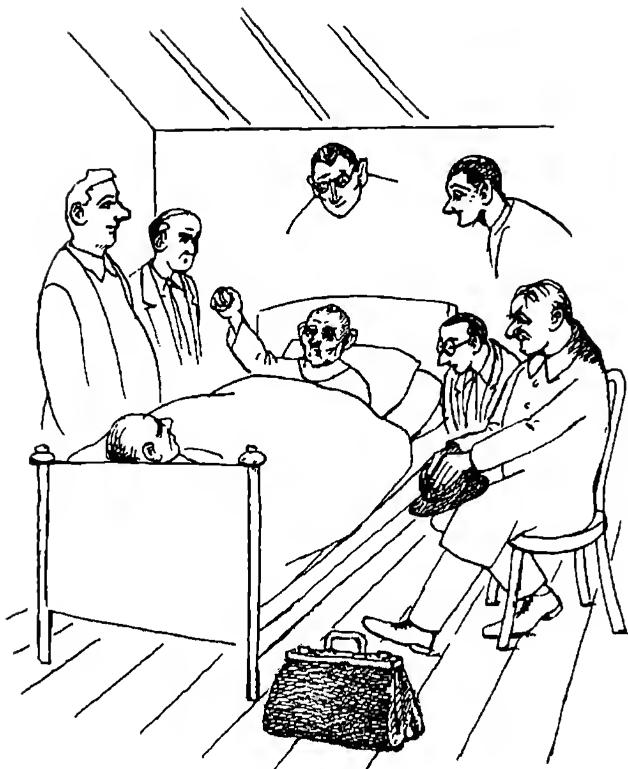
إنها كل شيء معًا. في الطيران، وفي السقوط. ففي السقوط طيران. ثم يتحدان من جديد في كيان واحد. ويلتحم الاتحاد مع كل شيء، والاتحاد بالاتحاد، إلى آخره. إلى أن يصل إلى الحياة الحقيقية. ورغم ذلك فهذه اللوحة زائفة، وربما أكثر زيفًا من لوحتك. لا يوجد طريق في هذه البلدة يؤدي إلى الحياة، لكن من المؤكد أن هناك طريقًا يؤدي إلى هنا قادمًا من الحياة. وهكذا ضللنا طريقنا تمامًا"

يفهم أن الحياة فيها الخوف، والحزن، والوحدة، لكن هذا لا يتعلق إلا بالمشاعر بشكل عام، وعلى نحو غامض وسطحي. إنه يرفض المشاعر الأخرى. إن ما نسميه مشاعر ليس سوى وهم، وخيال، وانعكاس لخبرات وذكريات.

يفكر، كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ونحن لا يمكننا أن ندرك الأحداث بمشاعرنا، فما بالك بتجاوزها. تنتابنا هذه المشاعر قبل وبعد الأحداث الحقيقية التي تمر بسرعة جنونية. إنها خيالات حالمة، قاصرة على الزمن. نحن نعيش في هدوء منتصف الليل، نشاهد شروق الشمس وغروبها بأن نلتفت نحو الشرق، أو نحو الغرب.

قوة هشة، وتربية خاطئة، وحياة عزوبة لا تُورّث إلا الشك، لكن ليس بالضرورة. إن أي رجل عازب يتزوج لكي يتخلص من الشك، على الأقل نظريًا، ثم يصير بعدها مؤمنًا.

الزوجان[1]



[1] يعود تاريخ كتابة هذه القصة إلى عام 1922 وهى نفس الفترة التي كتب فيها رواية (القلعة).

كان الوضع العام في المتجر سيئًا. عندما كنت أرغب في توفير الوقت وأنا في المكتب، كنت آخذ حقيبة بها عينات، وأذهب شخصيًا لزيارة الزبائن. قررت أن أذهب إلى أحدهم بالتحديد، فذهبت إلى السيد «ن» الذي كانت تربطني به علاقة عمل طويلة يومًا ما. لكن علاقتنا في العام الأخير توقفت تقريبًا لأسباب لا أعرفها. مثل هذه المواقف لا تعود بالضرورة لأسباب معينة. تؤثر فيها في هذه الأيام المضطربة غالبًا مواقف تافهة ومزاج الإنسان. كلمة تفاهة بالتحديد هى الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه. لكن الوصول إلى السيد «ن» كان صعبًا إلى حد ما. فهو إنسان مُسنّ، يمرض كثيرًا في الفترة الأخيرة. لكنه مازال يمسك بزمام الأمور التجارية رغم أنه لا يظهر شخصيًا في المتجر. ومن أراد الحديث معه عليه أن يذهب إلى بيته، ولقاءات عمل كهذه يحاول الإنسان تأجيلها.

رغم ذلك توجهت إليه بالأمس. لم يكن بالطبع وقتًا مناسبًا للزيارات، لكن كان يجب أن نناقش الأمر بصورة عملية وليس إجتماعية.كنت محظوظًا، فقد كان السيد «ن» في المنزل. وقد عاد لتوه مع زوجته من نزهة كما أخبروني في غرفة الإنتظار. وهو الآن في غرفة ابنه الذي تعرض لوعكة صحية ويرقد في الفراش. دعوني للذهاب إليه في الغرفة. ترددت في البداية، ثم غلبتني رغبتي في إنهاء هذه الزيارة غير المتوقعة في أسرع وقت، فتوجهت مرتديًا معطفي وقبعتي وأحمل في

يدي عينات البضاعة عبر غرفة مظلمة إلى غرفة أخرى، كان ضوءها خافتًا، يتجمع فيها أهل البيت.

وقع نظري ربما بالغريزة على أحد عملائي التجاريين الذي أعرفه جيدًا، وهو نسبيًا يُعد بمثابة منافس لي أيضًا. تقدم مني، ثم اعتدل في جلسته فوق سرير المريض. وحيث أنه كان طبيبًا، فقد جلس بجلال وهو يرتدي معطفًا جميلًا منفوشًا وقد حلّت أزراره. كانت وقاحته لا تقارن، ربما هذا ما اعتقده أيضًا الرجل المريض الذي كان يرقد على السرير، كان وجهه مائلًا للإحمرار بسبب الحمى ويشيح بوجهه نحو الطبيب.لم يكن إبنه هذا صغيرًا في السن، كان رجلًا يقاربني في السن، ذو لحية قصيرة، طالت قليلًا نتيجة مرضه. كان السيد «ن» رجلًا متقدمًا في السن، عريض المنكبين، لكنه نحيف، يمشي منحنيًا ويتعثر في حركاته.كان مازال يرتدي معطفه الذي جاء به، ويهمهم بشيء لابنه المريض. كانت زوجته امرأة نحيفة البدن ورقيقة، لكنها مفعمة بالحيوية، وخاصة في علاقتها بزوجها، - كانت بالكاد تدرك الآخرين من حولها. خلعت عنه المعطف. كانت بالتأكيد مهمة صعبة، نظرًا لإختلاف طوليهما، لكنها في النهاية تمكنت من ذلك. لكن ربما كان الأصعب هو أن السيد   كان ضيق الصدر إلى حد كبير. راح يطلب بإلحاح وهو يشير بيديه المرتعشتين أن تحضر له مقعدا ذا ذراعين، فأحضرته لها زوجته بعد أن خلعت عنه المعطف على الفور. حملت بنفسها المعطف وهي تكاد تختفي خلفه، وضعته خارج الغرفة.

وأخيرًا وجدت أن اللحظة قد سنحت، أو ربما لم تسنح، وربما لن تسنح هنا على الإطلاق. فلو أردت عمل محاولة في شيء ما فعليّ أن أقوم بها على الفور، لأنني شعرت أن ظروف إجراء حوار تجاري ما يمكنها أن تسوء مع مرور الوقت. والجلوس هنا إلى الأبد، وكان واضحًا أن هذا ما يريده عميلي هذا، ليست هذه طريقتي في العمل. أيضًا لم أرغب في أن أصرف نظري عنه ولو للحظة. ورحت أرتب الأشياء في يدي قليلًا، رغم أن السيد «ن»كان يظهر رغبة في مواصلة الحديث مع ابنه. للأسف عندي عادة، وهى أنني عندما أستغرق في الكلام قليلًا – وهذا الأمر سرعان ما يحدث، وقد حدث أسرع من العادة في هذا الغرفة التي يرقد بها هذا الرجل المريض، أهم واقفًا، وأتجول هنا وهناك أثناء الحديث. هذا الأمر مناسب تمامًا عندما أكون في مكتبي، لكنه أمر مزعج إلى حد ما عندما أكون في بيت غريب. لكني لم أتمالك نفسي، وخاصة بدون سيجارتي المعتادة. على أي حال، كل إنسان لديه عاداته السيئة، وعاداتي السيئة هذه لا تقارن بعادات هذا العميل. أذكر منها على سبيل المثال أنه يضع قبعته على ركبته، ويروح يعبث بها من وقت لآخر، وأحيانًا يضعها فوق رأسه. صحيح أنه يخلعها فورًا وكأنه فعل هذا سهوًا، لكنه فعلها في لحظة، وكان يكرر هذا من وقت لآخر. يجب أن أقول أن تصرف كهذا غير مقبول تمامًا. أنا لا يزعجني هذا الأمر، فأنا أروح وأجيء، مشغولًا بقضيتي، ولا يهمني ما يفعله. لكن هناك أناس ينزعجون بشدة من حركة القبعة هذه.لا ألتفت وأنا منهمك في حديثي إلى مقاطعة كهذه، ولا أهتم لأي شخص.أرى بالطبع ما يحدث، لكني

أتجاهله تقريبًا – على الأقل حتى أنهي كلامي، مالم يعترضني أحد. لاحظت بجلاء على سبيل المثال أن السيد «ں»كان غير قادر تمامًا على فهم أي شيء، كان مرتبكًا ويهز يديه فوق ذراعي المقعد. لم يلتفت حتى إليّ، بل ينظر ببلاهة وفضول إلى الخواء. كان وجهه خاليًا من أية علامة على الحضور بيننا، وكأنه لم يسمع أي كلمة مما قلت، بل كأنه لم يلاحظ وجودي من الأصل.لاحظت مثل هذا السلوك المريض الذي قلص الأمل في نفسي، لكنني واصلت كلامي وكأنني أمام فرصة أخرى أن كلماتي، ومطاوعتي له – أنا شخصيًا دُهشتُ من هذه المطاوعة التي قمت بها والتي لم يطلبها مني أحد -- ستؤدي إلى أن تستقيم الأمور في النهاية. كما كنت على قناعة أكيدة – وهذا ما لاحظته بنفسي - بأن هذا العميل قد نسي أمر القبعة، ووضع يديه على صدره. تسبب العرض الذي قدمته له في إزعاج واضح، وجعله يغير من خططه. ولو أنني استرسلت مدة أطول فيه وأنا أشعر بالنشوة تملأ نفسي لنهض من فوق الفراش ووجه لي ضربه بقبضة يده ليجبرني على الصمت، لولا وجود ابنه الذي تجاهلته على أنه شخص غير مهم بالنسبة لي. كان واضحًا أنه يريد أن يقول شيئًا، أو يريني شيئًا ما، لكنه لم يقو علي المواصلة.إعتبرت هذا نوعًا من الهذيان، لكني حين نظرت دون أن أدري إلى السيد «ں» فهمت الأمر بصورة أفضل.

كان السيد «ن» يجلس وعينيه جاحظتين ومنتفختين، جسده ينتفض وهو محني إلى الأمام وكأن أحدهم يمسكه من مؤخرة عنقه أو يوجه له

ضربات. شفة فمه السفلي أو ربما فكة السفلي كله بلثته العارية يتدلى بشكل خامد، وجهه متهدم بالكامل، ويتنفس بصعوبة. ثم سقط على ظهره فوق المقعد مستسلمًا، وأغلق عينيه. وسرت على وجهه علامات الإرهاق الشديد، وانتهى الأمر. توجهت نحوه مسرعًا، وأمسكت يديه البادرتين المعلقتين. تملكني الرعب وأنا لا شعر فيها بأي نبض. لقد مات. بالتأكيد، إنه رجل عجوز. فليخفف الله عنا لحظات الموت. لكن ماذا عليّ أن أفعل الآن، بماذا أبدا؟ رحت أجول بنظري باحثًا عن أى مساعدة. جذب ابنه غطاء السرير وغطى به رأسه، لم أكن أسمع سوى نشيج ثقيل، بينما كان أبوه مستلقيًا فوق المقعد، جسده بارد كجسد الضفدعة، على بعد خطوتين من ابنه، لا يلوي على شيء وينتظر ما سيحدث له. وصرت وحيدًا. ولكي أفعل شيئًا ما، وهو أصعب ما في الأمر، أردت أن أخبر زوجته بالخبر، بأسلوب مقبول، بطريقة لا جود لها في العالم. وعلى الفور سمعت في الغرفة المجاورة خطوات حثيثة ومتثاقلة.

أحضرَت ملابس نومه الدافئة والتي كانت تنوي أن تعطيها لزوجها ليغير ملابسه. كانت لاتزال ترتدي معطفها،لم يكن لديها وقت لتغيير ملابسها بعد. قالت بابتسامة وهى تهز رأسها عندما لاحظت الصمت الذي حل بنا: "لقد نام" أمسكت بكل ثقة يده التي كنت ممسكًا بها بخوف وجفاء، ثم قبلتها بكل الحب، فتحرك السيد «ن» ونحن الثلاثة نتطلع نحوه! تثاءب بصوت مسموع، وتركها تغير له ملابسه، وظهرت على وجهه الشاحب علامات السخرية من توبيخ

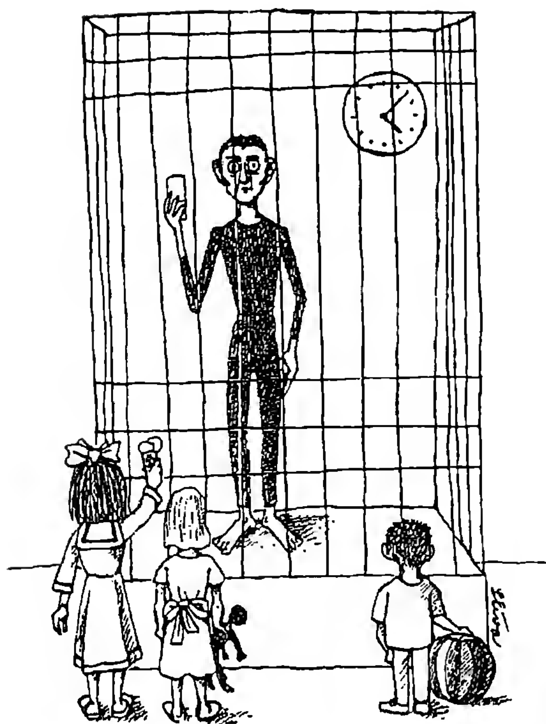
زوجته له على نزهاته الطويلة المرهقة، فراح يحدثنا عن الملل لكي يفسر لنا أسباب غفوته هذه. وحتى لا يتعرض للبرد وهو في طريقه إلى غرفته، تمدد بجوار ابنه على السرير. ثم وضع رأسه بجوار قدمي ابنه فوق وسادة أحضرتها له زوجته على الفور. لم أجد شيئًا غريبًا في هذا التصرف خاصة بعد كل ما رأيت. ثم طلب منها الجريدة، وفتحها بغض النظر عن وجود ضيوف في البيت، لم يشرع في القراءة، لكنه تجول بعينيه هنا وهناك، وراح يطلق تعليقات سخيفة تنم عن دهاء تجاري واضح بخصوص العرض الذي قدمته له، ويقوم بحركات إعتراضية مستمرة من إحدى يديه. كانت خبطات لسانه تقول بأنه يشعر بطعم كريه في فمه سببه حديثنا عن التجارة. توقف العميل عن ملاحظاته غير اللائقة، ربما أدرك بفهمه الثقيل أنه بعد كل ما حدث هنا يجب أن يخلق جوًا من الألفة. بالطبع لم يوفق تمامًا في إحداث هذه الألفة. استأذنته سريعًا في المغادرة، وأنا ممتن لهذا العميل، ولولا هو لما انصرفت بهذه السرعة.

لحقت بزوجة السيد "ن"في غرفة الإستقبال، وقلت لها وأنا أنظر إلى قامتها المهلهلة إنها تشبه والدتي. وأضفت عندما لم ترد على ملحوظتي قائلًا: "أيًا كانت الظروف، فقد كانت تصنع المعجزات. وكل ما كنا ندمره تصلحه هي. لقد فقدتها وأنا مازلت طفلًا" كنت أتحدث بطريقة مبالغ فيها وعلى مهل وبكل وضوح لأن العجوز تعاني من مشاكل في السمع. لكن يبدو أنها كانت صماء تقريبًا، لأنها إنتقلت إلى

موضوع آخر بدون مقدمات، وسألتني: "ماذا تقول عن زوجي، كيف ترى حالته؟" فهمت من بضع كلمات تبادلناها عند انصرافي أنها كانت تخلط بيني وبين زوجها، وإلا لأظهرت نوعًا من الثقة.

نزلت درجات السلم، كان النزول أصعب من الصعود رغم أن الصعود لم يكن سهلًا. يا إلهي! كثير من رحلات العمل الفاشلة، وعلى الإنسان أن يواصل تحمل هذه العبء.

فنان الجوع[1]



[1] في عام 1924 ساءت حالة كافكا الصحية، وأصيب بالحمى على فترات متقاربة. فتم نقله إلى براغ من قبل صديقه ماكس برود. وهناك كتب آخر قصتين له: "وطن الفئران أو المطربة يوسفينا"، وقصة "فنان الجوع"

خَفَت في العقود العشر الأخيرة الاهتمام بفنان الجوع. في حين أنه في السابق استحق مثل هذا النوع من الفن تنظيم عروض كبيرة على نفقة المنظمين الخاصة. هذا الأمر أصبح اليوم مستحيلًا. كانت أيامًا مختلفة. في ذلك الوقت كانت المدينة كلها مشغولة بفنان الجوع. كانت المشاركة تزداد في كل دقيقة من أيام الجوع. أراد كل شخص رؤية فنان الجوع مرة واحدة على الأقل مرة في اليوم. كان العرض في الأيام التالية ببطاقات اشتراك، وكان الناس يجلسون للحصول عليها أيام كاملة أمام نافذة صغيرة محصنة بشبكة حديدية. كانت المسابقات تعقد حتى في المساء. ولزيادة التأثير كانوا يضيئون المشاعل. كانوا يضعون القفص في الهواء المفتوح في الأيام التي يكون فيها الجو صحوًا. وهناك يتعرف الأطفال بصفة خاصة على فناني الجوع. كانت العروض بالنسبة للكبار بمثابة رحلة، وكانوا يترددون عليها من باب الموضة. كانوا يشاهدونها مع أطفالهم باندهاش. يمسكون أطفالهم بأيديهم من باب الحيطة وأفواههم مشدوهة. يتابعون الفنان وهو يجلس شاحب الوجه فوق عيدان القش المنشورة، يرتدي ثوبًا أسودَ، وضلوعه بارزة بشكل لافت للنظر، ويرفض الجلوس فوق المقعد. يومئ باحترام هنا وهناك، ويجيب بابتسامة منهكة على الأسئلة، ثم يمد يده من خلف الشباك حتى يتحسسها الناس ليروا مدى نحافتها. ثم ينكبّ على نفسه، ويتجاهل الحاضرين، وينسى أن الساعة، الجهاز الوحيد الموجود في القفص تدق لتعلن عن وقت له أهمية خاصة عنده. كل ما

يفعله هو أنه ينظر أمامه بعينين مغمضتين، ويشرب الماء من وقت لآخر من كأس صغيرة محدثًا صوتًا حتى يبلل شفتيه.

كان هناك مشاهدون دائمون فضلًا عن المشاهدين المتعاقبين، ومراقبون يختارهم الجمهور. ما يدعو للدهشة أنه كان بين المراقبين جزارون، وكان عددهم دائمًا ثلاثة. كانت مهمتهم مراقبة فنان الجوع ليلًا ونهارًا حتى لا يتناول، سرًا بعض المأكولات. لكنه كان مجرد إجراء شكلي لإرضاء الجماهير. فالمشاهدون الدائمون كانوا يعرفون جيدًا أن فنان الجوع لا يمكنه تحت أي ظرف من الظروف، ولا حتى بالإجبار، أن يتناول أي شيء أثناء فترة الجوع. فشَرف المهنة لا يسمح له بهذا. بالطبع لم يستطع كل مشاهد أن يفهم هذا الأمر. حدث أحيانًا أن بعض مجموعات المراقبة الليلية كانت تقوم بالمراقبة بطريقة غاية في الإهمال. كانوا يجلسون عن عمد في أحد الأركان البعيدة، ويلعبون الورق حتى يمنحوا الفنان بتعمد واضح فرصة لتناول بعض المرطبات البسيطة، التي يمكن أن تكون معه مخبأة في أحد أماكن الطعام السرية.لم يزعج الفنان شيء في عمله أكثر من مثل هؤلاء المشاهدين. كان منزعجًا منهم، وكانوا يصعبون عليه عملية الجوع بشكل كبير. كان أحيانًا يغني أثناء عمليات المراقبة هذه قدر استطاعته ليتغلب على ضعفه، ولكي يثبت لهؤلاء المشاهدين أنهم يرتابون فيه ظلمًا. لكن هذا لم يساعده كثيرًا. كانوا يتعجبون لقدرته على الغناء وهو يأكل. من المشاهدين المحببين إليه أكثر كان هؤلاء الذين يجلسون بجوار الشبكة الحديدية، غير

مكتفين بالضوء الخافت في الصالة أثناء الليل، فيشعلون المصابيح التي يحصلون عليها من رعاة الحفل، ويصوبونها نحوه. كان الضوء اللامع لا يزعجه كثيرًا، فهو لا ينام على أي حال. وكان يمكنه النوم في أي وقت وتحت أي إضاءة وفي كل ساعة، وحتى في الصالة الصاخبة والمزدحمة بالحاضرين. كان يحب قضاء الليل في صحبة مثل هؤلاء المشاهدين دون أن ينام. كان يحب أن يداعبهم ويقص عليهم حكايات من حياة الترحال التي يعيشها. ثم يستمع إلى حكاياتهم، كل هذا حتى يظل مستيقظًا، وليثبت لهم مرارًا وتكرارًا أنه ليس لديه طعام في القفص، وأنه يتحمل الجوع أكثر من أي واحد فيهم. أكثر ما كان يسعده عندما يحضر لهم في الصباح على حسابه الخاص وجبة إفطار غنية جدًا، فينقضّون عليها بنهم الفحول، بعد ليلة شاقة من السهر. كان بينهم من يعتقد أن وجبة الإفطار هذه هى للتأثير الخاطئ على الحراس. لكنها كانت آراء مبالغ فيها للغاية. وعندما يسألهم أحد إن كانوا على استعداد لأن يقوموا بالحراسة الليلية دون تناول الإفطار كانوا يتهربون من الإجابة. ورغم ذلك لم يتوقفوا عن الارتياب. وكان هذا أيضًا من دواعي الشك الذي ارتبط بشكل وثيق بعملية الجوع. لم يتمكن أحد من مراقبة فنان الجوع على مدار أيام ليالٍ، لم يتمكن أحد بناء على تجربته الخاصة من معرفة إن كان بالإمكان الامتناع الدائم عن الطعام دون أن يصاب بأذى. لم يكن يعرف هذا سوى فنان الجوع نفسه. كان هو المشاهد الوحيد الراضي بجوعه. لكنه لم يكن راضيًا يومًا ما، ولسبب آخر. قد لا يكون الجوع هو السبب في كونه نحيف إلى

درجة جعلت البعض يحجم عن المشاركة في العرض أسفًا عليه. لأنهم لم يقْدِروا على النظر إليه. ربما يكون سخطه على نفسه هو السبب. فهو الوحيد – ولا أحد من المتطوعين -الذي يعرف أن التوقف عن تناول الطعام أمر سهل. كان أبسط شيء في العالم. ولم يكن يخفي هذا، لكن أحدًا لم يصدقه، واعتبروه على الأقل رجلًا متقشفًا، أو رجلًا يسعى للشهرة، وأحيانًا رجلًا محتالًا، يسهل عليه الامتناع عن الطعام، لأنه قادر على أن يخفف من عبء هذا الأمر، أو أنه رجل وقح لا يخجل من الاعتراف بوقاحته. كان يتقبل كل هذا، واعتاد عليه على مدار أعوام، لكن الحزن الذي بداخله كان ينغص عليه حياته على الدوام، فهو لم يغادر القفص مختارًا بعد كل مرة يمتنع فيها عن الطعام، ويجب أن نعترف له بهذا. كان راعي العرض قد حدد أطول مدة يمتنع فيها عن الطعام بأربعين يومًا. لم يكن مسموحًا له أن يتجاوز هذه المدة، ولا حتى في عواصم العالم، وهذا لسبب وجيه. طبقًا للخبرة كان من الممكن لفت أنظار أهل المدينة من خلال دعاية متصاعدة تدريجيًا لمدة أربعين يومًا تقريبًا. بعدها يفتر اهتمام العامة، وتقل أعداد الزائرين إلى درجة كبيرة. صحيح أنه كانت هناك فروق أكيدة من هذه الناحية بين المدن والقرى. لكن القاعدة العامة هى أن أربعين يومًا هى المدة القصوى. كانوا في اليوم الأربعين يفتحون أبواب القفص المزينة بالورود، ويمتلئ المسرح بالمشاهدين المتحمسين، وتعزف الموسيقى العسكرية، ثم يدخل الأطباء إلى القفص حتى يقوموا بالفحوص المطلوبة لرجل الجوع. يعلنون بعدها النتائج في الصالة من مكبر الصوت، وتأتي من بعدهم

فتاتان سعيدتان بأنهما كسبتا الرهان، وتقومان بإخراج فنان الجوع من القفص، وتقودانه عبر درجات السلم إلى طاولة وضعوا عليها أطعمة مخصصة للمرضى، اختاروها بعناية. كان فنان الجوع دائمًا في لحظة كهذه يشد جسده، ويضع ذراعية النحيفتين طواعية بين أيادي السيدتين المنبسطة، فتنحنيا نحوه، لكنه يرفض الوقوف. لماذا يجب عليه أن يتوقف الآن في اليوم الأربعين؟ فهو قد يتحمل الجوع لفترة أطول، أطول بكثير. فلماذا يتوقف الآن وهو مازال في أفضل حالاته، بل ربما لم يصل إلى أفضل حالاته بعد وهو بدون طعام؟ لماذا يريدون أن يمنعوا عنه الشهرة بمزيد من الجوع، وشرف أن يكون أفضل فنان جوع على مر العصور، رغم أنه وصل إلى هذا على ما يبدو، لكن لماذا لا يسمحون له أن يتفوق على نفسه، فهو يشعر أن قدرته على تحمل الجوع لا حدود لها. لماذا كل هذا الجمهور من المعجبين بتحمله إلى هذا الحد- رغم أنه يمكنه مواصلة الجوع-لماذا هذا الجمهور متعجل؟ كما أنه مرهق، كان يشعر بالراحة وهو يجلس على القش، لكن الآن عليه أن يشد جسمه، وينهض ويذهب لتناول الطعام، رغم أنه يشعر بالنفور من مجرد التفكير فيه. يحاول بصعوبة إخفاء علامات هذا النفور حتى لا تراه السيدتان. يرفع عينيه إلى أعلى لينظر في عيني هاتين السيدتين اللتين تبدو عليهما الطيبة، لكنهما في الواقع قاسيتان، ثم يهز رأسه الثقيلة فوق عنقه الضعيف. لكن حدث فيما بعد ما يحدث دائمًا. جاء راعي العرض. ورفع ذراعيه دون أن ينبس بكلمة – من الصعب التحدث في صخب الموسيقى – فوق الفنان وكأنه يدعو الله أن ينظر إلى

عبده فوق القش، إلى هذا الشهيد المثير للشفقة، الذي هو بالطبع فنان الجوع. كان دعاؤه يعني شيئًا آخر. كان يمسك بفنان الجوع من خصره النحيف، ويسلمه للسيدتين الشاحبتين، ولم يفته أن يهزّه قليلًا، حتى تكاد تتكسر قدماه وهيكله العظمي. لكن فنان الجوع كان يتحمل كل شيء. فوضع رأسه على صدره. بدت وكأنها على وشك أن تتدحرج، لكنها لأسباب غير مفهومة استقرت في مكانها.كان جسده هزيلًا، والتصقت قدماه بقوة من ناحية الركبة بدافع من غريزة البقاء، لكنه كان يحفر بهما في الأرض، وكأنها ليست أرضًا حقيقية، وأنه يبحث عن الأرض الحقيقية. ووضع ثقل جسمه بالكامل، وهو ثقل بسيط، على إحدى السيدتين التي ارتبكت – فهي لم تتوقع مثل هذا الشرف – وراحت تلهث وهي ترفع رأسها كي لا يلمس وجهها فنان الجوع، لكن بعد أن فشلت في ذلك، وبعد أن أحجمت صديقتها السعيدة عن مساعدتها، بل اكتفت بحمل فنان الجوع الذي صار حزمة من العظام بيدها المرتعشة- انفجرت في البكاء على صوت ضحك شديد في الصالة، وتركت مكانها لأحد العاملين الذي كان يقف على أهبة الاستعداد. ثم ذهبوا لتناول الطعام عندما حث راعي الحفل فنان الجوع الناعس على التقدم إليه وهو يتحدث بسعادة حتى يصرف النظر عن الحالة التي عليها الفنان. بعد ذلك شربوا نخب الحاضرين، وهمس فنان الجوع في أذن راعي الحفل يدعوه للشرب. ثم أعلن الأوركسترا عن نهاية العرض بعزف قوي. انصرف الناس. لم يكن لدى أحد سبب يجعله غير راض عما رآه، إلا فنان الجوع، هو فقط لم يكن سعيدًا.

عاش حياته كلها في أضواء وهمية، تخللتها وقفات استراحة قصيرة، تمتع فيها بحب العالم. لكن حالته النفسية كانت سيئة، وازدادت سوءًا يومًا بعد يوم. لأن أحدًا لم يلق لها بالًا. وماذا كان مصدر سعادته؟ ما الذي كان يتمناه؟ كان عندما يظهر من بينهم رجل طيب، يشفق عليه، ويحاول أن يفسر له أن حزنه سببه الجوع بالتاكيد وهو في مرحلة متقدمة من الجوع كان فنان الجوع يجيبه بثورة غضب، ويبدأ في هز الشِّباك مثل حيوان ثائر ليضيف مزيدًا من الرعب على الموقف. كان راعي الحفل ينفذ في مثل هذه المواقف عقابه المفضل. كان يعتذر نياية عن فنان الجوع أمام جموع الحاضرين، ويقول إن ما يبرر سلوكه هو الغضب الذي يسببه الجوع، وهو أمر لا يمكن أن يفهمه أناس لم يجربوا الجوع من قبل. وفي هذا الإطار وبنفس الطريقة كان يفسر تأكيد فنان الجوع بأنه قادر على مواصلة الجوع لفترة أطول. ثم يثني على جهوده الضخمة، وقوة إرادته، وإنكاره لذاته.كل هذه أمور تبرر رغبته في مواصلة الجوع. لكنه يحاول تفسير رفضه لهذه الرغبة بأن يقدم صورًا فوتوغرافية، ويعرضها للبيع في نفس الوقت، توضح صورة فنان الجوع في اليوم الأربعين، وهو يرقد في السرير في شدة الوهن. كان فنان الجوع يعرف جيدًا هذا التلاعب بالحقيقة. رغم ذلك كان لا يحتمل سماعها في كل مرة، وكان أمرًا فوق طاقته. كان راعي العرض يدلل على كلامه بقطع فنان الجوع مدة العرض قبل نهاية الأربعين يومًا. لم يكن ممكنًا مجابهة مثل هذه الحماقات، وهذا العالم المليء بالحماقات. كان دائمًا يستمع إلى راعي

الحفل عند شِباك القفص بكل ثقة واهتمام، لكن عندما يأتي الدور على الصور الفوتوغرافية، كان ينصرف دائمًا من عند الشِباك، ويستلقي على القش يزفر أنفاسه. يعود إليه المشاهدون بعدها بكل رضا ويقتربون منه ليتابعوه.

عندما كان شهود هذه الأحداث يتذكرونها بعد أعوام كانوا لا يكادون يصدقونها. ويعودون من جديد إلى المقولة المشار إليها: حدث هذا مرة واحدة تقريبًا، وربما كانت هناك أسباب أعمق لما حدث. لكن من يتحقق من الأمر سيجد أنها إما أن تكون حقيقية أو غير حقيقية. ويومًا ما وجد فنان الجوع المدلل أن الحشد الذي يرغب في الترفيه قد انصرف عنه، وفضل أن يذهب لمشاهدة عرض آخر. ومرة أخرى يتجول به راعي العرض في نصف القارة الأوروبية سعيًا وراء إقبال على عرضه كما كان من قبل. لكن بدون جدوى. وكأنهم اتفقوا مع بعضهم سرًا، وانتشر رفض عروض الجوع في كل مكان. بالطبع لم يحدث هذا مرة واحدة. وأتذكر الآن بصورة واضحة بعض الإشارات التي لم ينتبه إليها أحد بالقدر الكافي في وقت نشوة النجاح. ولم ينكرها كلها أيضا أحد. لكن فات الوقت لأن يتخذ الإنسان أي شيء حيالها. كان من الواضح أن وقت الجوع سيأتي يومًا ما، لكن هذه الفكرة لم تلقِ ترحيبًا من المعاصرين وقتها. ما الذي كان يجب أن يفعله فنان الجوع؟ الإنسان الذي كان محاطًا بتهليل الآلاف. لم يستطع الظهور في حلبات السيرك المتنقلة بين الأسواق. كان قد تقدم به العمر وأصبح غير قادر على إيجاد

وظيفة أخرى، والأهم من ذلك أنه كان مغرمًا بالجوع بطريقة غير معقولة. التحق بالعمل في سيرك كبير، لم يناقش شروط العقد حتى لا يُعرّض مشاعره للأذى.

سيرك كبير كهذا، بهذا العدد غير المحدود من العاملين الذين يتنافسون فيما بينهم، ويكمل بعضهم البعض، بكل هذا العدد من الحيوانات والمعدات، يمكنه أن يحتوي أي شخص بمن فيهم فنان الجوع طالما كانت شروطه للعمل معتدلة نسبيًا. إضافة إلى أنه في حالة خاصة كهذه لم يكن وجود فنان الجوع بشخصه فقط، لكن أيضًا بشهرته وتاريخه. لا يمكن القول مع خصوصية هذا النوع من الفن الذي لم يتلاشَ مع الزمن إن هذا الفنان المتقاعد الذي لم يعد يحتل قمة المجد ينوي الانزواء في مكان هادئ في السيرك، بل على العكس. كان فنان الجوع متأكدًا، ولم يكن هناك ما يجعله يعتقد غير ذلك، أنه يتحمل الجوع أكثر من ذي قبل. كان يؤكد أنهم لو تركوا له الاختيار، كما وعدوه راضين، لقدم عرضًا يدهش به العالم. لكن رغبة كهذه كانت تثير السخرية من الخبراء نظرًا للذوق السائد الذي نسيه فنان الجوع بكل سهولة وهو في قمة حماسه.

غير أن فنان الجوع لم يتجاهل الأوْضاع الحقيقية، واعتبر أنه من البديهي أن يضعوه هو وقفصه في الخارج، في مكان يسهل الوصول إليه بجوار زريبة الحيوانات، وليس في منتصف الحلبة كفقرة مبهرة.

انتشرت حول القفص لوحات كبيرة باهرة الألوان، كُتبت عليها العروض التي تقدم في السيرك. وعندما كان الزائرون يأتون في أوقات الاستراحة بين الفقرات لرؤية الحيوانات في الزرائب، كانوا بالضرورة يمرون بفنان الجوع، فيتوقفون للحظات عنده. ربما توقفوا عنده فترة أطول لولا وجود زائرين آخرين يتزاحمون خلفهم في دهليز ضيق، ولا يفهمون سبب بطء الطريق الذي يؤدي إلى الزرائب التي يتطلعون إلى مشاهدتها، ويمنعونهم من مشاهدته في هدوء. كان هذا أيضًا سببًا للرعشة التي تنتاب فنان الجوع قبل وقت الزيارة، رغم أن حياته كانت قائمة على هذا الأمر، ورغم أنه كان يتطلع إلى الزيارة. في بداية عمله هناك لم يكن يتحمل انتظار أوقات الاستراحة. كان يتطلع بابتهاج غامر إلى تدفق الجمهور، غير أنه تأكد في وقت متأخر – لم يكن يقاوم التجربة بنوع من خداع الذات، وليس بالثقة المعهودة – إن هؤلاء الناس يأتون خصيصًا لمشاهدة الحيوانات وليس شيئًا آخر. لكن شكلهم وهم قادمون من بعيد كان أجمل ما في الأمر. فبمجرد أن يصلوا إليه يعلو الضجيج، وترتفع الشتائم من أشخاص يريدون أن يشاهدوه بكل راحة، ليس بسبب تقدير منهم لما يقدمه، لكن كنوع من النزوة والمقاومة – وهذه المسألة كانت من أكثر ما يزعج فنان الجوع –، ومن أشخاص آخرين كانوا يريدون الذهاب لمشاهدة الزرائب لا غيرها. كان بعدما يمر الحشد يظهر المتأخرون منهم. يهرولون من حوله بخطوات سريعة بالطبع، رغم أنه لم يكن هناك ما يمنعهم من التوقف عنده كيفما شاءوا. لا يلتفتون حولهم، لا يمينًا ولا يسارًا. كل همهم أن يصلوا

إلى الحيوانات في الموعد. لم يكن يسعده كثيرًا أن يأتي رب أسرة مع أطفاله، ويشير لهم بإصبعه نحو فنان الجوع. يشرح لهم باستفاضة ماذا يفعل، ويحكي لهم ذكرياته عندما كان يتردد على عروض مشابهة، كانت أكثر إثارة، ولا يمكن مقارنتها بهذا العرض. لكن بريق عيونهم الفضولية التي لم تفهم ماهو الجوع، فلا المدرسة ولا الحياة أعدتهم لشيء كهذا، كان يوشي بشيء من أزمنة جديدة قادمة، أكثر إنسانية. أحيانًا كان فنان الجوع يقول لنفسه إن الوضع كان ليتحسن قليلًا لو لم يكن قريبًا من الزرائب. فهذا قد يسهل كثيرًا على الناس الاختيار. فضلًا عن أنه كان يشعر بالإهانة، ويتأذى كثيرًا من الروائح المتصاعدة من الزرائب، وهرج الحيوانات في الليل، ورائحة اللحم النيء الذي يوزعونه على الحيوانات، وزئيرها أثناء تناول الطعام. لكن لم تكن له حيلة في إيصال شكواه إلى الإدارة. في نهاية الأمر كان عليه أن يشكر الحيوانات على حشود الزائرين. قد يظهر بينهم من وقت لآخر من جاء خصيصًا من أجله. ومن يدري ماذا سيفعلون لو أنه لفت الأنظار إلى نفسه،خاصة وأنه يقف بالفعل عائقًا في الطريق المؤدي إلى الحيوانات.

هو يشكل بالطبع عائقًا بسيطًا، يتضاءل مع الوقت. لقد اعتاد الناس على هذا الشيء الغريب، إلى درجة أنه قد يأتي أحدهم في الوقت الحالي ليطالب بالالتفات إلى فنان الجوع. وبما أنهم اعتادوا عليه، فقد تم إصدار حكم عليه. ليجوع كما شاء، وهو ما يفعله في الواقع، لكن لن يستطيع أي شيء إنقاذه. لم يلتفت إليه أحد. حاولوا أن تشرحوا لأحدهم ما هو المقصود

بفن الجوع! لا يمكنك أن تشرحه لمن لا يشعر به. أكلت القذارة الكتابات الجميلة على اللوحات، وصارت غير واضحة، وأزالوها، ولم يفكر أحد في أن يستبدلها بغيرها. لم يتغير لوقت طويل جدول الأيام التي جاع فيها، والذي كانوا في البداية يحرصون على تعديله كل يوم. فبعد مرور بضعة أسابيع صار هذا العمل البسيط يرهق العمال. لهذا صار فنان الجوع يواصل امتناعه عن الطعام كما كان يفعل أحيانًا في الماضي. كان يقدر عليه بدون أية مشقة كما توقع ذلك يومًا ما. لكن لم يكن هناك من يحصي له الأيام، لا أحد، ولا حتى فنان الجوع نفسه لم يكن يعرف كيف يبدو. بدأ يشعر بثقل حول قلبه. وعندما مر به ذات مرة أحد المتسكعين، سخر من الرقم القديم، وراح يتحدث عن الاحتيال، لكنها كانت من هذه الناحية أغبى عملية احتيال نتيجة الإهمال، والشر الطبيعي. لأن من قام بالاحتيال لم يكن الفنان، فهو كان يؤدي عمله بكل إخلاص، لكن العالم احتال عليه وحرمه من راتب شهر.

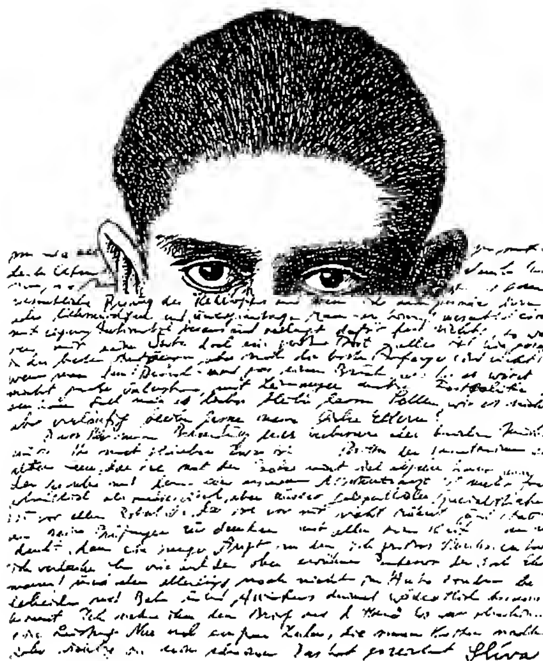
مرت عدة أيام، وبعدها انتهى الأمر. وذات يوم جاء أحد المشرفين فلاحظ القفص. سأل أحد العمال عن سبب تركهم لقفص كهذا في حالة جيدة صالحة للاستخدام وبه قش متعفن. لم يعرف أحد الإجابة، إلى أن انتبه أحدهم بفضل جدول إحصاء الأيام، وتذكر فنان الجوع. فنبشوا القش بالعصي، وعثروا على فنان الجوع في أسفله. سأله المشرف: "هل مازلت ممتنعًا عن الطعام؟ متى ستتوقف؟". همس فنان الجوع، وقال: "اعذروني جميعًا" الوحيد من بينهم الذي فهم ما قاله كان المشرف الذي

اقترب بأذنه من الشِباك. قال المشرف: "بالطبع!"، ثم خبط بإصبعه على جبينه كي ينبه العمال إلى حالة الفنان، وقال: "لقد سامحناك" قال فنان الجوع: "كل ما أردته هو أن يعجبكم امتناعي عن الطعام" قال المشرف بدماثة: "لقد أعجبنا" قال فنان الجوع: "لكن ما كان يجب أن تعجبوا به". قال المشرف: "لماذا لا نعجب به؟". قال فنان الجوع: "لأني مجبر على الجوع، ولا أستطيع غير ذلك" قال المشرف: "شيء غريب! لماذا لا يمكنك فعل شيء آخر؟" "لأني..."، قال فنان الجوع وهو يرفع رأسه الصغير قليلًا، وكانت شفتاه مضمومتين وكأنه سيُقبِّل أحدهم، وتحدث إلى المشرف في أذنه مباشرة حتى لا تضيع منه الكلمات: "لأنني لم أعثر على الطعام الذي أشتهيه، لو أني كنت عثرت عليه، صدقني، لما أحدثت ضجة، ولأكلت منه حتى أشبع مثلك ومثل الباقين" كانت هذه آخر كلماته، لكن نظراته الكسيرة كانت تنم عن قناعة ربما تخلو من الفخر، لكنها قناعة قوية بأنه سيواصل الجوع.

قال المشرف: "عليكم الاهتمام بتنظيف المكان" دفنوا فنان الجوع وسط القش، ووضعوا مكانه في القفص نمرًا مرقطًا صغيرًا. راحت الأرواح البليدة تمتع نظرها ومشاعرها بمشاهدة هذا الحيوان البري الذي يتمرغ في قفص ظل مهجورًا لوقت طويل. لم يكن يعوزه شيء. كان الحراس يحملون له الطعام الذي يشتهيه دون أي تردد، وحتى حريته لم يفقدها، فهذا الجسد المشوق، الممتلئ بكل ما يحتاجه وما يفيض عن حاجته يبدو وكأنه يحمل الحرية في داخله، وكأنها التصقت

بعظامه. كانت متعته بالحياة تشع بقوة من فمه لدرجة يعجز الزائرون عن مقاومتها. لكنهم تغلبوا عليها، والتفوا حول القفص، ورفضوا أن يبرحوا أماكنهم.

أبحاث كلب[1]



[1] في عام 1923 تعرف كافكا على دورا ديامنت التي ظلت بجواره حتى وفاته. كانت سيدة نشيطة ومفعمة بالحيوية. كان كافكا يستمد منها نشاطه وحماسه للكتابة. كما كانت السيدة الوحيدة التي عاش معها كافكا بعد فشله كل علاقته السابقة بالنساء. كانت يرحب بجلوسها إلى جواره وهو يكتب. وفي عام 1923 كتب قصة (أبحاث كلب) و(العرين).

كم تغيرت حياتي كثيرًا، لكنها لم تتغير تمامًا! فعندما أعود بذاكرتي للخلف، وأستدعي تلك الأوقات التي عشت خلالها في وطن الكلاب، أشترك فى كل همومه ككلب وسط الكلاب، أكتشف بنظرة متأملة أن هناك منذ البداية شيئًا غير مستقيم. ثمّة نقطة غامضة، مثل ضيق خفيف حلّ بي وأنا وسط أكثر احتفالات البشرية فخامة، حتى في دائرة أصدقائي الضيقة. لم يحدث هذا بشكل متقطع، بل بصورة متواصلة ومتكررة. فنظرة على أحد أصدقائي المقربين من الكلاب، محض نظرة جديدة كانت تصيبني بالارتباك، والرعب، والضعف، واليأس أيضًا. حاولت أن أشجع نفسي قليلًا. ساعدني في ذلك أصدقائي الذين تحدثت معهم. مرت بعد ذلك فترة أكثر هدوءًا. فتره لم تخل من مفاجآت مماثلة. لكني تقبلتها بكثير من الهدوء. ربما سببت لي الحزن والإرهاق، لكنها بصفة عامة لم تغير من الأمر كثيرًا. صحيح أني أصبحت باردًا قليلًا، ومتحفظًا، وهائبًا، وأنانيًا، لكني بقيت على الأقل كلبًا طبيعيًا. تمنيت أن أصل إلى سن الشيخوخة، تلك السن التى تمنيت كثيراً بلوغها، بدون وقفات الاستراحة تلك. كيف يمكنني أن أملك مثل هذا الهدوء كي أواجه الكوارث في شبابي، وأتحملها في شيخوختي؟ كيف لي أن أستخلص نتائج من طبيعتي البائسة – أعترف أنها كذلك - أو لنقل بتعبير أكثر حرصًا غير السعيدة إلى حد كبير. كيف لي أن أعيش متوافقًا تمامًا مع هذه الطبيعة؟ أنا أعيش منعزلًا، وحيدًا، منشغلًا فقط بأبحاثي الصغيرة منقطعة الأمل، التي رغم ذلك لا غنى لي عنها. لكنها لا تمنعني من متابعة ما يحدث في وطني عن بعد. إذ كثيراً ما تأتيني

أخباره، وأطمئنهم على نفسي من وقت لآخر. فجميعهم يتعاملون معي بكل احترام. هم لا يفهمون طريقتي في الحياة، لكنهم رغم ذلك لا يعكرون عليّ صفوها. فحتى الكلاب الصغيرة التي أراها عن بعد من وقت لآخر وهى تمر من هنا – الجيل الجديد الذي أتذكر طفولته بصورة مشوشة – لا تحرمني من تحية احترام.

مهما حدث يجب الأخذ في الاعتبار أني رغم الأمور الغريبة التي أقوم بها، وهى واضحة، لم أفسد تمامًا. إن شعب الكلاب في الواقع، وبما أني أتحدث في هذه القضية، ولدي الكثير من الوقت والرغبة والقدرة على ذلك، شعب منظم على نحو غريب. فبالإضافة إلينا نحن الكلاب تعيش أيضًا مخلوقات أخرى بائسة، وتافهة، وخرساء، لا تفعل شيئًا سوى إطلاق صرخات معينة. كثير من الكلاب عندنا تقوم بدراستها. تطلق عليها أسماءً، وتحاول أن تساعدها، وتربيها، وترتقي بها، الخ. إنها كائنات ليست على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لنا، فأنا لا أكاد أراها، وأتجاهلها طالما لم تحاول إزعاجي. لكن هناك شيء واضح، لا يمكنني تجاوزه، وهو أنها على العكس منا نحن الكلاب، غير مترابطة، تسير حول بعضها، واجمة، غريبة عن بعضها، ويحمل كل منها للآخر ضغينة. الشيء الوحيد الذي يربطها ظاهريًا ببعضها إلى حد ما هو المصلحة التافهة. حتى هذه المصلحة لا تؤدي إلا إلى ضغينة وصراع. أما نحن الكلاب! فيمكننا أن نقول بكل بساطة إننا نعيش جميعًا في جماعة متحدة، وحيدة ومترابطة. وكلنا، رغم اختلافاتنا

العميقة والكثيرة التي تراكمت مع الوقت نعيش في تلاحم! في رباط يجمعنا، ولا يمكن لأي شيء أن يمنعنا من الحفاظ على هذا التلاحم. إن كل قوانيننا التي لا أعرف منها إلا القليل، ونسيت منها الكثير تدعم تلك الرغبة في تحقيق أقصى قدر من السعادة والتضامن الحميم. لكن من ناحية أخرى هناك الكثير من التناقض. إذ لا يوجد على حد علمي مخلوق آخر يعيش مشتتًا مثلنا نحن الكلاب. فلا توجد مثل تلك الإختلافات العديدة والمربكة في الطبقات والأنواع والوظائف كتلك التي توجد بيننا نحن الكلاب التي ترغب في حياة متناغمة ومتحدة. ورغم كل هذا نُوفق في تحقيقها من وقت لآخر، خاصة في لحظات التوتر. نحن نعيش في عزلة عميقة، ونقوم بوظائف غريبة، غالبًا ما تبدو غير مفهومة حتى لأكثر الكلاب ترابطًا. نعيش مكبلين بتعليمات؛ ليست من تعليمات شعب الكلاب، بل هي موجهة ضده. يا لها من قضايا شائكة، قضايا لا أحب الحديث عنها. أنا أتفهم هذا الأمر، أتفهمه أكثر من غيري من أبناء عشيرتي، لكنها قضايا فشلت فيها بكل صراحة. لماذا لا أمارس الحياة مثل غيري، لماذا لا أعيش متوافقًا مع شعبي، لماذا لا أتقبل ما يعكر صفو هذا التوحد في صمت، لماذا لا أعتبره مجرد خطأ بسيط في كيان كبير، لماذا لا أبحث عما يربطنا بشكل إيجابي، بدلًا من أن أبحث باستمرار عما ينتزعني قسرًا من أحضان الوطن؟

مازلت أتذكر حادثة من أيام الشباب. كنت أعيش وقتها في حالة من حالات النشوة الهانئة التي لا أجد لها تفسيرًا، وربما عاشها كل

طفل. كنت وقتها لا أزال جروًا صغيرًا. كان الجميع يحبونني، وكان الإهتمام منصبًا عليّ. إعتقدت أن أشياء عظيمةً تحدث من حولي، وأنا السبب فيها، أشياء يجب أن أمنحها صوتي، ويجب أن تبقى ملقاة على الأرض طالما لم أصل إليها، وأنزلق نحوها بكل جسمي. إنها ببساطة أوهام الطفولة التي تلاشت مع مرور السنين. لكنها حينئذٍ كانت قوية بالطبع. وآمنت بها تمامًا، لكن حدث لاحقًا شيء غير عادي، شيء برر على ما يبدو ترقبي الكبير له. لم يكن في حد ذاته شيئًا غير عادي، فقد رأيت الكثير من تلك الأشياء غير العادية فيما بعد. لكنه ترك في نفسي في ذلك الوقت ولأول مرة انطباعًا قويًا لا يمكن نسيانه. وكان انطباعًا حاسمًا بالنسبة للآخرين. إذ التقيت ببساطة بمجموعة صغيرة من الكلاب. في الواقع أنا لم ألتق بها، بل هى التي جاءت نحوي. فقد جريت يومها طويلًا في ظلام الليل على أمل حدوث أشياء كبيرة – لكنه كان أملًا خادعًا. أمل كان يراودني كثيرًا، فجريت طويلًا وسط الظلام، هنا وهناك، لا أرى ولا أسمع شيئًا، تسيطر عليّ فقط تلك الرغبة الغامضة. وفجأة توقفت. انتابني شعور بأني أقف في المكان الصحيح. تطلعت حولي فرأيت ضوء النهار ساطعًا، مفعمًا ببعض الرطوبة، وانتشرت فيه روائح مُسْكِرة ونفّاذة في كل مكان. ألقيت التحية على الصباح بأصوات جنونية. وهنا – وكأنني استدعيتهم – خرجَت إلى النور من أحد الأركان المظلمة سبعة كلاب وهى تصدر صوتًا مخيفًا، لم أسمع مثله من قبل. ولولا أني كنت أعرف جيدًا أنها كلاب، وأنهم هم من أصدر ذلك الصوت، لهربت على الفور، رغم أني لم أعرف كيف استطاعوا أن

يصدروا صوتًا كهذا. لذلك بقيت في مكاني. لم أعرف في ذلك الوقت أي شيء بعد عن الموهبة الخاصة بالموسيقى التي يحظى بها جنس الكلاب. تاهت مني هذه المعلومة نظرًا لأن قدراتي على الملاحظة كانت لا تزال في طور النمو. كنت مُحاطاً بالموسيقى منذ نعومة أظافري باعتبارها عنصر أساسي وبديهي للحياة. لم يجبرني شيء على فصلها عن حياتي. انتبهت إليها من خلال التلميحات التي كانت تتناسب مع سني كطفل. لذلك أدهشني جدًا وهالني صوت هؤلاء العازفين السبع الكبار. لم يتكلموا، ولم يغنوا، بل صمتوا بكل إصرار، غير أن الموسيقى انطلقت من الفضاء الخالي. كان كل شيء عبارة عن موسيقى، وهم يرفعون قوائمهم ويضعونها على الأرض، وهم يديرون رؤوسهم بطريقة معينة، وهم يهرولون ويستريحون، وهم يقفون متجاورين، وهم يتصلون ببعضهم على طريقة الرقص في دائرة، عندما يتكئ أحدهم بقدميه على ظهر الآخر، في حين يصطف الآخرون بحيث ينتصب أولهم ليحمل ثقل الآخرين، أو عندما يتهادون بأجسادهم على الأرض ليصنعوا أشكالًا متداخلة دون أن يخطئ أحد منهم. ولا حتى آخرهم الذي لم يكن واثقًا تمامًا من حركته، ولم يتناغم مع حركة الآخرين، وكان أحيانًا يخطئ الحركة الدقيقة على أنغام الموسيقى، ومع ذلك كان مرتبكًا فقط في اصطفافه مع حركة الآخرين الواثقة والرائعة. لم يكن بإمكانه أن يُفسِد شيئًا حتى وهو بهذا الإرتباك الكبير والصارخ أحياناً. لأن الآخرين، وهذا ما يقوله المتخصصون، كانوا متماسكين بصورة صارمة. لكنهم وأثناء ذلك بدوا غير مرئيين، كانوا جميعًا غير مرئيين تقريبًا. ثم ظهروا،

حييتهم في نفسي بصفتهم كلاباً. كنت مضطربًا من الضجيج الذي صاحبهم، لكنهم في النهاية كلاب، كلاب مثلي ومثلك. كنت أراقبهم بحكم العادة، أراقبهم ككلاب تقابلهم في الطريق، وأردت أن أقترب منهم، وأتبادل معهم التحية. لكنهم كانوا أيضًا قريبين مني. كانوا كلاباً، ربما أكبر مني سنًا، وليسوا من نفس النوع ذى الشعر الطويل المتعرج. لكنهم لم يكونوا أغراباً عني تمامًا، خاصة فيما يتعلق بالحجم والبنية. ربما قلت أنها كلاب قريبة مني. لقد عرفت الكثير مثلهم أو مما يشبههم. وبينما كنت غارقًا في هذه الأفكار ارتفع صوت الموسيقى، وهز كياني. انفصلت عن تلك الكلاب الصغيرة، ولم أستطع – رغمًا عني وأنا أقاوم وأعوي وكأن الموسيقى سببت لي ألمًا – أن أهتم بشيء آخر غير هذه الموسيقى القادمة من كل جهة، من أعلى ومن أسفل، من كل مكان لتستولي عليّ تمامًا، وتجعلني أغرق فيها، موسيقى تسحقني. كانت جعجعتها صارخة من تلك المسافة القريبة، ثم ابتعدت، حتى أصبحت بالكاد أسمعها. بعدها تحررت من جديد، فقد تملكني التعب، والإرهاق، والوهن، فلم أتمكن من مواصلة الاستماع إليها. تحررت، ثم بدأت أنظر إلى مسيرة الكلاب السبع الصغار، وإلى قفزاتهم. أردت أن أنادي عليهم، على الرغم من نفورهم مني، أردت أن أسألهم النصيحة، وأن أسألهم عما يفعلونه هنا. كنت مازالت جروًا، واعتقدت أنه بالإمكان أن أسأل أي أحد في أي وقت. لكني بمجرد أن قمت بأول حركة بدأت أشعر براحة وطمأنينة كلب اتصل للتو بهؤلاء السبعة. عادت الموسيقى من جديد. أصابتني بالجنون، أستدرت معها في الدائرة وكأنني واحد من هؤلاء

الموسيقيين. ورغم أني كنت مجرد ضحية لهم فقد حملتني الموسيقى هنا وهناك، ولم تفلح توسلاتي. إلى أن أنقذتني هى نفسها رغماً عني، فألقتني في إحدى أكوام الخشب التي تراكمت في تلك المنطقة هنا وهناك. ودون أن أدري أمسكت بي بقوة، ودكت رأسي في الأرض. لم يتوقف هدير الموسيقى في الفضاء، إلا أنها أتاحت لي فرصة للاسترخاء قليلًا. الحقيقة أن ما أدهشني أكثر من الفن الذي يقدمه هؤلاء الكلاب السبع - وكان بالنسبة لي غير مفهومًا، ومستغلقًا، وفوق قدراتي - هى جرأتهم على تعريض أنفسهم تمامًا وبكل قوة لتلك الموسيقى. كانت قوتهم تتحمل كل هذا، ولم يُصب أحد منهم بكسر في عموده الفقري. وجدت من خلال ملاحظتي الدقيقة من مخبأي أنهم لا يعملون بهدوء، بل بتوتر كبير. كانت أقدامهم المتحركة بالطبع ترتجف عند كل حركة، وتصنع تشنجات مضطربة. كانت أقدامهم تهتز بصعوبة. ينظر كل منهم للآخر بقنوط، ألسنتهم ملجمة على الدوام، ثم سرعان ما تسترخي بتأثير الموسيقى. ما الذي أشعل حماسهم إلى هذا الحد؟ ألا يمكن أن يكون الحرص على نجاح الأمر؟ لكن من يجرؤ على القيام بعمل كهذا، من يقوم بشيء كهذا لا يمكنه أن يخاف – لماذا الخوف إذن؟ من أجبرهم على فعل ما فعلوه. وماذا كانوا يفعلون هنا؟ لم أستطع أن أتحمل، وخاصة الآن بعدما ظهر لي أنهم عاجزون بصورة لا تُصدق. بدأت أصيح بصوت عالٍ، وأطرح أسئلتي المزعجة وسط هذا الضجيج. لكنهم – أمر لا يصدق! أمر لا يصدق! –لم يجيبوني، وتظاهروا كأنّي غير موجود. كلاب لا ترد على نداء كلب! إنها خطيئة تخالف كل مبادئ

الأخلاق، خطيئة لا تُغتفر بأي حال من الأحوال لو ارتكبها أي كلب، كبيرًا كان أو صغيرًا. أليسوا هؤلاء كلابًا؟ لكن كيف لا يكونون كلابًا وأنا أسمع صيحات مكتومة بينما أنصت إليهم. إنها صيحات تمنحهم المزيد من الجرأة، وتنبههم إلى المناطق الصعبة. إنها أصوات يستعملونها عند التحذير من الوقوع في الخطأ. أنا أرى هذا الأخير وأصغرهم، وأرى تأثير الأصوات عليه. أراه وهو يرمقني خفية وكأنه يسعى جاهدًا أن يجيبني، لكنه يتمالك نفسه في كل مرة لأن هذا ممنوع. لكن لماذا هو ممنوع، لماذا كانوا يمنعون ما تطالب به قوانينا دائمًا وبلا حدود؟ أزعجني أن أرى ما يحدث، فنسيت الموسيقى تقريبًا. إن هؤلاء الكلاب هنا ينتهكون القانون. ورغم أنهم قد يكونون سَحَرةً، لكن حتى السحرة ينطبق عليهم أيضاً القانون. كان هذا أمرًا واضحًا كالشمس لطفل مثلي. رأيت المزيد من أفعالهم من مكاني هذا. كان لديهم بالفعل سبب يمنعهم من الكلام لو اعتبرنا أنهم امتنعوا عن الكلام لشعورهم بالذنب. لكن ما هذا التصرف! أنا لم ألحظ شيئًا كهذا حتى الآن فيما يتعلق بالموسيقى. لقد خلعوا بُرقع الحياء. هؤلاء المساكين يفعلون هنا ما هو أكثر إسفافًا وأكثر مدعاةً للخجل، إنهم يمشون على قوائمهم الخلفية. ما هذا القرف! يتعرّون ويتباهون بعريهم: يجدون فيه المتعة، وعندما يستمعون إلى ضمائرهم الحية للحظة ويقفون على قوائمهم الأمامية يهربون فورًا وكأنهم ارتكبوا خطأً، وكأن الطبيعة صارت خطأً. ثم يرفعون أرجلهم على الفور، وتعلو وجوههم نظرات كأنهم يطلبون المغفرة، لأنهم اضطروا إلى التوقف عن سلوكهم المعيب. هل

انقلب العالم رأسًا على عقب؟ أين نحن الآن؟ ماذا حدث؟ لم أتردد لحظة بدافع من الحفاظ على الذات، نهضت من وسط الأخشاب التي أحاطتني، وقفزت منها إلى الخارج حتى أصل إلى هؤلاء الكلاب. وتحولت أنا التلميذ الصغير إلى مدرس. كان يجب أن أشرح لهم ما يفعلونه. كان يجب أن أمنعهم من ارتكاب المزيد من الخطايا. رحت أقول لنفسي، وأكرر: "أنتم كلاب كبار، أنتم كلاب كبار!" وما أن تحررت ولم يعد يفصلني عن الكلاب سوى ثلاث خطوات حتى انطلق الضجيج من جديد. ربما تحملته هو أيضًا، فقد صرت أعرفه لولا النغمة المستمرة الدائمة التي تصدر باستمرار من بعيد. نغمة مخيفة لا يمكن مقاومتها جاءت وسط طوفان الضجيج. ربما كانت لحنًا ما وسط الضجيج، جعلتني أسقط على ركبتي. يا لها من موسيقى ساحرة تعزفها تلك الكلاب! لم أستطع المواصلة. فقدت الرغبة في سماع موسيقاهم. فليمدوا أرجلهم كيفما شاءوا، وليرتكبوا من الخطايا ما شاءوا! وليغرروا بغيرهم لارتكاب ذنب من مجرد النظر الصامت إليهم! أنا مازلت جروًا صغيرًا، من ذا الذي يطلب مني شيئًا صعبًا كهذا؟ تظاهرت بأني أصغر مما أنا عليه، فرحت أعوي. لو سألتني تلك الكلاب عن رأيي فيما أراه لأخبرتهم بالحقيقة. لكن سرعان ما تغير الأمر، واختفت الكلاب وكل ما صاحبهم من ضجيج وضوء وسط الظلام الذي جاءوا منه.

كما قلت من قبل: لم يكن هناك شيء غير عادي في كل ما حدث. فهناك أشياء كثيرة تحدث لنا خلال كل هذا العمر، وهى أشياء – بعيدًا عن السياق وبعيون طفل – أكثر غرابة من هذه الحادثة. لكن بالطبع يجب – كما يُقال – "الثرثرة"حولها شأن كل شيء. ثم يتضح بعد ذلك أن سبعة كلاب اجتمعوا هنا في هدوء الصباح لكي يغنوا، وانضم إليهم جرو صغير، مستمع متطفل، حاولوا للأسف دون جدوى- أن يستفزوه بموسيقى فخمة أو مخيفة. فقاطعهم بأسئلته. كيف لا يزعجهم مجرد وجود أجنبي بينهم، هل كان يعوزهم التفاعل مع هذا الإزعاج، وجعل الأمور أسوأ مما هى عليه بالرد على أسئلته؟ حتى وإن كان القانون يلزمنا بالإجابة على كل من يسأل، فإن هذا ليس سوى جرو صغير متسكع، هل يستحق أن نعتبره سائلًا أصلًا؟ ربمالم يفهموا ما قاله، او أنهم أجابوه، لكن هذا القزم غير المعتاد على الموسيقى لم يفرق بين الإجابة والموسيقى. وفيما يتعلق بالأرجل الخلفية، ربما مشوا عليها بشكل استثنائي. إنها خطيئة، طبعًا هى كذلك! لكنهم كانوا وحدهم، أصدقاء وسط أصدقاءهم، في لقاء خاص، شيء مثل لقاءهم بين أربعة جدران، يمكن اعتباره بطريقة ما لقاءاً منفرداً. فالأصدقاء ليسوا من العامة. واللقاء غير المخصص للعامة لا يجب أن يظهر فيه كلب فضولي ومتسكع، خاصة في هذه الحالة. ألا يبدو الأمر وكأن شيئًا لم يحدث؟ ليس كذلك تمامًا، لكن يكاد يكون كذلك. وعلى الآباء ألا يتركوا أولادهم يسيرون في الشوارع كثيرًا، ويجب أن يعلموهم الصمت واحترام الكبير.

بما أننا وصلنا إلى هذه النقطة، فهذه القضية إذن تُعتبر مُنتهية. لكن الشيء المنتهي بالنسبة للكبار ليس كذلك بالنسبة للصغار. كنت أمشي في كل مكان، أحكي وأسأل، وأنوح وأستجوب الآخرين، وأذهب إلى المكان الذي وقعت فيه الحادثة، وأشير لمن أريد إلى المكان الذي كنت أقف فيه، والمكان الذي كانت الكلاب السبعة تقف فيه، وأين وكيف رقصوا وعزفوا الموسيقى. ولو ذهب أحد إلى هناك معي بدلًا من أن يدفعني للذهاب وحدي ويقف يسخر مني لضحيت ببراءتي، ولوقفت على قدمي الخلفيتين فقط لأشرح له الموقف بكل دقة. إن الأطفال يُلامون على كل شيء، لكن يغفر لهم أيضًا كل شيء في النهاية. غير أنني حافظت على هذه الطبيعة الطفولية، إضافة إلى أنني أصبحت كلبًا عجوزًا. غير أنني وقتها لم أتوقف عن الحديث علنًا عما جرى هناك. وهى حادثة لا أضع لها اليوم وزنًا كبيرًا. ولم أتوقف وقتها عن وصف ما حدث بكل تفاصيله، وأقارنه بالواقع بغض النظر عن المجتمع الذي كنت أعيش فيه وقتها، وأحلل باستمرار تلك المسألة التي أزعجتني كثيرًا كما أزعجت الآخرين، الذين هم في الواقع أنا نفسي – وكان ذلك هو الفارق – لذلك أردت من خلال بحثي أن أنسلخ عن العالم حتى تتحرر رؤيتي أخيرًا لبناء حياة يومية عادية، وهادئة، وسعيدة. تمامًا كما فعلت وقتها، رغم أنني أستعمل الآن وسائل لا تخلو من الطفولية – وفي هذا لا يوجد فرق كبير – فعلت هذا أيضًا في الأوقات التالية، وأواصل البحث اليوم بنفس الطريقة.

بدأ كل شيء بذلك الحفل الموسيقي. أنا لا أشكو مما حدث. فهنا تغلب عليّ طبيعتي التي لولا ذلك الحفل الموسيقي لبحثت عن فرصة أخرى تناسب طبيعتي تلك. غير أن تلك الحادثة وقعت في وقت مبكر من حياتي. كنت أشعر أحيانًا بالأسف على ما حدث، وهو ما حرمني من جزء هام من طفولتي، ومن حياة هانئة لجرو صغير، يمكن لأيّ من كان أن يطيل تلك السنوات، لكن سنوات الطفولة تلك لم تستمر سوى بضعة أشهر. على أي حال هناك أمور أهم بكثير من الطفولة. وربما في سن الشيخوخة تتراءى لي الكثير من لحظات الطفولة السعيدة، التي تطلبت عملًا شاقًا فوق طاقة أي طفل عادي. لكن هذه الطاقة ستظل عندي.

بدأت أبحاثي حينئذ في اشياء بسيطة للغاية. لم تكن تنقصني وقتها المواد اللازمة للأسف، على العكس، كان الفائض فيها يبعث في نفسي اليأس عندما يشتد بي الحزن. بدأت بالوسيلة التي توفر بها الكلاب قوت يومها. إنها بالطبع – لو تحققت – ليست مسألة بسيطة على الإطلاق. فنحن نقوم على هذا الأمر منذ نعومة أظافرنا. إنها القضية الرئيسية التي نفكر فيها. هناك ملاحظات غير محدودة، ومحاولات وآراء في هذا المجال. أسفر كل ذلك عن علم كامل يتجاوز باتساعه الهائل أفكار مُتعلم واحد، وربما أفكار المتعلمين جميعًا. لا يحمله أحد سوى جنس الكلاب بشكل جماعي، وحتى هذا يتم بصعوبة وبصورة غير مكتملة. شيوخ هذا العلم الذين يمتلكون ثروة من المعلومات منذ القدم صاروا يتهاوون، وأصبح من الصعب إضافة شيئ جديد إليه. فما

بالك بالمصاعب والإفتراضات التي تتحقق بصعوبة من خلال أبحاثي. ربما يأخذ البعض هذا الأمر ليوجه لي اللوم. أنا على علم كامل بكل هذا، أكثر من أي كلب عاديّ آخر. أنا لا أنوى إقحام نفسي في علوم حقيقية. أتعامل معها بكل الإحترام الواجب، لكننى لكي أطور هذه النظريات تنقصنى المعرفة، والمثابرة، والهدوء وأخيرًا - وليس آخرًا وخاصة في السنوات الأخيرة - الشهية. أنا أبلع الطعام، لكن لا أجهد نفسي في أن أتأمل فيه مسبقًا وبطريقة سليمة وزراعية. أنا أكتفي من هذه الناحية بما أستخلصه من كل العلوم، أكتفي بالقاعدة البسيطة التي تفطم بها الأم أطفالها الصغار، وتبعدهم عن ثدييها ليبدءوا الحياة: إذهب! وبلل كل ما يقابلك" ألا يحمل هذا في طياته بالفعل كل شيء تقريبًا؟ ما هو الشيء الهام الذي أضافته كل الأبحاث التي بدأها أجدادنا إلى هذه العلوم ؟ تفاصيل، مجرد تفاصيل - وهى أمور غير مؤكدة: لكن هذه القاعدة مازالت سارية مادمنا أحياء، نحن الكلاب. إن الأمر يتعلق بطعامنا الرئيسي: الحقيقة أن لدينا وسائل مساعدة أخرى. وعندما تسوء الأحوال، ويكون طعام السنة سيئًا يمكننا أن نعيش على هذا الطعام الرئيسي. هذا الطعام الرئيسي نعثر عليه في الأرض، لكن الأرض تحتاج إلى مياهنا، إنها تعيش عليها، ومقابل هذا تعطينا ما نحتاجه من طعام. يمكننا تسريع نمو هذا الطعام - لا يجب أن ننسى هذا الأمر - من خلال مقولات معينة، وعن طريق الغناء والحركة. هذا على ما أعتقد هو كل شيء. ولا يمكنني أن أضيف شيئًا آخر من هذه الناحية. ويتفق معي في كل هذا الأغلبية العظمى من جنس الكلاب، ولا أقبل على الإطلاق

أية هرطقة في هذا الموضوع. الأمر بالنسبة لي لا يتعلق بشيء غير اعتيادي، فأنا لا أتناول الأمور على نحو شخصي. أنا كلب سعيد. أعيش في تناغم تام مع أبناء عشيرتي. لكن مشاريعي الخاصة تأخذ منحىً آخر تمامًا. أرى منذ الوهلة الأولى أن الأرض تعطي الغذاء طالما تم حرثها وريها بناء على قواعد علمية. عندها يكون الغذاء جيدًا ووفيراً وفي كل مكان، وفي أي وقت، تمامًا كما تقول القوانين التي تكون متوافقة جزئيًا أو كليًا مع العلوم. أنا أتقبل هذا، لكن سؤالي هو: "من أين تأتي الأرض بهذا الغذاء؟" إنه سؤال غالبًا ما يتظاهر الجميع أنهم لا يفهمونه، وفي أفضل الأحوال يجيبونني قائلين: "إن لم يكن لديك ما تأكله نعطك مما لدينا" انظر إلى هذه الإجابة. أنا أعرف جيدًا أنه ليس من أولويات جنس الكلاب أن نقوم بتقسيم الغذاء الذي نحصل عليه يومًا ما فيما بيننا. الحياة صعبة، والأرض لا تجود إلا بما هو ضروري. العلوم غنية فقط بالمعلومات، لكنها فقيرة تمامًا في نتائجها العملية. ومن لديه طعام يحتفظ به لنفسه. إنها ليست أنانية، بل على العكس تمامًا، إنه القانون. إنه قرار حاسم من شعب جاء نتيجة تخطيه الأنانية، فأعداد أصحاب الأملاك قليلة. لذلك فإن الإجابة "إن لم يكن لديك ما تأكله نعطك مما لدينا"هى من العبارات المستخدمة على سبيل المزحة أو السخرية. هذا أمر أضعه دائمًا في اعتباري. لكن أكثر ما يهمني هو عندما تجولت يومها في العالم وأنا أحمل معي أسئلتي، لم يجعل مني أحد مادة للسخرية. صحيح أن أحداً لم يقدم لي الطعام - ومن أين له بمثل هذا الطعام -، ولو سمع صوتًا ما صدفة، فإن شدة

الجوع تجعله ينسى على الفور كل الاعتبارات الأخرى، حيث أن عرض الطعام يكون جادًا، وبذلك أحصل من هنا أو من هناك على شيء ولو بسيط. يجب أن أكون سريعًا كي ألتهمها. لماذا تصرفوا معي بهذا الشكل، وأطعموني، ومنحوني عطفهم؟ هل لأنني كنت نحيفًا. هل لأنني كنت كلبًا ضعيفًا وسيئ التغذية، ولا أهتم كثيرًا بقضية الطعام؟ لكن هناك الكثير من الكلاب النحيفة تتحرك هنا وهناك، وغالبًا ما تظهر لهم بعض الأطعمة البسيطة أمام أنوفهم فيلتهمونها. ليس من باب الشراهة بالطعام، لكنها في الغالب مسألة مبدأ. ببساطة أطعموني. لا يمكنني أن أسهب في الحديث عن الموضوع. فقط ترك عندي انطباعًا معينًا. هل كان هذا بفضل أسئلتي، هل سببت لهم نوعًا من السعادة، فاعتبروها أسئلة ذكية؟ كلا، لم تسبب لهم أي نوع من السعادة، ورآها الجميع أسئلة غبية. لكنها رغم ذلك أسئلتي وحدها هي التي لفتت أنظارهم إليّ. يبدو أن الآخرين فضلوا أن يقوموا بسد فمي بالطعام – لم يفعلوا شيئًا بالطبع، لكن ربما أرادوا ذلك –، بدلًا من أن يتحملوا أسئلتي. وحتى هذا لم يرغبوا فيه، لم يرغبوا في الاستماع إلى أسئلتي، لكن بسبب تلك الأسئلة لم يطردوني. ورغم أنهم سخروا مني، ورغم أنهم تعاملوا معي على أني حيوان صغير غبي، ورغم أنهم كانوا يدفعونني هنا وهناك. لقد كانت أياماً، كنت وقتها أسعى إلى تحقيق أقصى درجات الجدية. ولم يتكرر شيء كهذا فيما بعد. كنت أدخل إلى كل الأماكن. لم يمنعني أحد. كنت أشعر بالتملق تحت ستار التعامل الخشن. كل هذا كان بفضل أسئلتي، بفضل تململي وفضولي. هل

حاولوا استرضائي، وقاموا بإبعادي عن الطريق الخطأ دون عنف، وبكل الحب. هل أرادوا أن يبعدوني عن الطريق الذي كان محل شك إلى درجة لا تسمح باستعمال العنف؟ بالتأكيد ما منعهم من استعمال العنف هو نوع من الإحترام. ظننت وقتها أن الأمر كدلك. أما اليوم فأنا واثق تمامًا من أنه كان كذلك بالفعل. أكثر ثقة من أولئك الذين تعاملوا معي وقتها. هذه هى الحقيقة، أرادوا أن يثنوني عن طريقي. لكنهم فشلوا. ما حدث كان عكس ذلك، فقد زادوا اهتمامي به. وأدركت أيضًا أن من يريد أن يثني أحدًا عن طريقه هو أنا وليس هم. وأعتقد أنني وُفّقت في هذا في الحقيقة. بدأت أفهم أسئلتي بمساعدة جنس الكلاب. عندما سألتهم على سبيل المثال: من أين تحصل الأرض على الغذاء – هل كنت أقصد كما فهموا الأرض نفسها، أم وظيفة الأرض؟ لا يهم، لم تكن هذه المسألة تعنيني كثيرًا، وهذا ما تأكدت منه سريعًا. كل ما كان يهمني هى الكلاب، وليس شيئًا آخر. هل يوجد ما هو أهم من الكلاب؟ ومَن غيرهم يمكنني مخاطبته في هذا العالم الواسع الخالي؟ إن كل المعارف، وكل الأسئلة، وكل الإجابات تجدها عند الكلاب. ليت هذه المعارف تجد طريقها لتكون فاعلة، ليتها تجد طريقها إلى نور العالم، ليت الكلاب تجيد أشياء أخرى غير الاعتراف بنفسها! إن أكثر الكلاب ثرثرة منغلق على نفسه أكثر من أماكن تواجد أفضل الأطعمة. كلب يتسلل حول كلب آخر من أبناء جنسه، ثم يثب بدافع من رغبته الخاصة، ويضرب بذيله ويسأل، ويطلب، ويعوي، ويعض، ثم يحصل على ما قد يحصل علية دون أي مجهود: يجد من يستمع إليه بكل

الحب، ويحصل على لمسات ترحيب، وتنهد يتسم بالاحترام، وأحضان حارة. يصبح عوائي وعوائك شيئًا واحدًا، ستجد كل شيء هنا، النشوة والنسيان والعودة. لكن الشيء الوحيد الذي سعيت إلى الوصول إليه هو المعرفة. المعرفة هى الشيء الوحيد الذي لم أحصل عليه. كانوا في أفضل الأحوال يجيبونني، سواء بالصمت أو بصوت عالٍ، بسحنة بليدة، وبنظرة من طرف أعينهم، وعيون تائهة وكدرة. لا يختلف كثيرًا عما رأيته وأنا طفل حين ناديت على الكلاب التي كانت تعزف الموسيقى، وكان ردها الصمت.

يمكن أن يقول لي أحد الآن: "أنت تشكو من أبناء عشيرتك الكلاب، تشكو من صمتهم في الأمور الهامة. تؤكد أنهم يعرفون أكثر مما يعلنون، وأكثر مما يفعلون به في حياتهم. تقول أن هذا الكتمان الذي لا يتحدثون أيضًا عن أسبابه ولا عن سره، يفسد حياتك كما تعتقد، ويجعلها غير محتملة. تود على يبدو أن تغيره أو تتخلي عنه. حسنًا، ربما أنت محق، لكنك أنت نفسك كلب أيضًا، لك نفس معارف الكلاب، قلها إذن، ليس فقط في صورة أسئلة، لكن في صورة إجابة. من سيمنعك لو قلت الحقيقة؟ سيسقط جنس الكلاب فورًا، وكأنه ينتظر هذه اللحظة. وعندها ستعرف الحقيقة، والوضوح، والعقيدة التي تتمناها. سيُفتح أمامك سقف هذا العالم القريب الذي تقول عنه أشياء غير طيبة. سوف نصعد جميعًا، كلبًا وراء الآخر، إلى رحاب حرية أكبر. ولو لم توفق في هذا الأمر الأخير، وصار كل شيء أسوأ مما كان من قبل،

وصارت الحقيقة كلها عصية على أن نتقبلها أو نتقبل نصفها، وتأكد لنا أن الصامتين كونهم حماة الحياة فهم على حق. لو تحول الأمل الصامت الذي مازلنا نملكه إلى يأس كامل - إن الكلمة جديرة بالمحاولة، لأنك لا تريد أن تعيش كما قُدِّر لك. حسنًا، لماذا تلوم الآخرين على صمتهم وأنت نفسك صامت؟"الإجابة بسيطة: لأنني كلب. شأني شأن الآخرين، أتقوقع على نفسي عندما يتعلق الأمر بالقضايا الأساسية، أقاوم صمتي بطرح الأسئلة. إن الخوف يجعل مني كلبًا قويًا. هل أسأل شعب الكلاب، خاصة منذ أن أصبحت كلبًا بالغًا، وأنتظر إجابةً؟ هل بذلك أرعى في نفسي أملًا سخيفًا؟ أنا أرى قواعد حياتنا، أتخيل عمقها. أرى العمال في مواقع البناء، وفي أعمالهم الغامضة. هل مازلت رغم ذلك أنتظر أن تنبئني الإجابة على أسئلتي عن انتهاء كل هذا، عن تدميره واختفاءه؟ لا، أنا لا أنتظر شيئًا من هذا. أنا أتفهمهم، دمي هو دمهم؛ دمهم البائس، الصغير دومًا، والفضولي دومًا. لكن ليس الدم فقط هو ما يربطنا، لكن المعرفة أيضا، وليست المعرفة وحدها، لكن مفتاح المعرفة. لا يمكنني أن أمتلك المعرفة بدون الآخرين، لا يمكنني أن أمتلكها بدون مساعدتهم. لا يمكن قهر العظام الحديدية التي تحتوي على أفضل أنواع النخاع إلا بعضات جماعية من أسنان كل الكلاب. كل هذا ليس سوى صورة مبالغ فيها فلو كانت كل الأسنان بالفعل مستعدة، لما اضطرت الكلاب إلى أن تلعق العظام. فالعظمة قد تُفتح من تلقاء نفسها، ويسقط منها النخاع، ويصبح في متناول الجميع، في متناول أضعف كلب فيهم. لو توقفنا عند هذه الصورة، سنجد أن كل

مقاصدي، وأسئلتي، وكل أبحاثي تتجه نحو شيء رهيب. أريد أن أدفع الأمور نحو اتحاد جميع الكلاب، أريد أن تُفتَح العظمة من تلقاء نفسها تحت ضغط اصرارهم. وعندئذ أريدهم أن ينطلقوا إلى الحياة التي يرغبون فيها. ثم أرتشف وحدي، وحدي تمامًا ذلك النخاع. يبدو هذا رهيبًا. إنه تقريبًا وكأنني لا أريد فقط أن أعيش على نخاع عظمة واحدة، لكن على نخاع جنس الكلاب كله. إنها مجرد صورة. إن النخاع الذي نتحدث عنه لا يُعتبر طعامًا على الإطلاق. بل على العكس، إنه سُمّ.

أنا لا أزعج بأسئلتي إلا نفسي. أريد أن أستفز نفسي بالصمت. إنه الوحيد الذي يرد على أسئلتي. إلى متى ستظل تتحمل وجنس الكلاب يلتزم الصمت، كما أثبتت لي الأبحاث، وسوف يظلون هكذا دائمًا؟ إلى متى ستقاوم هذا الأمر. هذا هو سؤالي المحوري الذي يعلو فوق باقي الأسئلة الفرعية الأخرى: إنه سؤال أوجهه إلى نفسي، ولا أزعج به أحدًا آخر. الإجابة عليه للأسف أسهل من الإجابة عن باقي الأسئلة الفرعية: سوف أتحمله على ما يبدو حتى نهاية حياتي. إن هدوء الشيخوخة يقاوم دائمًا الأسئلة القلقة. يبدو أني سوف أموت وأنا صامت، محاطًا بالصمت، سأموت في هدوء، وأنتظر هذه اللحظة بكل هدوء. يبدو أننا نحن الكلاب قد حظينا عن سوء نية بقلب قوي بصورة عجيبة، ورئتين لا يمكنهما أن تبليان بسهولة. نحن مضادون لكل الأسئلة، وحتى التي نطرحها بأنفسنا. نحن حصن الصمت.

أفكر كثيرًا في الآونة الأخيرة في حياتي، أبحث عن الخطأ الكبير الذي ارتكبته، وتسبب في كل شيء. أقف عاجزًا عن العثور عليه. لكنني بالتأكيد ارتكبت خطأً كهذا. فلو أنني لم أرتكبه، ورغم ذلك لم أتوصل إلى ما سعيت إليه طوال حياتي بالعمل الجاد، لكان من المؤكد أن ما أسعى إليه أمر مستحيل، وسيؤدي إلى يأس كامل. انظر! مشروع حياتك! في البداية بحث حول سؤال: من أين تأتي الأرض بالغذاء الذي توفره لنا؟ أنا كلب صغير، متعطش في أعماقه للحياة. رفضت كل المـُتع، وتجنبت كل أمور اللهو، وخبأت رأسي بين أقدامي أقاوم كل إغراء، ولم أصبر إلا على العمل. لم يكن هذا عملًا علميًا، لا من الناحية المعرفية، ولا من ناحية الطريقة أو الهدف. ربما كانت مجرد أخطاء، لكنها ليست بالتأكيد أخطاءً قاتلة لم أتعلم الكثير، لأني هجرت أُمي منذ زمن بعيد، ودربت نفسي على الاستقلال. عشت الحياة أتمتع بالحرية. والاستقلالية المبكرة قبل الأوان ليست دليلًا على التّعلُّم المنتظم. لكني رأيت وسمعت الكثير، وتحدثت مع العديد من الكلاب من كل الأنواع والوظائف. ولا أعتقد أنني أخطأت في فهم كل هذا، ولا أظن أيضًا أنني أخطأت في ربط ملاحظاتي المختلفة ببعضها، وهى ملاحظات من شأنها تحقيق سعة الإطلاع، وفضلًا عن ذلك أعتبر الاستقلالية – ربما تكون غير مناسبة للتعليم – من أهم الأشياء التي تخدم أبحاثي. لقد كانت في حالتي ضرورية. فأنا لم أستطع اتباع الطرق العلمية المستخدمة في العلوم، أي لم أستفد من أعمال من سبقوني، ولم أربطها بالأبحاث المعاصرة. لكني كنت معتمدًا تمامًا على

نفسي فقط. بدأت من نقطة الصفر. أنطلقت من قناعة سعدت بها وأنا طفل، وضقت بها وأنا في شيخوختي، وهى أن النقطة الأخيرة التي سأتوصل إليها عشوائيًا ستكون أيضًا حاسمة. هل أعيش الآن كما عشت من قبل، وحيدًا، غارقًا في أبحاثي؟ نعم، ولا. من المستحيل القول أن بعض الكلاب لم تتعرض لموقف مثل موقفي هذا يومًا ما. لا يمكن اعتبار حالتي سيئة. فأنا لم أتجاوز طبيعة الكلاب بأي حال. إن كلب مثلي مدفوع بالرغبة في توجيه الأسئلة، وشأني شأن كل كلب مدفوع إلى التزام الصمت. كل فرد لدية الدافع إلى توجيه الأسئلة. لكن ما الذي يمكنني تحقيقه بأسئلتي هذه سوى تلك الهزات الخفيفة والكثيرة التي يصاحبها نشاط مبالغ فيه بالطبع، وقُدّر لي أن أراها. ألم يكن بإمكانى أن أصل إلى أكثر من ذلك لو أن طبيعتي كانت مختلفة عما أنا عليه؟ إن الدافع الذي يجعلني أصمت لا يحتاج إلى أي دليل. أنا لا أختلف عن أي كلب آخر في أي شيء. لذلك سأظل رغم كل الخلافات والاختلافات في وجهات النظر أحظى باعتراف الآخرين، أكثر من اعترافي أنا بأي كلب آخر. لكن خليط العناصر المتعددة يظل غير متجانس، وهو أمر من الناحية الشخصية واضح للغاية، ويمثل من الناحية القومية خلافًا عديم القيمة. هل أدى خليط تلك العناصر الموجودة دائمًا، في الماضي والحاضر، إلى إحداث نفس الأثر عند الآخرين كما حدث معي – يمكنني أن أعتبر أنه كان بالنسبة لي خليطًا تعيسًا – وربما أكثر بكثير؟ لكن هذا قد يتعارض مع كل الخبرات الأخرى. نحن الكلاب نقوم بأكثر الوظائف غرابة. وظائف لا يمكن أن تُصدّقها حتى ولو صدرت بشأنها

تقارير في غاية المصداقية. دائمًا ما أتذكر هنا مثال الكلاب الهوائية. ضحكت عندما سمعت عنها لأول مرة. لم أسمح لنفسي أن أنخدع بالأمر. وكيف لي هذا؟ يُقال أنه يوجد كلب من نوع صغير للغاية، لا يزيد حجمه عن حجم رأسي بكثير. كما أنه لا يبلغ عمرًا أكبر من عمري بكثير. وهو كلب ضعيف البنية، يبدو من الوهلة الأولى وكأنه كلب صناعي، غير ناضج، مخلوق صغير هش، عاجز عن القيام بقفزة واحدة طبيعية. هذا الكلب، كما تقول الرواية، يتحرك غالبًا في الهواء، لكنه على ما يبدو لا يعمل، بل يسترخي. ما هذا العبث، قلت لنفسي إن محاولة إقناعي بأمر كهذا أعتبرها استغلال مبالغ فيه لسذاجة كلب صغير مثلي. لكن بعد ذلك بوقت قصير سمعت حكاية عن كلب هوائي آخر من مصدر مختلف. هل اتفقوا جميعًا على أن يصيبوني بالجنون؟ بعدها رأيت تلك الكلاب الموسيقية. ومن وقتها وأنا أعتبر أن كل شيء ممكن. لم أضع نفسي أسيرًا لأية أحكام مسبقة. رحت أبحث عن كل الأساطير الغريبة. أتابعها قدر استطاعتي. فوجدت أن أكثر الخرافات عبثية في هذا العالم التافه منطقية تمامًا، ومثمرة بالنسبة لأبحاثي بصفة خاصة. كلاب هوائية. عرفت عنها الكثير. لكنني حتى اليوم لم أر أيّا منها، إلا أني كنت مقتنعًا تمامًا بوجودها في الواقع منذ وقت طويل. وتحظى بمكانة هامة في تشكيل رأيي حول هذا العالم. وكما هو الحال دائمًا، لم تعد هذه الأشياء غريبة هنا، وهو ما يدعوني إلى التفكير. لا يمكن أن ينكرها أحد. فمن المثير للدهشة أن تلك الكلاب تستطيع الطيران في الهواء. شاركني الدهشة من هذا الأمر كل جنس الكلاب. لكن

الأكثر إثارة للدهشة هى تلك السخافة، السخافة الصامتة لهذه المخلوقات. لا يوجد ما يبرهن على شيء، إنهم يرتفعون في الهواء، وانتهى الأمر. وتسير الحياة في طريقها، ثم يتحدثون هنا وهناك عن الفن والفنون. هذا كل ما في الأمر. لكن عشيرتي من الكلاب، لماذا هذه الكلاب التي تنتمى إليها تطير دون غيرها؟ ما هو الغرض من وظيفتهم تلك؟ لماذا يصعب استخلاص كلمة واحدة تفسر ما يفعلون؟ لماذا يرتفعون في الهواء هناك، ويتركون أقدامهم تضمر، ويدنسون كبرياء كل كلب. إنهم بعيدون عن مكان عائلهم، لا يتغوطون، ورغم ذلك ينظفون حولهم. وفضلًا عن ذلك تبدو عليهم مظاهر التغذية الجيدة، على حساب كل جنس الكلاب. يمكنني أن أُثني على نفسي وأقول إنني بأسئلتي هذه حركت مثل هذه الأمور قليلًا. سيبدأ البحث عن الأسباب. سيبدءون البحث عن شيء ليكون سببًا، لكن لم يتجاوز أحدهم هذه البداية. لكنها محاولة على الأقل. صحيح أنهم لن يصلوا إلى أية حقيقة، أو إلى أية نتائج – لكن ربما على الأقل سيجدون شيئًا من قلب التباس الكذب. فدائمًا يمكن التوصل إلى أسباب لجميع المظاهر العبثية في حياتنا، وخاصة تلك المظاهر الأكثر جنوناً. لن تكون أسبابًا حاسمة بالطبع، لكنها تكفي – إنها مجرد مزحة غبية – للحيلولة دون الإجابة عن الأسئلة الغريبة. نعود مرة أخرى إلى المثال. تلك الكلاب الهوائية ليست متكبرة كما تبدو من الوهلة الأولى. إنها تحتاج بشدة إلى أبناء عشيرتها من الكلاب. يمكننا أن نفهم هذا الأمر لو وضعنا أنفسنا مكانها. إنها تحاول بطريقة مختلفة – طالما لا يمكنها أن تفعل ما تريده بشكل

مباشر، وهو الأمر الذي يتعارض مع ضرورة التزام الصمت - أن تحصل على الغفران من أسلوب الحياة التي يعيشونها، أو على الأقل تصرف عن نفسها الانتباه، أو تسعى إلى نسيانه. فتفعل ما تفعله، كما سمعت، بواسطة ما يشبه ثرثرة لا تحتمل. لديها دائمًا ما تقوله عن بعض أفكارها الفلسفية التي لا تكف عن التفكير فيها، طالما أنها رفضت الإجهاد البدني تمامًا، أو تفصح عن بعض الملاحظات التي تجمعها من مكان مرتفع. رغم أنها لا تتميز بقوة روحية خاصة، وهو أمر طبيعي في حياة حقيرة كهذه. أفكارها الفلسفية وملاحظاتها تلك لا قيمة لها، ولا تُفيد العلوم بأي شيء تقريبًا. كما أن العلوم لا تعتمد إطلاقًا على مثل هذه المصادر المساعدة البسيطة. رغم ذلك، لو سألتم: ما جدوى هذه الكلاب الهوائية، فستحصلون دائمًا على هذه الإجابة: أنها تُعدّ إضافة جيدة للعلوم. ستردون على ذلك، وتقولون: "هذا حقيقي، لكن إسهاماتهم هذه عديمة القيمة، وتافهة" أو قد تكون الإجابة بهز الكتفين، أو تغيير مجري الحديث، أو التجهم أو الضحك. وعندما تعاودون السؤال مرة أخرى، ستعرفون من جديد أنها تُقدم إسهامًا للعلوم. وبذلك عندما يوجه لكم أحدهم في المستقبل سؤالًا كهذا، وتعجزون عن الإجابة، ستجيبون بنفس الإجابة. ربما من المفيد ألا نبالغ في العناد، ونتأقلم مع الوضع. ليس المطلوب الاعتراف بوجود كلاب هوائية لها حق الحياة، وهو أمر مستحيل، لكن يجب تقبلها. لن يطلب أحد أكثر من ذلك، وإلا لصار مبالغًا تمامًا. لكنه مطلوب. مطلوب تحمل وجود الكلاب الهوائية الجديدة التي تطير في الهواء. ليس

معروفًا على وجه الدقة المكان الذي جاءت منه. لكن هل تتكاثر على الأقل؟ هل لديها القدرة على التكاثر، وهي ليست سوى شعر جميل، وبماذا ستتكاثر؟ ولو أن شيئًا عبثيًا كهذا صار ممكنًا، فماذا سيحدث؟ إنها لا تظهر إلا بعيدة عن بعضها، راضية باستقلالها هناك في الهواء. ولو حدث وهبطت إلى الأرض، تركض قليلًا، للحظات قليلة جدًا. تخطو فقط بضع خطوات مصطنعة، وتظل دائمًا منعزلة. كل منها غارق في أفكاره المزعومة، ولا يمكنها، وإن حاولت بكل عزيمة، أن تخرج من هذه الحالة. على الأقل هذا ما يؤكدونه. وإن لم تكن تتكاثر، فهل من المنطقي وجود كلاب ضاقت ذرعًا بالحياة على الأرض، وصارت طوعًا كلابًا هوائية. وتنازلت عن الراحة والبراعة، واختارت تلك الحياة العقيمة هناك فوق الأسلاك؟ لا يوجد أي منطق في هذا، ولا حتى في التكاثر ولا في الالتحام الطوعي. لكن الحقيقة تقول إن كلاب هوائية جديدة تظهر على الداوم. نستخلص من هذا أنه رغم أننا نعتقد أن العقبات لا يمكن تجاوزها، فإن فصيل الكلاب الذي ظهر يومًا بكل خصوصيته لن يندثر، أو على الأقل لن يختفي بسهولة. فيوجد في كل نوع من المخلوقات شيء ما يستطيع أن يدافع به عن نفسه وبنجاح.

هل عليّ أن أتوقع أن يحدث لي ما حدث مع هذا النوع الساقط، الأحمق، غريب الشكل، العاجز عن مواصلة الحياة؟ رغم أنني لا أبدو من شكلي غريبًا على الإطلاق. فشكلي مقبول، وعادي، ويوجد الكثير من أمثالي على الأقل في هذه المناطق. لا أتميز في أي شي، ولا جدوى مني.

فعندما كنت شابًا، وخاصة في سن الفحولة كنت كلبًا لطيفًا للغاية، ولطالما اعتنيت بنفسي، وأكثرت من الحركة. وشكلي، خاصة من الناحية الأمامية، كان مصدر إطراء. أقدامي نحيفة، ورأسي منتصبة بطريقة جميلة. لون شعر رأسي خليط من البني والأبيض والأصفر.، وأطراف شعري وخصلاته المتجعدة كانت تبدو رائعة. لكن كل هذا يُعدّ أمرًا عاديًا أما الغريب فهى طبيعتي. وحتى هذه الطبيعة – يجب الإشارة إلى هذا دائمًا – نابعة من طبيعة الكلاب المعروفة. ولن يكون هذا الكلب الهوائي هو الوحيد، فدائمًا ما سيظهر غيره في عالم الكلاب الكبير من وقت لآخر. وسيخلفه دومًا جيل جديد. وبالتالي لا يمكنني أن أفقد الأمل بأن حالتي ليست سيئة إلى هذه الدرجة. لكن المصير الغريب هو من نصيب أفراد كل جنسي. ومن الواضح أن الحياة لن تقدم لي العون. فأنا أعرفها جيدًا. نحن من أعياهم الصمت. وغيرنا يعجبهم الصمت. لكنه ليس إلا وهم، تمامًا مثل الكلاب الموسيقية. أرادت أن تظهر نفسها بأنها تعزف الموسيقى بهدوء، لكنها في الحقيقة كانت ثائرة للغاية. لكنه وهم قوي. نحاول أن نصل إلى جوهره، لكنه يسخر من كل محاولة للهجوم عليه. كيف يتحمل أبناء عشيرتي هذا؟ بأي أسلوب يحاولون الحياة رغم هذا كله؟ ربما سيختلف الأمر من واحد للآخر. لقد حاولت هذا بتوجيه الأسئلة عندما كنت صغيرًا. يمكنني إذن أن أقف الآن بجوار من يسألون كثيرًا، وعندها سأجد من بينهم رفقاء لي. لقد حاولت هذا عدة مرات بدافع من إنكار الذات. نعم، إنكار الذات، لأن ما يهمني في المقام الأول هم من سيجيبونني على أسئلتي. لكن غالبًا لا أجد إجابة على

أسئلة من أفراد يزعجونني بها على الدوام، ولا أحبهم. لكن من لا يحب طرح الأسئلة وهو صغير، كيف لي أن أجد وسط كل تلك الأسئلة أسئلةً حقيقية؟ إن كل سؤال يشبه الآخر. الأمر يتوقف على الغرض من السؤال، وهذا الغرض خفي حتى عن السائل. طرح الأسئلة بصفة عامة من طبيعة الكلاب. الكل يسأل من خلال غيره، وكأنه بذلك يخفي أثر الأسئلة الصحيحة. ليس الأمر كذلك، فلن أجد وسط السائلين الصغار رفقاء لي، ولا بين الصامتين، أي العجائز الذين أنتمي لهم الآن. لكن لماذا السؤال وقد تحطمْت معهم. إن رفقائى أكثر مني ذكاءً كما هو واضح، ولديهم وسائل مختلفة ورائعة لكي يتحملوا بها هذا العالم. إنها وسائل – أقول هذا من واقع تجربتي الخاصة – تساعدهم في أحلك الظروف. تُهدّأ من روعهم، وتهدهدهم، وتغيرهم. لكنها في الواقع عديمة النفع مثل وسائلي. وكلما نظرت وأمعنت النظر، لا أرى أي نجاح. أخشي من أنني أميز أبناء عشيرتي بأشياء كثيرة، إلا النجاح. لكن من هم رفقائى؟ موجودون في كل مكان، ولا جود لهم. ربما يكون جاري الذي يبعد عني ثلاث خطوات. دائمًا ينادي كل منا الآخر. فيأتي عندي، لكنني لا أذهب عنده. هل هو من رفقائي؟ لا أعرف، رغم أني لم أر فيه شيئًا يشبهني. لكن ربما يكون من رفقائي. ربما يكون. كل شيء جائز. فقط عندما يخرج إلى الشارع أستطيع من باب التسلية والفانتازيا أن أكتشف لديه شيئًا يقربني منه. لكن بمجرد أن يقف أمامي تصبح كل أوهامي مضحكة. إنه كلب عجوز، جسمه أصغر من جسمي قليلًا، وجسمي متوسط. لونه بني، شعره قصير، له رأس مترهلة ومرهقة. يتمهل في

سيره، وفوق ذلك يجر قدمه الخلفية اليسرى ربما لمرض ما. لم ألتقي عن قرب بكلب مثله منذ وقت طويل. أنا سعيد بأنني مازلت أستطيع تحمله إلى حد ما. أصرخ فيه بطريقة لطيفة عندما يبتعد عني، ليس عن حب له بالطبع، بل لغضب من نفسي. لأني حتى لو ذهبت وراءه سأكون في غاية الاشمئزاز منه وهو يجر قدمه المتصلبة بمؤخرته المتدلية. أحيانًا أسخر من نفسي عندما أنعته سرًا بالرفيق. فهو لا يذكر شيئًا أثناء أحاديثنا عن رفقة ما. ورغم أنه حصيف، ومتعلم مقارنة بغيره هنا، ويمكنني أن أتعلم منه الكثير. لكن هل أبحث أصلًا عن الحكمة والتعلم؟ نحن نتحدث عن القضايا المحلية، وأتعجب – لأني بفضل وحدتي أصبحت من هذه الناحية أكثر إدراكًا للأمور – وأتساءل، كم من الحكمة يحتاجها الكلب العادي في أوضاع غير ملائمة إلى حدٍ ما كي يعيش الحياة، ويحمي نفسه من المخاطر الكبيرة المنتشرة. رغم أن العلوم تقدم لنا القواعد، لكن يصعُب فهمها وفهم سماتها العامة على الأقل، وخاصة عن بعد. ولو فهمتموها، تبدأ المشكلة الكبرى، وهى تطبيقها في ظل الأوضاع السائدة. لن يساعدك أحد هنا، فكل ساعة تحمل معها واجبات جديدة، وكل مكان على الأض له سماته الخاصة. لا يمكن أن يقول أحد عن نفسه بأنه تأقلم معها إلى الأبد، وأن حياته تسير إلى حد ما من تلقاء نفسها. ولا حتى أنا، رغم أن احتياجاتي تقل يومًا بعد يوم. ما فائدة كل هذا الإجهاد المتزايد؟ من أجل أن نغرق أكثر وأكثر في الصمت الذي لن يُخرجنا منه أحد يوما ما.

غالبا ما يشيدون بالتقدم العام لجنس الكلاب على مر الأيام، ويقصدون بذلك التقدم الذي حدث في العلوم. من المؤكد أن العلوم تخطو إلى الأمام، ولا يمكن منعها. تسير بسرعة إلى الأمام، وتزداد سرعتها كل يوم. لكن ما الذي يستحق الإشادة في هذا؟ إن الأمر يبدو وكأننا نمتدح أحدهم على أنه يطعن في السن بمرور السنوات، ويقترب الموت منه أكثر فأكثر. إنها عملية طبيعية وحقيرة للغاية أيضًا. لا أرى فيها ما يستحق الإشادة. لا أرى فيها سوى الانحطاط. لكني رغم ذلك لا أعتقد أن الأجيال السابقة كانت أفضل حالًا. كانت فقط أصغر سنًا، وهذه هى ميزتهم الوحيدة. لم تكن ذاكرتهم مثقلة مثل ذاكرة الأجيال الحالية. كان يسهل إجبارهم على الدخول في حديث، ورغم أن أحداً لم يتمكن من هذا. لكن كانت هناك دائمًا فرصة كبيرة لهذا الأمر. هذه الفرصة الكبيرة هى ما يعجبنا عندما نستمع إلى الشيوخ، وإلى قصصهم التافهة بالطبع. نسمع بين الحين والآخر كلمة بها تلميحات بسيطة، وعلى الفور نكاد نقفز في الهواء لولا شعورنا بعبء الألفية. لا، رغم أن لدى الكثير من التحفظات على عصرنا، لم تكن الأجيال السابقة أفضل من الجيل الحالي. بل كانت أسوأ بكثير وأكثر ضعفًا. لم تكن المعجزات تمشي بينهم في الشوارع حتى يمسك بها أحدهم. فلم تكن الكلاب كلابًا – لا أجد كلمة أفضل من هذه كما هى اليوم. كان التضامن بين جنس الكلاب أكثر ليبرالية. كانت الكلمة الحقيقة حينئذ لها تأثير، وكان من شأنها تحديد البناء وتغييره، وتكييفه لكل الرغبات، أو تغييره إلى الاتجاه العكسي. كانت هناك الكلمة، أو كانت قريبة على

الأقل، كانت على اللسان، وكان يمكن أن ينطقها أي فرد. أين هى اليوم. اليوم يمكننا أن نبحث عنها في كل أجسامنا، ولن نجدها. إن جيلنا ضائع، لكنه أكثر براءة من الجيل السابق. يمكنني أن أفهم التردد الموجود في جيلي. فهو في الواقع ليس ترددًا، إنه نسيان حلم حلمناه منذ ألف ليلة. حلم نسيناه ألف مرة. فمن سيغضب منا من أجل ألاف الليالي المنسية؟ أعتقد أني أفهم تردد أجدادنا أيضًا. وكنا سنتصرف مثلهم غالبًا. لكن يمكن أن أقول: إننا سعداء بأننا لم نكن في مكانهم، لم نكن الجيل الذي اضطر إلى تحمل الذنب، والتكيف بصمت بريء مع الموت في العالم الذي أظلمه الآخرون. عندما ضل أجدادنا الطريق، لم يفكروا في الضياع اللانهائي، لكنهم كادوا يروا مفترق الطرق. وكان بإمكانهم العودة في أي وقت. وإن كانوا ترددوا فذلك لأنهم أرادوا الاستمتاع ولو قليلًا بحياة الكلاب، رغم أنها كانت لا تزال حياة عادية. لكنهم كانوا يرونها حياة جميلة ورائعة. ثم واصلوا السير ليبحثوا عن شكل الحياة التالي، الذي ربما سيظهر بعد لحظات. لم يعرفوا كما عرفنا من متابعة حركة التاريخ أن الروح تتغير قبل الحياة، وأنه في اللحظة التي سيبدأون فيها في التمتع بحياة الكلاب، ستكون أرواحهم قد شاخت، وأنهم قد اقتربوا من نقطة الخروج دون أن يدروا، وخدعوا أعينهم الغارقة في ولائم الكلاب. – من مازال يريد اليوم الحديث عن الشباب. لقد كانوا الكلاب الشابة الحقيقية، لكنهم بطمعهم للأسف صاروا كلابًا عجائز. الشيء الذي فشلوا فيه هو إظهار أفضل ما عندهم لكل الأجيال القادمة ولجيلنا الأخير.

أنا بالطبع لا أتحدث في كل هذه الأمور مع جاري. لكن غالبًا ما أضطر إلى التفكير فيها وأنا جالس أمامه. أمام كلب تقليدي عجوز، أو عندما أغوص بأنفي في شعره الذي تفوح منه رائحة الجلد المسلوخ. من العبث الحديث معه أو مع غيره في مثل هذه الأمور. كيف سيكون شكل حديث كهذا. سيعترض من وقت لآخر على شيء تافه، وفي النهاية سيتفق معي - الاتفاق هو أفضل سلاح - وتدفن القضية. لماذا إزعاجها الآن وإخراجها من المقبرة؟ ورغم هذا كله فلابد من وجود شيء نتفق عليه أنا وجاري، شيء يتخطى مجرد الكلمات. يجب أن أظل متمسكًا به سواء أردت أم لم أرد، رغم أني لا أملك عليه دليلًا واحدًا، وأستسلم لمجرد وهم ساذج. فهو الكلب الوحيد الذي ألقاه منذ وقت طويل. ويجب أن أحافظ عليه. "هل أنت رفيقي بالحالة التي أنت عليها؟ هل تخجل من أنك فشلت في كل شيء؟ اسمع! أنا أيضًا فشلت في كل شيء. أبكي لهذا عندما أكون وحدي. تعال! معًا سيكون الحال أفضل" أحيانًا أفكر بهذه الطريقة وأنا أنظر في وجهه بثبات. وهو لا يخفض بصره هو الآخر، لكن لا يمكن أن أقرأ في عينيه أي شيء. ينظر إليّ ببلاهة، ويتعجب لماذا لا أتكلم، ولماذا توقفت عن اللهو. لكن ربما تكون هذه النظرة هى طريقته في السؤال، وأنا أصبته بخيبة أمل، كما أحبطني هو الآخر. لو أنني في شبابي، ولو لم تكن لدي أسئلة أخرى أكثر أهمية، ولو أنني اكتفيت بنفسي، لكنت طرحت عليه سؤالًا بصوت عال، ولتلقيت موافقة باهتة، أي أقل بهتانًا من اليوم حيث يلتزم الصمت. لكن ألا يصمت الجميع بهذا الشكل؟ ما الذي يجعلني أصدق

أن كل أبناء عشيرتي متشابهون، ألا يوجد هناك في مكان ما كلب آخر يشاركني البحث، ويكون اختفى بنتائجه البسيطة وطواه النسيان، ولا يمكنني الوصول إليه بأي طريقة عبر ظلمات الزمن أو ازدحام العصر الحالي؟ فمنذ فترة طويلة وأنا أعرف من أهل عشيرتي من يحاول بطريقته الخاصة، وكلهم انتهوا بالفشل، كلهم انتهوا بالصمت أو باللغو المضلل بأنه يحمل بحثًا لا أمل فيه. لذلك لم أضطر إلى أن أتميز عن الآخرين. فبقيت بينهم بلا مشاكل، ولم أضطر أن أتصرف مثل الأطفال وأسعى للخروج عبر التزاحم في طوابير الكبار الذين يريدون أن يخرجوا مثلي. لكن ما يربكني هو عقلهم الذي يقول لهم: لن يخرج أحد وكل هذا التزاحم ليس إلا جنون.

من الواضح تأثير جاري الكبير في هذه الأفكار. لقد بعث في نفسي الفوضى، وجعلني سوداويًا. في حين كان هو سعيدًا للغاية. على الأقل سمعته يصيح ويغني إلى درجة أزعجتني. قد يكون من الأفضل التخلي عن هذا اللقاء الأخير، وألا أستسلم لأوهام غامضة تتولد بالضرورة عند أي لقاء بالكلاب. ومهما اعتقدنا أننا عاصون على التأثر يجب أن أستغل الوقت البسيط المتبقى لي فقط لصالح الأبحاث التي أقوم بها. عندما يأتي في المرة القادمة سأرقد وأتظاهر بأنني نائم، سأكرر هذا كثيرًا إلى أن يتوقف عن المجيء.

حدثت كذلك فوضى في الأبحاث التي أجريها. فصرت أتباطأ، وأصاب بالإرهاق، وأذهب بشكل تلقائي إلى المكان الذي كنا نحب الذهاب إليه من قبل. أتذكر عندما بدأت البحث بتوجيه سؤالي "من أين تحصل الأرض على الغذاء؟" كنت وقتها أعيش وسط البشر أزج بنفسي في الأماكن المزدحمة. أردت أن أجعل الجميع شهوداً على ما أقوم به. حتى صارت هذه الشهادة أهم من عملي نفسه. كنت أتوقع نوعًا من التواجد العام، وهذا الأمر شجعني كثيرًا بالطبع. لكن كل هذا انتهى إلى الأبد. كنت وقتها قويًا إلى درجة أني كنت أفعل أمورًا بشعة تتعارض مع كل مبادئنا. وبالتأكيد أي شاهد عيان من وقتها يتذكرها الآن على أنها كانت أعمالاً مُنفّرة. وجدت في العلوم التي تتجه نحو التخصص غير المحدود تبسيطًا غريبًا. تقول العلوم أن الأرض تخرج لنا من باطنها الغذاء. وعندما أقرت العلوم هذه القاعدة، أشارت إلى الطرق التي يمكن بها الحصول على هذا الغذاء بأفضل جودة وأكثر كمية. صحيح أن الأرض تمنحنا الغذاء، وهذا لا شك فيه، لكنه ليس أمرًا سهلًا كما يُقال (وهو ما يستبعد إجراء أبحاث أخرى). لنأخذ فقط أكثر الحالات بدائية والتي تتكرر يوميًا. لو كنا غير فاعلين تمامًا، مثل حالتي الآن تقريبًا، ولو تقوقعنا - على اعتبار أن شيئًا سيحدث - بعد تمهيد الأرض بشكل سريع، وانتظرنا ما سيأتي، سنجد الغذاء في الأرض. لكن هذا ليس صحيحًا بالمرة. من تحامل قليلًا على العلوم – وعدد هؤلاء قليل، لأن الدوائر التي تهتم بالعلوم تزيد يومًا بعد يوم – لعرف بسهولة، ما لم يقم بتسجيل أي ملاحظات خاصة، أن الجزء الرئيسي

من الغذاء الذي يوجد فوق سطح الأرض يأتي من أعلى. ونحن نأخذ بأنفسنا معظم هذا الغذاء بما أننا نتمتع بالمهارة والجشع. أنا بهذا لا أقول شيئًا ضد العلوم، فمن الطبيعي أن الأرض تلد هذا الغذاء. ولو أنها تمنحنا من باطنها بعض الأطعمة وتستدعي الباقي من السماء فلا فرق جوهري في هذا. العلم الذي أكد أنه في كلتي الحالتين يجب أن نمهد الأرض لا يهتم بمثل هذا الفرق. ويُقال: "لو كان في فمك طعام، فقد حللت كل مشاكلك" لكن يبدو لي أن العلم يهتم بهذه الأشياء ولو جزئيًا، وبصورة حفية. لأنه يفرق بين طريقتين في الحصول على الغذاء. الأولى معالجة الأرض ثم العمل التكميلي على شكل طقس، في صورة سحر، ورقص، وغناء. أنا أجد في هذا ازدواجية غير كبيرة، لكنها واضحة تمامًا، وتتناسب مع تصنيفي. إن فلاحة الأرض تؤدي على ما أعتقد إلى الحصول على كلا النوعين من الغذاء. أما السحر، والرقص، والغناء فلا يتعلق بالغذاء القادم من التربة، لكنها طقوس تساعد على استدعاء الغذاء من أعلى. نظريتي هذه تخالف التقاليد. فهى تبدو وكأن الشعب قد عدّل من العلوم دون أن يدري، ودون أن تستطيع العلوم الدفاع عن نفسها. لو أن الطقوس كان من شأنها – كما تريد العلوم – مساعدة الأرض حتى تمنحها مثلًا القوة على اجتذاب الغذاء من أعلى، فيجب أن تتم هذه الطقوس فقط على الأرض بطريقة صحيحة، فتهمس للأرض بكل شيء، وترقص لها وتتدرب. والعلوم على حسب ما أرى لا تريد أكثر من هذا. والآن توجد قضية هامة: يتجه الشعب بكل طقوسه إلى أعلى. وهذا ليس خطأً في حق العلوم. فهى لا تحظر هذا.

فتترك للفلاح الحرية. وطالما استمع الفلاح للتعليمات المتعلقة بالأرض فسوف تكون العلوم راضية. لكن أسلوبها في التفكير يجب أن يتطلب على ما أعتقد أكثر من هذا. وأنا بحكم أنني لم أتعمق في العلوم يومًا ما لا أتخيل على الإطلاق كيف سيتحمل العلماء أن شعبنا يصرخ بتمائمه إلى أعلى بكل حماس. إن أغانينا الشعبية تطلق نواحًا في الفضاء، ويؤدي رقصاته وكأنه يريد أن يصعد إلى الأعالي وينسى الأرض. لقد انطلقت من التأكيد على تلك التناقضات. وبناء على ما أكدته العلوم فكلما اقترب موسم الحصاد أقصر تفكيري فقط على الأرض، أنبش فيها وأنا أرقص، أدير رأسي كي تكون قريبة من الأرض بقدر الإمكان. قمت فيما بعد بعمل حفرة لأنفي، ثم رحت أغني وأنا أعتقد أن الأرض وحدها هى التي تسمعني، وليس شخصًا بجواري أو فوقي.

كانت نتائج البحث بسيطة. كنت أحيانًا لا أحصل على الطعام. لكن عندما كنت أحتفل باكتشاف ما، كان الطعام يأتي. وكأن العمل الذي قمت به أحدث حالة من الارتباك في البداية، لكن أهميته قد ظهرت واستسلموا لصيحاتي وقفزاتي. كان الطعام يأتي غالبًا بوفرة وقبل الموعد. لكن فيما بعد توقفوا تمامًا عن إحضاره. كنت أسجل محاولاتي بكل دقة وبكل المثابرة الغير معهودة التي تتمتع بها صغار الكلاب. كان يهيأ لي من وقت لآخر أنني قد عثرت على خيط ما، لكنه سرعان ما يختفي، ولا يظهر مرة ثانية. كان نقص الاستعداد العلمي يعوقني كثيرًا. لكنني كنت واثقًا من أن السبب في غياب الطعام المنتظر على

سبيل المثال لم يكن تجاربي، بل فلاحة الأرض بطريقة غير علمية. ولو كان هذا هو السبب فمن الصعب تبرير كل النتائج التي أتوصل إليها. كان يمكنني القيام بتجارب دقيقة للغاية في ظروف معينة لو أنني تمكنت بدون فلاحة الأرض أن أحصل على الطعام بواسطة الطقوس الموجهة إلى السماء. وأحصل على غياب الطعام بواسطة الطقوس المخصصة للأرض فقط. قمت بتجربة هذا الأمر، لكن بدون أية عقيدة رئيسية، لكن بواسطة تهيئة ظروف بحثية لا عيب فيها. لأني على قناعة راسخة بأن فلاحة الأرض بطريقة ما هي دائمًا ضرورية. ولو أن الكفرة الذين لا يؤمنون بهذا كانوا على حق فلن يستطيعوا إثبات ذلك، لأن رش الأرض يتم بطريقة ملزمة، وضرورية في حدود معينة. تمكنت من إجراء تجربة مختصرة إلى حد ما، وانتهت بطريقة أفضل، ولفتت الانتباه. فقد قررت في إطار التقاط الطعام من الهواء ألا أترك الطعام يسقط، ولكن لا أمسكه. لهذا كنت في كل مرة يقترب فيها الطعام أقوم بقفزة صغيرة، كانت محسوبة دائمًا كي لا تكفي. وغالبًا ما كان الطعام يسقط بلامبالاة غبية على الأرض، فأنقض عليه مسعورًا، ليس بهياج الجائع، بل بهياج المـُحبط. لكن في حالات معينة كان يحدث شيئ آخر، شيء سحري. لم يكن الطعام يسقط، بل يتابعني وهو في الهواء. الطعام يتتبع الجائع. لم يستمر هذا الأمر طويلًا. كان يتحرك لمسافة صغيرة، ثم يسقط، أو يختفي تمامًا. أو أن شراهتي – وهذا ما حدث غالبًا – كانت تنهي التجربة، وألتهم هذا الشيء. مع ذلك كنت وقتها سعيدًا. ينتشر الضجيج من حولي، ويزداد الهرج والمرج. لقد انتبهوا لما

أقوم به. بدأ معارفي يتقبلون أسئلتي. كنت أرى في عيونهم الرغبة في المساعدة التي تبحث عن الحقد. لكن ربما كان هذا انعكاس نظرتي أنا. لم أتمن شيئًا آخر، وكنت سعيدًا. عرفت بعد ذلك – وعرف الآخرون أيضًا – أن وصف هذه التجربة جاء من قبل في العلوم، وكانت أكثر نجاحًا من تجربتي. صحيح أنها لم تحدث لفترة طويلة نتيجة لصعوبة التحكم في الذات المطلوب لإنجاح التجربة، لكن نظرًا لعدم جدواها العلمية فلم يكن من الضروري تكرارها. فهي تثبت شيئًا معروفًا من قبل، وهو أن الأرض لا تجذب الغذاء القادم من أعلى بشكل عمودي، بل بشكل مائل، وأحيانًا لولبي. أصابني الإحباط مرة أخرى، لكنني لم أفقد الشجاعة. كنت مازلت صغيرًا، بل على العكس، تحمست لأكبر عمل في حياتي. لم أثق في تقليل العلم من شأن تجربتي. فهنا لا فائدة من أية عقيدة، بل المهم هو البرهان. وهذا ما كنت أنوي القيام به. فعرضت تجربتي الارتجاليه نوعًا ما في ضوء العالم، في بؤرة البحث نفسه. أردت أن أثبت أنني لو انحنيت أمام الطعام فلن تقوم الأرض بجذبه نحوي بطريقة عمودية لأنني سأقوم شخصيًا بتوجيهه نحوي. لم أتمكن بالطبع من تطوير هذه التجربة. فلن تتحمل طويلًا أن ترى الطعام أمامك وتتركه لتجري تجارب علمية. أردت أن أفعل شيئًا آخر. أردت أن أصوم – لو تحملت هذا – تمامًا، وأتجنب النظر إلى الطعام، وإلى أي شئ يغريني به. وعندما أترك كل شيء، أظل مستلقيًا وأترك عيني مفتوحة، ليلًا ونهارًا. لن أقوم بجمع الطعام أو الإمساك به - وهو ما لم أتمكن من الالتزام به، لكني تمنيت أن أفعل هذا في نفسي -، وبدون

جميع الإجراءات الأخرى باستثناء الرش اللازم للأرض وترديد التعاويذ والأغاني (أستبعدت الرقص كي لا أضعف) في صمت لن يسقط الطعام من تلقاء نفسه. سيطرق على جسدي ليدخل إليه متجاهلًا الأرض. عندما يحدث هذا ستكون العلوم قد انتفت، لأنها تتمتع بقدر من المرونة لتقبل الاستثناءات والحالات الفردية. لكن ماذا سيقول الشعب الذي لا يتمتع لحسن الحظ بالقدر الكافي من المرونة؟ لن تكون هذه حالة استثنائية من النوع الذي يحدث عبر التاريخ، مثل أن يرفض أحدهم إعداد الطعام نتيجة لمرض عضوي أو نفسي، ويرفض البحث عنه، أو تقبله. وهو الأمر الذي يوحد جنس الكلاب في إجراء التعاويذ، وبذلك يجبر الطعام على أن ينحرف عن طريقه المعتاد، ويسقط في فم المريض مباشرة. لكني على العكس كنت أتمتع بكل الصحة والقوة. كانت شهيتي للطعام كبيرة، فلم أفكر طول الوقت في شئ آخر غير الطعام. لقد أمسكت عن الطعام طوعًا، صدق أو لا تصدق! كنت قادرًا بمفردي على إنزال الطعام، وبالفعل أردت أن أفعل هذا. أيضًا لم أكن في حاجة إلى مساعدة من جنس الكلاب، حتى أنني منعت نفسي من ذلك بكل حسم.

بحثت عن مكان في أحد الأحراش النائية، حيث لا أسمع فيه أي شئ عن الطعام. كفاني عض العظام وشقها. ومرة أخرى أكلت حتى الشبع، ثم تمددت هناك. أردت أن أقضي أكبر وقت ممكن وعيني مغمضتين قبل أن يصل الطعام. ستكون ليلة طويلة، حتى لو استمرت أيام وأسابيع. ومع ذلك لم أنم إلا قليلًا، أو بالأحرى لم أنم على الإطلاق،

لأنني كنت مضطرًا إلى استدعاء الطعام بقراءة التعاويز، والانتباه حتى لا يفوتني مجيء الطعام. من ناحية أخرى كنت في حاجة شديدة إلى النوم. ففي النوم أستطيع أن أجوع لفترة أطول من اليقظة. قررت لهذه الأسباب أن أوزع الوقت بحذر، وأنام كثيرًا، لكن لمدة قصيرة للغاية. تحقق لي ما أردت عندما كنت أضع رأسي دائمًا أثناء النوم على أحد الأغصان الضعيفة التي سرعان ما تنكسر، فتجعلني أستيقظ. وهكذا تمددت، ونمت، أو استيقظت. حلمت، أم رددت بعض الأغاني بهدوء. في البداية لم يحدث أي شيء. يبدو أن المكان الذي يأتي منه الطعام لم يلاحظ بعد أني أترقب الأمور، لذلك ظل الطعام في مكانه. أزعجتني وأنا في محاولاتي الحثيثة مخاوف من أن الكلاب ستلاحظ اختفائي، وستعثر عليّ قريبًا، وسيتخذون إجراء ما ضدي. مخاوف ثانية من أن الأرض قد تنبت عند رشها – رغم أنها كانت كما تقول النظرية أرضًا بورًا - ما يسمي بالغذاء العفوي، وسيغريني برائحته. لكن شيء من هذا لم يحدث حتى الآن، واستطعت مواصلة الجوع. كنت في البداية هادئًا رغم تلك المخاوف إلى درجة لم ألاحظها على نفسي من قبل. ملأتني السكينة رغم أني كنت أعمل على إبطال النظرية العلمية، وسيطر عليّ هدوء نسبي يتميز به كل مشتغل بالعلوم. تخيلت أن العلوم قد صفحت عني، وعثرت فيها على مكان لأبحاثي. ترددت في أذني كلمات طيبة بأنه لو قدر لأبحاثي النجاح، خاصة في ذلك الوقت فلن أضيع في عالم الكلاب. فقد صارت العلوم تقف إلى جانبي. ستقوم بنفسها بشرح نتائج أبحاثي. هذا الوعد يعني تحقيق ما أصبو إليه.

سوف يستقبلوني بكل الاحترام، بعد أن كنت أشعر في قرارة نفسي بأني منبوذ، وبعد أن هاجمت ثوابت وطني بكل غضب. سيلفني دفء أجساد الكلاب المتجمعة. الدفء الذي طالما اشتقت إليه. سيرفعونني عنوة إلى أعلى، وسيحملني شعبي فوق أكتافه. هذه هى أولى النتائج المبهرة للجوع. بدا لي ما أفعله عظيمًا، فانفجرت في البكاء على نفسي وسط تلك الأحراش الهادئة، متأثرًا بانفعالاتي وشعوري بالتعاطف. وكان هذا أمراً غير مفهوم تمامًا. فلو كنت أتطلع إلى مكافأة أستحقها فلماذا إذن البكاء؟ ربما من الشعور بالسعادة. كنت دائمًا عندما أكون في حالة جيدة، وهو ما لم يحدث إلا نادرًا، كنت أبكي. لكنني سرعان ما تجاوزت هذه الحالة. فالصور الجميلة سرعان ما تخبو. اختفت بسرعة عندما اشتد بي الجوع، واختفت كل الأوهام وكل العواطف. وصرت وحيدًا وسط دموع الجوع الذي يدب في أوصالي. رحت أكرر وقتها مرات ومرات: "إنه الجوع!" وكأنني أردت أن اقنع نفسي بأنني والجوع صرنا متلازمين، ويمكنني أن أتخلص منه كما أتخلص من حبيب غير مرغوب فيه. لكننا كنا في الواقع نمثل اتحاد الألم. لو أنني أعلنت أمام نفسي، وقلت: "إنه الجوع"، فمن قال ذلك هو الجوع نفسه. كان يسخر مني. كانت أيام سيئة! سيئة! أشعر بقشعريرة فى ظهري عندما أفكر فيها. ليس فقط بسبب المعاناة التي عشتها في ذلك الوقت، لكن بسبب أن الأمر لم ينته عند هذا الحد. كان عليّ أن أعاني من هذه التجربة كلما أردت أن أحصل على أي شيء. فحتى اليوم أعتبر الجوع آخر وسيلة ناجحة في وسائل أبحاثي. الوسيلة الوحيدة هى الجوع،

يمكن الوصول إلى أقصى الغايات فقط بالعمل الكبير، طالما كان الوصول إليها ممكنًا. هذا العمل الكبير هو الجوع الاختياري. وطالما أنني أتذكر تلك الأيام - وأنا سعيد بأنني أبحث فيها حتى آخر يوم في حياتي - فمازلت أتذكر الأوقات التي أصبت فيها بالهلع. يبدو أن حياتي ستنقضي قبل أن أفيق من هذه المحاولة. يفصلني عن ذلك الجوع عمر كامل، ولم أتعافى بعد. لو امتنعت عن الطعام في المستقبل ستكون إرادتي أقوى من ذي قبل، بفضل الخبرات الكبيرة، والفهم الأفضل لضرورة المحاولة. لكن قواي أضعف مما كانت حينئذٍ. يصيبني الوهن من مجرد انتظار حالات الرعب المعروفة. لا شيء ينفع مع شهيتي الضعيفة للطعام. وهي تضعف من المحاولة إلى حد ما، وتجعلني أجوع لفترة أطول مما كان ضروريًا في ذلك الوقت. أعتقد أن مثل هذه الأمور وغيرها واضحة لي. من المؤكد أنه كانت هناك محاولات أخرى في تلك الفترة الانتقالية الطويلة. تحملت الجوع تقريبًا أكثر من مرة. لكني في المرة الأخيرة لم أقو عليه. وعدائية الشباب كانت مازالت موجود بالطبع. لكنها اختفت وقتها أثناء الجوع. وعانيت من مختلف الأفكار. كان أجدادي يمثلون لي تهديدًا. رغم أني لا يمكنني أن أتحدث عن هذا في العلن، فأنا أحملهم جميعًا مسؤلية ما حدث لحياة الكلاب. كان باستطاعتي أن أواجه تهديداتهم بتهديدات مضادة. لكني أنحني احترامًا أمام معارفهم. إنها معارف جاءت من منابع لا نعرفها. ربما لهذا أيضًا أشعر برغبة قوية في مقاومتها. لا يمكنني أن أتجاوز قوانينهم بشكل مباشر. لكني استغل الثغرات الموجودة في القوانين.

وهى ثغرات أبرع في العثور عليها. سوف أشير إلى الهدف من الجوع من خلال حوار شهير أعرب خلاله أحد حكمائنا عن نيته في تحريم الجوع. عقب عليه حكيم آخر، وقال: "من ذا الذي سيمتنع عن الطعام ومتى؟"، فتشجع الأول وأيد منع الجوع. وهنا ظهر سؤال، يقول: "أوليس الجوع ممنوعًا هنا؟" أجابت الغالبية العظمى من المعلقين بالنفي، واعتبرت أن الجوع مسموح به. كانت قد قاطعت الحكيم الثاني في الكلام، ولم تخف من أن التعليقات الخاطئة قد تكون لها عواقب وخيمة. كنت أعرف كل هذا قبل أن أشرع في الجوع. لكني هنا كنت أهز رأسي، وأنظر وأنا مشوش الحواس الى قدمي الخلفيتين بحثًا عن الحماية. أقوم بلعقها بيأس، وأقرضها، ثم أواصل لعق مؤخرتي. كان تفسيري المبدئي لذلك الحوار أنه مصطنع. كرهت عِلم التعليق، وكرهت نفسي لأنني تركت نفسي أنخدع به. فلطالما تضمن الحوار – هكذا يعتقد كل طفل – أكثر من مجرد قرار واحد بمنع الجوع. الحكيم الأول أرد أن يمنع الجوع. ما يريده أحد الحكماء يجب أن يكون. فتم منع الجوع. وافق الحكيم الثاني على هذا لأنه اعتبر أن الجوع أمراً مستحيل. فانضم إلى مؤيدي المنع حكيم آخر. فكان المنع، هذه هى طبيعة الكلاب. أيده الحكيم الأول، وأصدر قرار المنع. وهذا يعني منع الكلاب من استيضاح الأمر حتى يتدبروه. فمنعوا بدورهم الجوع. منع مضاعف ثلاث مرات بدلًا من مرة واحدة. وأنا خالفته. ليتني أستطيع الآن بعد أن فات الأوان أن أنصاع للأوامر وأتوقف عن الجوع! لكن إغراء الجوع تغلغل إلى آلامي، وتابعته بنهم وكأنني أطارد كلبًا مجهولًا. لم

أستطع التوقف، ربما أنني كنت ضعيفًا إلى درجة تمنعني من النهوض، والبحث عن قوت يومي في الأقطار المأهولة. كنت أتمرغ من جانب إلى جانب آخر فوق أوراق الشجر المدببة، لكني لم أتمكن من النوم. كنت أسمع ضجيجًا قادمًا من كل اتجاه، أسمع العالم الذي كان نائمًا خلال حياتي وقتها. وكأنه شعر بجوعي. سيطرت عليّ فكرة أني لن أستطيع التهام الطعام بعد اليوم. فلو فعلت فسأكون مضطرًا إلى إسكات العالم الذي انتشر ضجيجه، ولن أستطيع. سمعت هذا الضجيج الكبير قادمًا بالطبع من معدتي. كنت كثيرًا ما أضع أذني فوق معدتي، وأنا أحملق بعيني هلعًا. لم أكن قادرًا على تصديق ما أسمعه. كان الوضع سيء للغاية، وبدا وكأن الدوار يتملكني، ويجعلني أقوم بمحاولات عبثية لأنقذ نفسي. بدأت أشعر بالطعام، طعام مختار لم آكله منذ زمن طويل. إنها أنماط عالم الطفولة. شعرت حتى برائحة ثديي أمي. نسيت أني أريد أن أقاوم الروائح، أو بمعنى أدق، لم أنس الروائح. فيبدو أن النية في مقاومتها كانت ترتبط بنية أخرى. رحت أزحف هنا وهناك. فقط لبضع خطوات في كل مرة. رحت أشم الرائحة وكأنني أردت أن أصل إلى الطعام فقط لكي أحمي نفسي منه. لم يحبطني أني لم أعثر على شيء. إن هذه الأطعمة كانت موجودة هناك. لكنها كانت في كل مرة على بعد عدة خطوات مني، بعيدة جدًا. انهارت أقدامي قبل أن أصل إليها. كنت أعرف في الوقت نفسه أنني لم أفعل شيئًا. كل ما فعلته هو حركات بسيطة بسبب الخوف من الانهيار الأخير في المكان الذي لن أبرحه. اختفت آخر الآمال، آخر الفتن. سألقي حتفي هنا وحيدًا. ما

فائدة كل أبحاثي، الأبحاث الطفولية من أيام الطفولة السعيدة. الأمور الآن وهنا تصل إلى منتهاها. إن الأبحاث يجب أن تثبت جدواها. فأين هى؟ لم يكن هنا سوى كلب ينظر بيأس إلى الخواء. كلب يهرول متشنجًا، ويرش الأرض بلا توقف وبدون قصد. لكنه لم يستطيع أن يجد في ذاكرته المرتبكة من فوضى التعاويز أي شيء، ولا حتى بيت شعري صغير تقوله الكلاب الوليدة وهى تزحف نحو ثدي أمهاتهم. شعرت وكأنه لا تفصلني عن أشقائي مجرد خطوات قليلة، لكن شعرت أني بعيدًا جدًا عن الجميع، وكأن من سيقتلني ليس الجوع، بل الوحدة. كان واضحًا أن أحداً لا يهتم لأمري، لا أحد تحت الأرض، ولا أحد فوق الأرض، ولا أحد في السماء. سأموت بسبب إهمالهم لي. يقول لهم إهمالهم: إنه يموت – وهذا ما سوف يحدث. وهل أعترض على هذا؟ ألم أقل بنفسي نفس الكلام؟ ألم أختر بنفسي الوحدة؟ بالتأكيد أيتها الكلاب! لكن ليس لأن حياتي هنا بهذه الطريقة. لكن لكي أصل إلى الحقيقة في هذا العالم الكاذب، حيث لا تجد أحدًا يمكنك أن تعرف منه الحقيقة. ولا حتى مني أنا، مواطن الكذب الفطري. ربما إن الحقيقة ليست بعيدة إلى هذه الدرجة، وأنني لست منبوذًا كما أعتقد. فلم يهجرني رفقائي، بل أنا من هجرهم. أنا من فشل، وأنا من يموت.

لكن الموت لا يكون سريعًا هكذا كما يعتقد الكلب المتململ. كل ما حدث هو أنني فقدت وعيي، وعندما انتبهت وفتحت عيني وجدت كلبًا غريبًا يقف أمامي. لم أشعر بالجوع على الإطلاق. كنت قويًا للغاية،

ومفاصل جسمي مرنة كما تخيلتها، رغم أني لم أحاول تجربتها، وأنهض لأقف عليها. في الواقع لم أر شيئًا مختلفًا عما كان من قبل. مجرد كلب غريب يقف أمامي، لا أكثر ولا أقل. رغم ذلك خيل لي أنني أراه أفضل من أية مرة سابقة. كان هناك دم أسفل جسدي. اعتقدت من الوهلة الأولى أنه طعام، لكنني سرعان ما لاحظت أنه دم تقيأته. أدرت وجهي بعيدًا عن ذلك الكلب الغريب. كان كلبًا نحيفًا، سيقانه طويلة، ولونه بني، مخضب ببقع بيضاء. كان جميل الطلعة، قويًا، ثاقب البصر. قال: "ماذا تفعل هنا؟ يجب أن تنصرف" قلت له: "لا أستطيع الانصراف الآن"، ولم أضف على ذلك. كيف لي أن أشرح له كل شيء وهو يبدو لي في عجلة من أمره. قلت بقلق وأنا أرفع قدمًا بعد الأخرى: "انصرف من فضلك، اتركني. اذهب، ولا تهتم لأمري، فالآخرون لا يهمهم أيضًا أمري" قال: "أرجوك، هذا لصالحك" قلت: "ارجني كما تشاء، فأنا لا يمكنني الإنصراف حتى وإن أردت" قال وهو يبتسم: "ليس هذا هو المهم. يمكنك الإنصراف لأنك تبدو ضعيفًا. أرجوك أن تنصرف بهدوء. ولو ترددت، فستضطر لاحقًا أن تهرب" قلت: "إنه أمر يخصني" قال وهو حزين من عنادي: "ويخصني أيضًا". يبدو أنه أراد أن يتركني هنا مؤقتًا، ويستغل الفرصة لينضم إليّ كنوع من التعاطف. في ظروف غير هذه كنت لأقبل الحديث مع كلب جميل مثله، لكن هذه المرة – لم أفهم ما يحدث – تملكني الرعب. صرخت فيه بكل قوتي: "انصرف !"، لم تكن لدي وسيلة أخرى للدفاع سوى صوتي. قال وهو يتراجع على مهل: "سأنصرف. أنت كلب غريب،

هل شكلي لا يعجبك" قلت له: "سيعجبني أكثر لو انصرفت وتركتني" لكنني رغم ذلك لم أكن واثقًا من رغبتي في الحديث معه. شئ ما لاحظته عليه، أو سمعته من خلال جوعي وحواسي المستنفرة. كان مازال في البدايات، وراح ينمو ويقترب، فاتضح لي الأمر. هذا الكلب مُكلّف بأن يجعلك تنصرف، رغم أنك لا تعرف كيف ستستطيع النهوض. لقد هز رأسه فقط عندما سمع إجابتي القاسية، وأنا أنظر إليه بمزيد من الحماس. سألته: "من أنت؟" قال: "أنا صائد" سألته: "لماذا لا تريد أن تتركني هنا؟" قال: "لأن وجودك هنا يزعجني. ولا أستطيع الصيد وأنت هنا. قلت له: "حاول مرة أخرى، ربما تستطيع الصيد. قال: "لا، أنا آسف، لكنك لا بد أن تنصرف" قلت له راجيًا: "دعك من الصيد اليوم!" قال: "لا، أنا مضطر أن أصطاد" قلت: "أنا مضطر أن أنصرف، وأنت مضطر أن تصطاد. نفس كلمة مضطر. أتفهم، لماذا نحن مضطرون؟" قال: "لا، لا شيء في هذا يحتاج إلى فهم. إنها أمور بديهية، أشياء طبيعية" قلت: "لا، ليست كذلك، أنت تأسف لأنك مضطر إلى طردي من هنا، وتفعل ذلك" قال: "هو كذلك بالفعل" كررت ما قاله بغضب: "هو كذلك بالفعل! هذه ليست إجابة. ما هو الأسهل بالنسبة لك؛ أن تكف عن الصيد، أم تصرفني من هنا؟" قال بلا تردد: "أن أتوقف عن الصيد" قلت له: "أترى، هناك تناقض واضح في موقفك" قال: "أي تناقض؟ أنت يا عزيزي، أيها الكلب الصغير، ألا تفهم أني مضطر إلى هذا؟ ألا تفهم الأمور البديهية؟" لم أرد عليه لأني لاحظت – وأنا أشعر بأن حياة جديدة تسري في كياني،

حياة ناجمة عن الرعب – لاحظت بناء على تفاصيل لا يمكن وصفها، تفاصيل خارجة عني ولا يمكن لأحد أن يراها أن هذا الكلب في أعماق أعماقه قد استعد للغناء. قلت له: "أنت سوف تغني" قال بكل جدية: "نعم، سأغني قريبًا، لكن ليس الآن" قلت: "ها أنت قد بدأت" قال: "كلا" قلت بهياب: "لم تبدأ بعد، لكن استعد. ها أنا أسمع الغناء رغم أنك تنفيه" ألتزم الصمت. شعرت وقتها أني أعرف شيئًا لم يعرفه كلب قبلي، على الأقل لم تنقل لنا الحكايات شيئًا كهذا. غمست وجهي بسرعة في بركة الدم التي أمامي وأنا أشعر بضيق وخجل لا نهاية لهما. شعرت أني أعرف أن هذا الكلب قد بدأ الغناء دون أن يعرف بذلك هو نفسه. والأكثر من هذا أن الموسيقى الصادرة منه تنطلق – بناء على قوانيني الخاصة – إلى الفضاء، وتتطاير بعيدًا عنه، وكأنها ليست منه، بل مني أنا، وتتجه نحوي أنا. لكني اليوم أرفض هذا النوع من المعلومات، وأُرجعها إلى حدة طبعي في ذلك الوقت. ورغم أن هذا كان وهمًا، لكنه انطوى على نوع من الفخامة. إنها الحقيقة الوحيدة التي استطعت حمايتها لهذا العالم من أيام الجوع. تشير على الأقل إلاَمَ سينتهي بنا المطاف عندما نكون خارج أجسادنا تمامًا. وكنت بالفعل وقتها خارج جسدي تمامًا. ففي الظروف العادية كان من المفترض أن أكون مريضًا بشدة، عاجزًا عن الحركة. لكني لم أقاوم الموسيقى التي اعتبرها الكلب على ما يبدو خاصة به. كانت تزداد قوة. صارت تعلو بلا حدود، حتى كادت أذني تنفجر. أسوأ ما في الأمر أني تخيلت أنه جاء هنا من أجلي – هذا الصوت الذي صمتت الغابة أمام عظمته – من أجلي

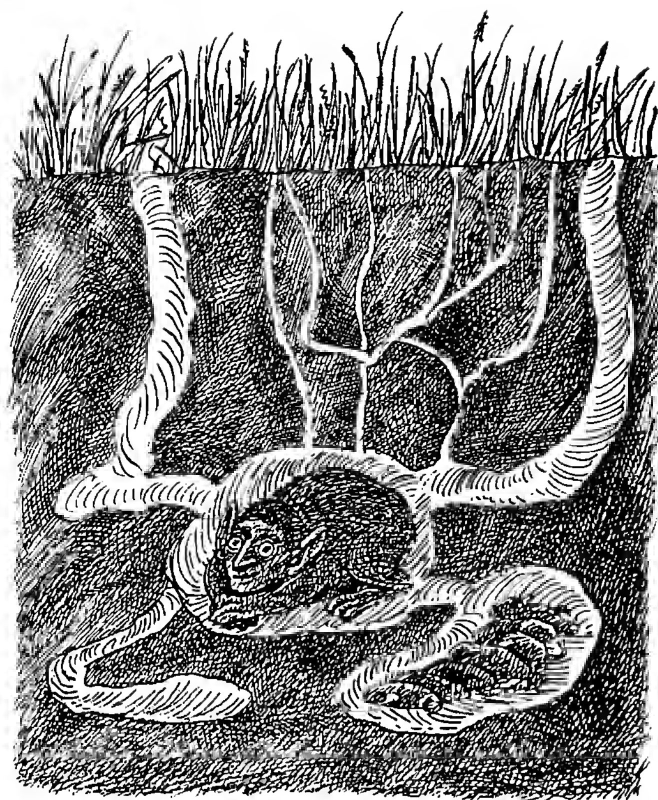
فقط. مَن أنا حتى أتجرأ وأصر على البقاء هنا، وأنشر أمامه قذارتي ودمي؟ هممت من مكاني مرتعشًا، ونظرت إلى نفسي، وقلت: كائن كهذا لا يمكنه أن يجري. لكن الموسيقى جعلتني أطير وأقفز أروع القفزات. لم أحكي لأصدقائي عما حدث. كان طبيعيًا أن أحكي عن كل شيء بعد عودتي مباشرة. لكنني كنت ضعيفًا للغاية، ورأيت فيما بعد أن ما حدث أمر لا يمكن الحديث عنه. واختفت الإشارات التي لم أستطع كتمانها في ثنايا الحوار. تحسنت حالتي الجسدية بعد عدة ساعات. لكن العواقب النفسية مازلت أعاني منها حتى اليوم.

وسّعت أبحاثي لتطال موسيقى الكلاب التي لم تغفلها العلوم أيضًا. إن علوم الموسيقى – على حد علمي- أكثر اتساعًا من علوم التغذية، وتتمتع بأسس قوية بكل تأكيد. يمكن تفسير هذا بأنه يجب العمل في هذا المجال بعاطفة أقل من غيرها. فالأمر يتعلق بمجرد المتابعة والتعقل، في حين أنه في الحالات الأخرى يتعلق بالنتائج العملية. يرتبط بهذا احترام علم الموسيقى على نحو أكبر من علم التغذية. فالعلم الأول لا يمكنه أن يتغلغل في الشعب بالعمق الذي عليه العلم الثاني. كانت علاقتي بعلم الموسيقى أبعد من علاقتي بغيره من العلوم إلى أن سمعت ذلك الصوت في الغابة. صحيح أنها استدعت تجربتي مع الكلاب الموسيقية، لكني كنت وقتها مازلت صغيرًا للغاية. كذلك ليس من السهل الاقتراب من هذا العلم. فهو يُعد علمًا صعبًا، وعصي على عامة الشعب. أيضًا رغم أن الموسيقى كانت بالنسبة للكلاب في ذلك الوقت من

الأمور الهامة، لكن الأهم منها هى طبيعتهم الصامتة. لم أجد مثيلًا لموسيقاهم المخيفة في أي مكان آخر. فانصرفت عنها، وصرت منذ ذلك الوقت أرى طبيعتهم تلك في جميع الكلاب وفي كل مكان. عندما كنت أريد أن أتعمق في طبيعة الكلاب كنت أرى أن أبحاث الغذاء أهم، وأنها تحقق هدفًا ما بشكل واضح. ربما كنت مخطئًا في هذا. إن تجاور كلا العِلمين إستنفز على ما يبدو طبيعتي المتشككة وقتها. إنه علم حول الغناء الذي يستدعي الطعام من أعلى. ومن جديد صار عدم اهتمامى الجاد بعلم الموسيقى يمثل عائقًا كبيرًا. فلا أستطيع من هذا المنطلق أن أحسب نفسي حتى على أنصاف المتعلمين، الذين احتقرهم العلم دائمًا. يجب أن أتذكر هذا دائمًا. سيكون من الصعب للغاية أن أتبارى مع أي طالب علم في أسهل امتحان علمي. ولدي للأسف دلائل على هذا. السبب في ذلك يعود، بغض النظر عن ظروف الحياة التي تحدثت عنها، إلى عدم كفاءتى العلمية، وقدراتي الضعيفة على التفكير، وسوء ذاكرتي، وفوق كل ذلك عدم قدرتي طول الوقت على أن أضع نصب عيني هدفًا علميًا. أعترف أمام نفسي بكل هذا وبمنتهى الصراحة، وبكل سعادة أيضًا. أعتقد أن السبب الدفين في عدم كفائتي العلمية هو غريزة ما. الواقع أنها غريزة ليست سيئة تمامًا. يمكنني من باب التفاخر أن أقول أن هذه الغريزة قد دمرت قدراتى العلمية. ومع أنني أثبتّ في أمور الحياة العادية التي ليست بسيطة إلى هذه الدرجة مقدارًا مقبولًا من التعقل، وخاصة أنني فهمت العالم بصورة جيدة جدًا، وليس العلم. وهو ما يمكن التأكد منه من خلال نتائج أبحاثي، قد يكون من المثير

للعجب – على أقل تقدير – أنني وقتها لم أكن قادرًا على أن أضع قدمي على أولى درجات العلم على الأقل. كانت هذه هى الغريزة التي منحتني مزيدًا من الاحترام للحرية أكثر من أي شيء آخر، ربما لصالح العلم، لكن علم آخر غير العلم الذي يدرسونه اليوم، أو لصالح أتفه العلوم. الحرية! بالطبع، إنها الحرية التي ربما تكون اليوم عشبًا ذابلًا. لكنها مع ذلك تظل حرية، تظل نوعًا من المتاع.

العرين[1]



[1] كتبها في عامي 1923 -1924

بنيت عرينًا. وأظن أنه عرينٌ جيد. به من الخارج فتحة لا تؤدي في الواقع إلى أي شيء، وتصطدم على بعد خطوات بصخرةٍ طبيعيةٍ صلبة. لا أنوي ادعاء الفخر بأني قمت بهذه الحيلة عن عمد. فما هي سوى بقايا إحدى المحاولات العديدة الفاشلة في البناء. اعتقدت وقتها أنه من المناسب أن أترك تلك الفتحة، ولا أردمها. فمن المؤكد أن بعض الحيل تكون ماهرة إلى درجة أنها تدمر نفسها بنفسها. أعرف جيدًا هذا الأمر أكثر من غيري. هذه الفتحة أيضًا يمكنها أن تنبه شخصًا ما إلى أن هناك ما يستحق الملاحظة. لكن لا يعرفني من يعتقد أني جبان، وأني قد صنعت العرين بسبب جبني هذا. على بعد نحو ألف خطوة من هذا العرين يوجد مدخل مكسو بطبقة من الطحالب سهلة الإزالة. إنه عرين محصن بأفضل طرق التحصين. يمكن أن يحدث، وهذا أمر وارد، أن يدوس أحدهم على هذه الطحالب بقدميه، أو يتعثر فيها، وعندها يصبح الطريق إلى داخل العرين مفتوحًا. يمكن لكل من أراد – فقط أُنبّه أنه لا يحتاج إلى قوة غير عادية – أن يدخل العرين، ويدمر كل شيء هناك، وإلى الأبد. أعرف هذا الأمر جيدًا، لكنني لم أعرف وأنا في قمة عنفواني ساعة واحدة من الراحة. هناك في مكان ما، وسط الطحلب الداكن تجدني جريحًا إلى درجة لا تُوصف. يطاردني في أحلامي على الدوام حيوان نَهِم. ربما يقول أحدهم أن في استطاعتي أن أغلق فتحة الدخول هذه، وأضع فيها طبقة خفيفة من الطين، ثم أضع طبقة أخرى أكثر صلابة وأدكها فيها. هكذا أستطيع أن أؤمن خروجي من العرين دون مشقة كبيرة. حتى هذه الطريقة مستحيلة، فالحذر يتطلب أن أجد

طريقة سريعة للخروج. فالحذر - كما هو الحال غالبًا للأسف يتطلب أن تغامر بحياتك. إنها حسابات معقدة، وغالبًا ما تكون سعادة الإنسان من دهائه الشخصي هى السبب الوحيد الذي يجعلنا نواصل عمل الحسابات. يجب أن أوفر إمكانية للخروج الفوري، لكن أليس ممكنًا رغم كل هذا الحرص أن أكون عرضة لهجوم مباغت؟ أنا أعيش في هدوء في أعمق أعماق بيتي، لكن عدوٌّ لي يتسلل إليّ بهدوء وعلى مهل. أنا لا أدعي أنه أكثر دهاءً مني، بل ربما يعرف عني أقل مما أعرف أنا عنه. لكن هناك لصوص متحمسون، ينبشون الأرض بلا وعي. ونظرًا للمساحة الشاسعة للعرين سيراودهم الأمل هم أيضًا في أن يعثروا على ممر من ممرات عريني. أتمتع بالطبع بميزة أني في بيتي، وأني أعرف جميع الطرق والإتجاهات. يمكن أن يسقط اللص بمنتهى السهولة فريسة في يدي، ويصبح لقمة صائغة لي. لكن العمر تقدم بي، وهناك من هو أكثر مني قوة، وأعدائي كثر. من الممكن أن أهرب من أحد أعدائي، وأنقض على آخر. يا إلهي! كل شيء ممكن. في كل محاولة هجوم يجب أن أتحقق من أن المدخل مفتوح أو يسهل الوصول إليه، حتى لا أضطر إلى الإجتهاد حتى أخرج من العرين. لن أضطر إلى الحفر العبثي، حتى ولو كان السد الترابي بسيطًا، وأقع - لا قدر الله - في براثن من يلاحقني. ليس فقط العدو الخارجي هو من يهددني. فالأعداء موجودون في داخل البلاد. لم أرهم بعد، لكن الحكايات عنهم منتشره، وأنا أصدقها تمامًا. إنهم كائنات متواجدة داخل البلاد، لكن الحكايات المعروفة عنهم لا يمكنها رسم صورة لهم. كل من وقع

ضحية لهم لم يتحقق من رؤيتهم. سيأتون. فأنا أسمع وقع أقدامهم تحت أقدامي، في الأرض التي تضمهم، وصرنا جميعًا في مأذق. فهنا لا يجوز القول بأننا نعيش في بيتنا، بل نحن على العكس نقيم في بيتهم. ولن يحميني منهم ذلك المخرج، لن يحميني منهم، بل سيكون سببًا في موتي، لكن مازال لدي أمل فيه، فبدونه لا يمكنني أن أعيش. وفضلا عن هذا الممر الكبير فمازال يربطني بالعالم الخارجي ممرات أخرى ضيقة للغاية وخطيرة، لكنها تؤمن لي الهواء الذي أتنفسه. هذه الممرات بنتها جرذان الغابة. وكل مافعلْته هو أنني ألحقتها بالعمل في بناء العرين. فهى تؤمن لي استطلاع الأمور عن بعد، وتوفر لي الحماية. وأيضًا تحضر لي بعض الطعام الذي أقتاته، فأتمكن من القيام ببعض الأمور مثل صيد ما يكفيني لسد رمقي دون أن أغادر العرين، وهذا أمر شديد الأهمية.

أكثر ما يميز العرين هو الهدوء. وهو بالطبع هدوء خادع. يمكن أن يعكر صفوه أحدهم فجأة وينتهي كل شيء. لكن الهدوء على أي حال مازال سائدًا. أستطيع أن أتسلل إلى كل تجاويف العرين عبر ممراته، فلا أسمع سوى حفيف حيوان ما صغير يظهر من وقت لآخر. وسرعان ما ينتهي هذا الحيوان بين أسناني، أو أسمع صوت هبوط في أرضية العرين، وهو ما يستدعي إجراء الترميمات اللازمة، باستثناء ذلك فإن الهدوء يسود العرين. يهب عليه هواء فاتر وبارد قادم من الغابة. أحيانًا أتمدد في إحدى الطرقات، وأتقلب في سعادة. شيء جميل أن تستقبل شيخوختك في هذا العرين، وأن تلقي خريف العمر في هذا

الملجأ. حفرت في كل مئة متر تجاويف مستديرة صغيرة في ممرات العرين، أتقوقع فيها بسعادة، أدفيء جسدي وأستجم. يغشاني فيها نوم معسول هاديء، وأنا سعيد بما حققت، وبلوغي هدفي بامتلاك بيت. لا أعرف إن كانت هذه عادة من الماضي المنصرم، أم أن المخاطر المحيطة بهذا المنزل كانت عظيمة. أفزع من وقت لآخر من نوم عميق، وأرهف أذني وسط الهدوء الذي يسود العرين ليلًا ونهارًا. ثم أبتسم في هدوء، وأسلم نفسي بعدها لنوم أكثر عمقًا. يا لهم من تعساء عابرو السبيل المشردون المنتشرون في الطرق والغابات. إنهم في أفضل الأحوال يلتحفون أوراق الأشجار، أو يتقوقعون حول أقرانهم، ومعرضون لكل أنواع المخاطر في الأرض والسماء! أما أنا، فأنام هنا في مكان آمن من كل جوانبه – ومثل هذه الأماكن المؤمنة في عريني هذا يتجاوز عددها الخمسين – وبين الغفاء والنوم تمر الساعات التي أختارها للنوم وقتما أشاء.

يوجد مكان رئيسي في العرين اخترته بعناية، وأستخدمه في حالة الخطر وليس الملاحقة، بل في حالة محاصرة العرين. يقع هذا المكان قريبًا من منتصفه. هذا العرين هو نتيجة عمل بدني شاق، استخدمت فيه كل أعضاء جسدي. أما الأمور الأخرى فهي مجرد مجهود ذهني لا أكثر. كثيرًا ما يصيبني اليأس نتيجة الإجهاد، وأريد أن أترك كل شيء، وأسقط على ظهري ألعن العرين، وأغادره، وأتركه مفتوحًا. كان في استطاعتي أن أفعل هذا، لأنني لم أكن أرغب في العودة. لكن بعد ساعات وأيام أعود مرة أخرى تائبًا، أكاد أرفع صوتي حمدًا على سلامة

العرين، ثم أواصل العمل فيه بسعادة غامرة. كان العمل في فناء العرين يبدو صعبًا بصورة عبثية (العبثية هنا تعني أن العرين لم يحصل على عائد مباشر من عملي هذا). فالمكان المخصص حسب الخطة لبناء الفناء كان سهلًا ورمليًا، وكانت الأرض وكأن أحدهم سواها بمطرقة، فتكون مكان مستدير مقنطر بشكل رائع. لم يكن لدي لمثل هذا العمل سوى جبيني. فرحت أخبط بجبيني على الأرض آلاف المرات، ليلًا ونهارًا. كنت أسعد كلما نزف الدم من جبيني، فكان هذا دليلًا على أن الأرض بدأت تشتد صلابة، وهكذا – كما اعترف لي الجميع بذلك – صرت مستحقًا لهذا الفناء. أحفظ فيه المؤن، وكل ما أصطاده داخل العرين. أحفظ هنا كل ما يفيض عن حاجتي وكل ما أصطاده من خارج بيتي هذا. الفناء كبير جدًا، لا يملؤه ولا حتى خزين نصف عام كامل. أستطيع هنا أن أبسط خزائني وأمر بينها، أعبث بها، أسعد بها وبكميتها وبروائحها المختلفة، وأصنع لنفسي قائمة تفصيلية بما أمتلكه في هذا البيت. وأستطيع في أي وقت أن أعيد تسوية كل شيء هنا، وأجري إحصاءات حسب فصول السنة، وخطة صيد مستقبلية. فهناك أوقات تكون فيها خزائني ممتلئة، ولا أفكر في الطعام على الإطلاق، فلا أمد يدي على أى حيوان يتجول حولي هنا، وهو سلوك من ناحية أخرى يفتقد إلى الحيطة. أهتم كثيرًا بالإستعدادات الدفاعية، والنتيجة أن آرائي حول أغراض استخدام هذا العرين تتغير أو أقوم بتعديلها، في إطار محدد بالطبع. أحيانًا أرى أنه من الخطر تأمين الدفاع عن العرين في فناءه فقط. فالتنوع الموجود بالعرين يقدم لي إمكانات كثيرة. وأعتقد أنه من

باب الحرص قد يكون من الأفضل أن أقسم المؤن، وأضعها في أماكن أصغر، ثم أحدد مثلًا مكانًا من بين كل ثلاثة مخازن ليكون رصيدًا احتياطيًا، أو أخصص مكانًا من بين كل أربعة ليكون مخزنًا رئيسيًا، ومن بين كل مكانين يكون أحدهما مخزنًا مؤقتًا، وهكذا. أستثني بعض ممرات العرين من التخزين بغرض خداع العدو، أو أختار عدة أماكن صغيرة حسب موقعها من المدخل الرئيسي. تتطلب خطة جديدة كهذه الكثير من العمل الشاق في الرفع والنقل. فيجب أن أعيد حساباتي في كل شيء، ثم أنقل المخزون هنا وهناك. أستطيع بالطبع أن أفعل كل هذا بهدوء وعلى مهل، ولن يكون سيئًا أن أمسك الأشياء الجيدة من المؤن بين أسناني، ثم أستريح وقتما أشاء، أتذوق كل ما أريده.

الأسوأ هو عندما أفكر فجأة – وهذا يحدث غالبًا عندما أستيقظ فجأة من نومي – في أن التوزيع الحالي به بعض الأخطاء، وقد يسبب خطرًا واضحًا، وأن عليّ أن أصححه، بغض النظر عن حالة النعاس، والإرهاق الذي أعاني منه. وعلى الفور أنهض وأهرول، أبحث عن حساباتي، ومن أجل وضع خطة جديدة أكثر دقة، ألتقط بصورة عشوائية كل ما يقابلني، وأضعه بين أسناني، وأحمله وأنا أتنفس الصعداء تعبًا، وألهث وأتساقط من الإعياء، حتى أطمأن لأي تغيير عشوائي فى الحالة القائمة التي أراها شديدة الخطورة. ثم ينجلي الشك وأنا غارق في عرقي، فلا أكاد أفهم سبب هذه الهرولة، أستنشق بعمق رائحة السَّكينة التي تلف بيتي، والذي قمت بتعكير صفوه، فأعود إلى

جُحري، فيغلبني النعاس على الفور من كثرة الإرهاق. وعندما أستيقظ أجد فأرًا مازال عالقًا بين أسناني، ليكون دليلًا دامغًا على ما قمت به من أعمال أثناء الليل، أتذكرها وكأنها حلم. هناك أوقات أرى فيها أن أفضل ما يمكن عمله على الإطلاق هو تجميع كل المؤن في مكان واحد. فما هو الغرض من وضعها في كل تلك الأماكن الصغيرة التي لا تتسع للكثير من المؤن، وكل ما أنقله إليها يعرقل الطريق، وسوف تكون عائقًا أمامي يومًا عندما أدافع عن العرين، أو أضطر للهرب. ربما يكون أمراً غبيًا، لكنها الحقيقة؛ إن ثقتي بنفسي تتأثر لو لم أر كل مؤني مجتمعة في مكان واحد، لو لم ألق نظرة واحدة على كل ما أملكه. ألا يمكن أن يختفي الكثير من المؤن أثناء هذا التوزيع الكبير؟ لا يمكن أن أمر عليها هنا وهناك بشكل منتظم، وأدور في كل الممرات لأتأكد من أن كل شيء في مكانه الصحيح. إن الفكرة الأساسية من عملية توزيع المؤن صحيحة، فقط عندما يكون لدي المزيد من تلك الأماكن، مثل فناء عريني هذا. المزيد منها! بالطبع! لكن من في استطاعته القيام بأمر كهذا؟ فلن أستطيع الآن أن أجد لها مكانًا في خريطة العرين. أعترف أن هذه هي إحدى عيوب العرين، وهو ظهور عيب ما كل يوم في الأماكن التي لا يوجد لها مثيل بالعرين. كما أعترف لكم بأن خطة بناء العرين عنت لي بصورةٍ غير واضحة-ربما كانت أكثر وضوحًا لو كان لدي المزيد من الإرادة - فكرة وجود المزيد من الأفنية بالعرين، لكنني لم أهتم بالفكرة، وشعرت وقتها بالضعف الشديد أمام مهمة شاقة كهذه. نعم، شعرت بالضعف أمام ضرورة عمل كهذا. رحت أُمنّي نفسي بمشاعر أكثر

وضوحًا: أن ما لايكفي في بعض الحالات سيفي في حالتي بالغرض بشكل استثنائي، من باب الرأفة، لأن حسن الإدارة يتطلب الحفاظ على جبهتي، هذه المطرقة. لكن ليس لدي الآن سوى فناء واحد. اختفت المشاعر الغامضة بأن هذا الفناء الواحد يومًا ما سيصير غير كاف. أيًا كان الأمر، لابد أن أقتنع بشيء واحد، وهو أن الأماكن الصغيرة لن تكون بديلًا عن الأفنية الكبيرة. عندما تنضج هذه الفكرة في داخلي، سأشرع في من جديد في نقل كل مخزوني من تلك الأماكن الصغيرة إلى الفناء الكبير. سيسعدني لفترة قادمة أن عندي أماكن كثيرة وطرقات فارغة، وأني أرى أكوام اللحوم الكثيرة متجمعة في الفناء، تنشر روائحها المختلفة إلى أقصى ممرات العرين. كل ممر من ممراته يبث إليّ رائحته على طريقته الخاصة، فأستطيع تمييزها عن بعد. عادة ما تحين أوقات من الهدوء الخاص والسلام، عندما أقوم بنقل عريني على مهل وبالتدريج من الدوائر الخارجية إلى الداخل، ثم أغوص في الروائح حتى تصير غير محتملة. وذات ليلة أهرول إلى الفناء، وأنقض على المؤن، وأدس في فمي بشكل مذهل أفضل ما أشتهيه. أوقات سعيدة، وخطيرة أيضًا؛ فكل من يستطيع استغلالها، بإمكانه أن يدمرني بسهولة دون أن يغامر بأي شيء. إن عدم وجود فناء ثاني أو ثالث يعتبر خسارة كبيرة، إن هذا التراكم الكبير والغريب لكل شيء يزعجني. أحاول السيطرة عليه بطريقة أو بأخرى، فتوزيع المؤن في الأماكن الصغيرة واحد من تلك الإجراءات. لكن للأسف يؤدي هذا – كما هو الحال في كل الإجراءات المماثلة – إلى حدوث فاقد، وإلى مزيد من الشراهة التي

تسيطر على العقل، وتغير بشكل عشوائي من الخطط الدفاعية بغرض تحقيق أهداف تلك الإجراءات.

حتي أظل في الموضوع، فبعد تلك الأوقات أبدأ في مراجعة شؤون العرين. غالبًا ما أغادره عندما أقوم ببعض الإصلاحات الضرورية، لكن لفترات وجيزة. تبدو لي العقوبة المتمثلة في مغادرة العرين لفترة طويلة قاسية إلى حد كبير. لكنني أعترف بضرورة القيام برحلات من وقت لآخر. عندما أقترب من مدخل العرين تكون لحظة تاريخية. ففي أوقات الحياة العادية داخل العرين أتجنب الإقتراب من المدخل، ولا أقترب من مرتفعات الممر المؤدي اليه. فليس سهلًا الذهاب إلى هناك، فقد صنعت متاهة صغيرة من الممرات، ومنها يبدأ العرين. لم أكن حتى أحلم عندما شرعت في بناءه بأني سأنهيه بناءً على الخطط التي وضعتها له. فقد بدأت البناء في هذه الناحية بدون مجهود كبير، واحتفلت بعملي وأنا أراه يتحول إلى متاهة، اعتبرتها في ذلك الوقت قمة الإبداع المعماري، لكنني اليوم لا أرى فيه سوى بناء تافه وحقير. ربما يكون رائعًا من الناحية النظرية – قلت لنفسي وقتها ساخرًا: إن هذا هو مدخل بيتي، وأنا أخاطب عدوًا خفيًا أراه مسحوقًا عند متاهة الدخول، في الحقيقة هو ألعوبة ذات حوائط رقيقة لا تكاد تتحمل هجومًا كبيرًا من عدو يحارب بيأس من أجل البقاء. هل يجب أن أعيد بناء هذا الجزء من العرين؟ أجلت إتخاذ القرار، وغالبًا سيبقى كما هو. بغض النظر عن العمل الشاق الذي سأضعه على كاهلي، فهذا العمل شديد الخطورة، أخطر مما

يمكن تصوره. عندما شرعت في بناء العرين كان العمل هادئًا نسبيًا، فلم يكن هناك أي نوع من المخاطر غير المعتادة في أماكن أخرى، اليوم قد يبدو الأمر وكأنك تريد أن تخبر العالم كله عن كل عرين. اليوم صار الأمر صعبًا. وهذا أمر يسعدني، فأنا أنمي في نفسي شعور بالبدائية. أي مخطط للمدخل يمكنه أن يحميني لو حدث أي هجوم كبير؟ المدخل يمكنه أن يربك المهاجم، ويصرفه عني، ويسبب له معاناة، وهذه في أسوأ الأحوال مهمة يمكنه القيام بها. لكن بالفعل يجب أن أجابه أي هجوم كبير بجميع الوسائل في المبني، وبكل ما أوتيت من قوة في بدني وفي روحي – وهذا أمر بديهيّ. فليبق هذا المدخل إذن كما هو. إن العرين به العديد من مناطق الضعف التي منحَتها إياه الطبيعة. فليكن به هذا العيب الذي صنعته أنا بيدي، والذي أعرفه جيدًا. هذا لا يعني أن هذا العيب لا يسبب لي إزعاج من قت لآخر. وإن كنت أتجنب هذا الجزء من العرين أثناء جولاتي المعتادة، فالسبب يعود إلى أني لا أحب رؤيته، ولا أحب أن أنظر على الدوام إلى عيب العرين الذي يثير في نفسي المخاوف. فليبق هذا العيب عند المدخل كما هو، لا يراه أحد، وسأظل أتجنب النظر إليه قدر المستطاع. وعندما أسير باتجاه المخرج ولا تفصلني عنه سوى الممرات والفراغات أشعر بأني في مكان شديد الخطورة، وكأن شعر جسمي قد سقط من فوقه، وأقف منذ الأزل كلحم حي عاري، فيستقبلني أعدائي بالزئير مرحبين. الحقيقة أن مثل هذه المشاعر تنتاب المدخل نفسه وعن نفسه، وهو من نوكل إليه حماية البيت، لكن ما يعذبني هو الجزء الأمامي للمبني. أحيانًا أرى في المنام

أني أعدت بناء المدخل، وغيرته بالكامل بسرعة وبقوة خارقة في ليلة واحدة، ولم يرني أحد، فصار محصنًا. في ليلة كهذه، يراودني فيها حلم كهذا يكون النوم من أجمل اللحظات، وأجد دموع السعادة والخلاص تتلألأ على لحيتي عندما أستيقظ.

يجب أن أتغلب جسديًا على عذاب المتاهة أيضًا عندما أرغب فى الخروج. يزعجني ويسعدني في نفس الوقت عندما أتوه أحيانًا وللحظات في العرين الذي صنعته بنفسي، وكأنه يسعى إلى أن يثبت لي – أنا الذي أعرف الأمر منذ زمن بعيد – حقه في الوجود. فأجد نفسي أسفل سقف من الطحالب، أتمنى له مزيداً من الوقت – عندها سأظل قابعًا في العرين – لينمو ويلتحم بأرض الغابة. والآن يكفيني المرور فيه برأسي، لأصبح في أرضٍ غريبة. ترددت كثيرًا في القيام بهذه الحركة البسيطة. ولو كان ممكنًا أن أبني هذه المتاهة من جديد، لما صنعتها، ولانصرفت إلى شيءٍ آخر. وكيف هذا؟ بيتك مَحميّ، ومغلق على نفسه. أنت تعيش في سلام، وفي دفء، صحتكِ جيدة، أنت السيد، السيد الوحيد لكل هذه الطرقات والفراغات، وتريد أن تخاطر بكل هذا - لا تضحي به بالطبع، ثم تتمنى أن تحصل عليه من جديد. أستبدأ في لعبة كبيرة، لعبة ضخمة؟ هل عندك أسباب منطقية لذلك؟ كلا، لا توجد أسباب منطقية للقيام بشيء كهذا. كل ما سأفعله إذن هو رفع الباب الساقط بحرص، ثم أنطلق إلى الخارج، وأتركه يسقط على مهل، ثم أنصرف مسرعًا، بكل قوتي، بعيدًا عن هذا المكان الخادع.

لكني لست معتادًا على الحرية. ورغم أني لا أصطاد في طرقات العرين بل في غابة فسيحة إلا أنى أشعر بقوة جديدة تسري في جسدي، لا يتسع لها العرين، ولا فناء العرين حتى ولو كان أكبر من ذلك عشرة أضعاف. حتى الطعام خارج العرين أفضل. ورغم أن الصيد أكثر صعوبة والتوفيق ليس في كل مرة، إلا أن النتيجة على أية حال لها قيمتها. أنا لا أنفي كل هذا، وأستطيع أن أفهم هذا وأن أتقبله، على الأقل مثل أي رجل آخر. وربما أكثر من غيري، فأنا لا أصطاد باستهتار، أو بدافع من اليأس مثل أي متسول، بل أنتقي ما أصطاده وبروية. كما أني لست ممن خلقوا للحياة الحرة، أهيم فيها بلا هدف، بل أعرف أن وقتي محسوب، وأني لن أواصل الإصطياد إلى الأبد، وأن شخص ما يدعوني – عندما أقرر أني سئمت من هذه الحياة - شخص أعجز عن رفض دعوته. لذلك أستمتع بهذا الوقت هنا قدر المستطاع، وأقضيه بلا مشاكل. أقصد أني أستطيع أن أكون كذلك، لكني لا أريد. الحياة في العرين تأخذ كل وقتي. انصرفت بعيدًا عن المدخل، وسأعود عما قريب. أبحث عن مأوى جيد لأراقب مدخل بيتي – هذه المرة من الخارج – أيام وليالي. ربما يكون هذا عمل أحمق، لكنه يسبب لي سعادة غامرة، ويبعث الهدوء في نفسي. أشعر وكأنني لا اقف أمام بيتي، بل أمام نفسي وأنا نائم. وكأنني حظيت بفرصة النوم العميق، وفي نفس الوقت أسهر أحرس نفسي. إنها إشارة لي بأني في استطاعتي رؤية أشباح الليل، ليس فقط وأنا عاجز أثناء النوم، لكن أيضا أواجههم في الواقع في نفس الوقت، وبكل ما أوتيت من قوة، وأنا في كامل يقظتي وانتباهي. أكتشف

أنني في وضعٍ جيد، تمامًا كما أعتقد دائمًا وسأظل أؤمن بهذا عندما أعود إلى بيتي. من هذا المنطلق – وربما من منطلق آخر، ولكن من هذا المنطلق بالذات – أعتقد أن هذه الرحلات ضرورية بالفعل. الحقيقة أنه رغم أني اخترت أن يكون مدخل العرين بعيدًا عن الضجيج، باختصار لو لخصت لكم ملاحظاتي خلال أسبوع واحد، نجد أن الحركة في هذه الأماكن كبيرة بشكل ملحوظ. وربما يكون الأمر كذلك في كل البقاع المأهولة، والمفيد التعرض لمثل هذه الحركة النشطة التي تدفع نفسها الأمام، أفضل من الوحدة القاتلة وأن أكون تحت رحمة أول قناص يبحث عن فريسة. فهنا العديد من الأعداء بمعداتهم، لكنهم يتصارعون فيما بينهم ويتدافعون حول العرين. لم أر طوال هذه المدة أحدًا يتوجه مباشرة ناحية مدخل العرين، وهذا من حسن حظي وحظه، وإلا لأمسكته من عنقه بدون تردد دفاعًا عن العرين. الحقيقة أن بعضهم ظهر بجوار المكان، ولكني لم أجرؤ على الإقتراب منهم، واضطررت إلى الهرب بعيدًا عنهم. ترقبتهم عن بعد بصعوبة، وتنبأت بما قد يفعلونه بالعرين، فلم أستطع قول أي شيء. لكن ما هدأ من روعي أني عندما عدت مبكرًا لم أر أيًا منهم، وكان المدخل سليمًا. كانت هناك أوقات سعيدة، كنت أقول فيها لنفسي: إن معاداة العالم لي ربما انقضت، أو هدأت، أو أن قوة العرين تحول بيني وبين نزاع طاحن. ربما أن العرين يوفر الحماية على نحو أفضل مما توقعت يومًا ما، حتى وأنا داخل العرين. ذهبت بالأمر بعيدًا بأنني أحيانًا تمنيت كالأطفال ألا أعود إلى العرين مرة أخرى، بل أظل هنا بالقرب من المدخل، وأقضي حياتي في

مراقبة مدخل العرين، وأتأكد بنفسي – وأبحث في هذا الأمر عن السعادة – من أنني استطعت تأمين العرين بشكل أقوي من وجودي بداخله. حسنًا، غالبًا ما أستفيق سريعًا من أحلام الأطفال هذه. ما هو التأمين الذي أراه من هنا؟ أيمكنني أن أُقيّم المخاطر التي أتعرض لها وأنا في العرين بناء على ملاحظاتي هنا خارجه؟ هل يمكن لأعدائي أن يشكّوا في أني لست في العرين؟ سيشكون ولو قليلًا في وجودي خارج العرين، ولكن لن يكونوا متأكدين من ذلك. وهل يُعد وجود شكوك مؤكدة أساس لوجود خطر حقيقي؟ إن ما أفعله هنا ما هو إلا محاولات منقوصة، لكنها مفيدة في طمأنتي. لكن هذه الطمأنة المزيفة تقودني إلى مخاطر محتملة. غير أن الأمر ليس كذلك. أنا لا أراقب نفسي، كما كنت أعتقد، وأنا نائم، بل أنا بالفعل نائم، بينما من يريد تدميري مستيقظ. ربما يكون هو أحد الذين يتسكعون حول عريني دون أن يلاحظهم أحد، ليتأكد في كل مرة، مثلي تمامًا، من أن الباب مازال مغلقًا، وينتظر لحظة الهجوم. يأتون إلى هنا ليتأكدوا من أن سيد المنزل ليس بالداخل، أو لأنهم يعرفون أنه يتجول وسط الأيكة بكل إرتياح. سأترك مكان المراقبة، لقد سئمت من الحياة في الفضاء الواسع. أشعر أنني غير قادر على تعلم شيء جديد هنا، لا الآن ولا فيما بعد. تساورني رغبة في ترك كل هذا والعودة إلى العرين، وألا أخرج منه مرة أخرى، ولتبق الأمور كما هي، وألا أزعج نفسي بمراقبة لا طائل منها. لقد أرهقت نفسي بمتابعة طويلة لكل ما يحدث عند المدخل. تنتظرني الآن معاناة طريق العودة إلى الداخل، وما تسببه من اضطراب، فلن أعرف ما

سيحدث في محيط العرين خلف ظهري، وخلف الأبواب التي سأغلقها من خلفي. سأحاول في ليالي عاصفة أن أدفع فريسة ما بسرعة إلى داخل العرين. يبدو أني سأتمكن من هذا الأمر لو قدر لي هذا، فسوف أتأكد منه عندما أعود إلى العرين، سأتأكد منه بنفسي أو ربما أحد غيري، لكن بعد فوات الأوان. سأنصرف من مكاني، ولن أدخل العرين. سأحفر خندقًا تجريبيًا على مسافة مناسبة بعيدًا عن المدخل الحقيقي، ولكن سيكون الخندق أكبر من جسمي، وسوف يغلق هو الآخر بالطحالب. سأنسل إلى داخله، ثم أغطيه وأنتظر، وأحسب الأوقات، طويلة كانت أو قصيرة أثناء ساعات اليوم، ثم أزيل الطحالب، وأخرج، وبعدها أسجل ملاحظاتي. سأكتسب خبرات مختلفة، منها الجيد ومنها السيئ. لكني لن أجد قانونًا عامًا أو طريقة آمنة للنزول إلى الخندق. لذلك لن أنزل إلى العرين من مدخله الرئيسي، وسوف أضطر إلى هذا عاجلًا. صرت على وشك اتخاذ قرار بأن أنصرف بعيدًا، وأن أبدأ حياةً جديدة، حياة ألفتها، حياة لا معنى لها، حياة خالية من أي يقين، حياة كانت عبارة عن خليط من المخاطر التي لا يمكن تمييزها عن بعضها. حياة لم تسمح لي بتمييز الأخطاء عن بعضها. حياة أخشاها كما تعلمت من المقارنة المستمرة لعريني الآمن بالحياة الأخرى. مثل هذا القرار قد يكون ضربًا من الجنون سببه الحياة الطويلة في حرية عبثية. مازال العرين عريني، ويكفيني خطوة واحدة وأصبح في أمان. وأصبح حرًا في حركاتي، وأنطلق في وضح النهار على طريق مستقيم نحو الباب حتى أفتحه بحرص، لكني غير قادر، أدور حوله وأدوس متعمدًا على الأشواك حتى

أعاقب نفسي على ذنب لا أعرفه. وفي النهاية يجب أن أقول إنني على صواب، وأنه من غير الممكن العودة إلى العرين قبل أن أغامر ولو للحظة بأغلى ما عندي، وأصبح عرضة لكل ما هو حولي على وجه الأرض وعلى الأشجار وفي الهواء. لن ألتمس الأعذار بالمخاطر، فهي حقيقة ناصعة. ليس بالضرورة أن يكون عدوًا أثير شهيته حتى يلاحقني، ربما يكون أيضا مخلوقًا، أيًا كان هذا المخلوق، كريهًا وساذجًا، سيلاحقني من باب الفضول ويصير دون أن يقصد زعيمًا لكل من سيلاحقونني، وليس بالضرورة أن يكون كذلك. لكنه لا يقل خطورة عن غيره، بل يمكن أن يكون أخطرهم على الإطلاق، وربما يكون شخصًا مثلي، يمارس هواية بناء الخنادق، متجول في الغابة، ومحب للهدوء، لكنه شرير، يحب السكن دون البناء. ليته يأتي الآن، ليته يكتشف مدخل العرين، ويكشف عن جشعه، ليته يشرع في هذا الفعل، ويرفع الطحالب، ليته يتمكن من ذلك، ليته يأتي ليبحث عني في العرين، ليته يأتي وتظل مؤخرته عالقة عند مدخل العرين للحظات، ليت كل هذا يحدث حتى أنقض عليه دون تردد وبكل ضراوة، أقطعه إربًا، وأمزق جسده وأشرب دمه، وألقي بجيفته بجوار فرائسي الأخرى. والأهم من ذلك كله بالطبع أن أكون وقتها في عريني، أتطلع بسعادة إلى متاهتي. بعدها أسحب الطحلب فوق السقف لأغطي به جسدي. ثم أستلقي مسترخيًا طيلة ما تبقى من حياتي. لكن أحد لن يأتي، وسأظل وحيدًا. سأفقد الكثير من هيبتي طالما بقيت أفكر في المتاعب التي تلاحقني، لم أعد أتجنب الدخول إلى العرين، أدور الآن حوله من الخارج، أسترق إليه النظر وكلي

ولع به. مازال الوقت مبكرًا حتى أصبح كالعدو الذي يترقب اللحظة المناسبة، حتى يتمكن من التسلل إلى العرين. لو أن لي صديقًا أئتمنه على نفسي، يقف بدلًا مني على ربوة المراقبة، لدخلت بكل هدوء إلى العرين، ولاتفقت معه على أن يراقب الموقف ساعة دخولي إلى العرين وبعدها، حتى إذا ظهرت علامات خطر، يخبط على السقف المغطى بالطحالب. هذا كل ما أنتظره منه. ولو أنه موجود لحرصت على أن تكون الطاولة نظيفة، لا أترك عليها أي أثر للطعام، لكن أين هو!ألن يطلب شيئًا في المقابل، ألن يرغب في إلقاء نظرة على عريني؟ سيكون من الصعب السماح له طواعية بالدخول إلى العرين. لقد بنيته لنفسي، وليس للزائرين، أعتقد أنني لن أسمح له بالدخول. لن أسمح له حتى لو ساعدني في الدخول إليه. لا يمكنني أن أدعه يدخل، لأنني إما أن أتركه يدخل بمفرده إلى العرين، وهذا أمر لا يمكنني تصوره، أو أنني سأدخل معه، وفي هذه الحالة تسقط أهميته في حماية ظهري وأنا أدخل. وماذا عن الثقة؟ هل يمكن أن أثق في ذلك الشخص حتى وأنا لا أراه، وعندما يفصلنا سقف الطحالب عن بعضنا؟ من السهل نسبيًا الثقة في شخص نؤمن له نحن أيضا الحماية، أو يمكننا فعل ذلك. ربما قد يكون من السهل الثقة في إنسان عن بعد، لكن أعتقد أنه ليس في الإمكان الثقة في إنسان وأنا بداخل العرين، أي إنسان من عالم آخر. ليس بالضرورة وجود مثل هذه الإحتمالات، يكفي التفكير بأنه أثناء دخولي إلى العرين أو بعده يمكن أن تمنع ذلك الصديق أمور طارئة كثيرة من أداء مهمته. وأمر من هذا الأمور الطارئة يمكن أن ينجم عنه

نتائج وخيمة عليّ. ولو جمعنا هذا كله فلن يكون على أن أشكو من وحدتي، ولا يوجد من أئتمنه على نفسي. ولن أخسر الكثير، بل ربما أحمي نفسي من وقوع خسائر. يكفيني أني أثق في نفسي وفي العرين. كان يجب أن أنتبه إلى هذا الأمر، وأقوم بكل ما يلزم لتحقيق المهام التي هي على عاتقي الآن. كان هذا ممكنًا في بداية بناء العرين، كان عليّ بناء الممر الأول في العرين بحيث يؤدي إلى مدخلين بعيدين عن بعضهما بمسافة مناسبة، بحيث أدخل من أحدهما بهدوء، أو بسرعة إن تطلب الأمر ذلك. أجري في بداية الممر نحو المدخل الثاني، أرفع قليلًا السقف المغطي بالطحالب، الذي يجب أن يكون مُعدًا لهذا الغرض. وبهذا أحاول على مدى بضع ليالٍ أن أراقب الموقف. هذا هو الحل الأمثل. صحيح أن وجود مدخلين قد يضاعف من المخاطر، لكنني يمكن أن أتجاهل هذه الحجة، خاصة أن المدخل المبني بغرض المراقبة يمكن أن يكون ضيقًا تمامًا. وهكذا أغرق في التفاصيل الفنية. وأبدأ من جديد أحلم بعرين مثالي تمامًا، وهذا أمر ينشر في نفسي السكينة، وأتطلع وأنا مغلق العينين إلى إمكانيات معمارية غير واضحة تمامًا ومن شأنها تسهيل الدخول والخروج من العرين.

علقت على تلك الإمكانيات أهمية بالغة وأنا استلقي وأفكر فيها. إنها مجرد إضافة تقنية، وليست إضافة حقيقية. فلا أرى ضرورة من الدخول والخروج المتعاقبين. إنه لا يدل إلا على تفكير متململ، وعلى تقدير للذات لا يتسم بالثقة، وعلى نزوات فاسدة، وصفات مذمومة،

تصبح أكثر سوءًا عند مقارنتها بالعرين الذي يستطيع أن يملأنا بالسلام، عندما نفتح له قلوبنا على مصراعيها. لكنني الآن خارج العرين، أبحث عن وسيلة للعودة، وهذا الإجراء التقني قد يكون ضروريًا. لكنه من جانب آخر ليس بهذه الضرورة. ألا تعد مثل هذه الأفكار في ظل هذا التوتر العصبي تقليلًا من شأن العرين، وخاصة إذا نظرنا إليه على أنه مجرد وكر، نريد أن ندخله بأكثر الطرق أمانًا؟ بالطبع هو كذلك، ويجب أن يكون هذا الوكر آمنًا. عندما أتصور أني أتعرض لخطر داهم أرغب بكل ما أوتيت من قوة وعزم ألا يكون الوكر شيئًا آخر غير تجويف للحفاظ على حياتي، وأن يقوم بهذه المهمة الواضحة على أفضل وجه، وأصبح على استعداد للتغاضي عن أي مهمة أخرى قد يؤديها. لكن رغم أنه في الواقع - وهذا الواقع لا نراه وقت الشدائد الكبيرة، ولكن علينا ساعة الخطر أن نتعلم كيف نراه - يوفر الأمن الكامل، لكن ليس بالقدر الكافي. لكن هل تتقلص فيه الهموم؟ إنها هموم من نوع آخر، هموم أعلى مكانة وقيمة، هموم مكبوتة بقوة في الغالب، لكن تأثيرها قد يكون بنفس تأثير الهموم التي تسببها الحياة خارج العرين. لو أنني بنيت العرين ليحمي حياتي فقط، فعندها ربما لن أتعرض للخيانة، لكن ستكون العلاقة بين العمل الشاق والأمن الحقيقي غير متكافئة. من الصعب الإعتراف بهذا الأمر، لكني سأفعل. سأفعله مباشرة مع هذا المدخل الذي يحميني أنا، فأنا من بناه ومن يمتلكه. لكن العرين ليس فقط وكرًا للحماية. عندما أدخل إلى فناءه، وأجد نفسي محاطًا بأكوام من خزائن اللحوم، وأنظر إلى عشرة

ممرات تتفرع من هذا الفناء، وكل ممر منهم يتناغم مع المكان، صعودًا وهبوطًا، استقامة وتعرجًا يتسع أو يضيق، كلها هادئة وفارغة، كل ممر منهم مستعد أن يقودني إلى فراغات متعددة، هادئة أيضًا وخالية - أنسى كل الأفكار التي تراودني عن الأمن. وأعرف بعدها جيدًا أن قلعتي هنا، قلعتي التي حفرتها بأظافري وبأسناني وبقدمي في أرض صلبة، قلعتي التي لا يمكن أن يسلبني إياها أحد، قلعتي التي قد أتقبل بكل ترحاب أن أتلقي جرحًا قاتلاً من عدوي بسببها، لأن دمي سيسيل في أرضي ولن يضيع. وليس أجمل من ساعات جميلة أقضيها هنا، مقسمة بين النوم الهاديء واليقظة السعيدة، أتجول في طرقاتها التي صممت لكي تناسبني، لأتمدد فيها بسعادة، أتمرغ فيها كالأطفال، وأتسكع فيها، وأنام بكل سعادة. كل الأماكن الصغيرة التي أعرفها جيدًا - رغم أنها متشابهه - أميزها جميعًا من حدبات حوائطها وأنا مغمض العينين. حوائطها تحتضنني بسلام ودفء مثل عش يحتضن طائره. وكل شيء، كل شيء هاديء وفارغ. ولكن مادام الأمر هكذا، لماذ إذن أتردد، لماذا أخاف من دخيل، ولا أخاف من إمكانية ألا أرى العرين بعد اليوم؟ يا الهي! هذه الفرضية الأخيرة لحسن الحظ غير واردة على الإطلاق. أنا لست مضطرًا إلى الإسهاب في الحديث عن أهمية العرين لي؛ فأنا والعرين صرنا جزءًا واحدًا، إلى درجة أني على استعداد أن أظل قابعًا بكل هدوء في مكاني هذا رغم كل الخوف الذي أشعر به. لن أسعى رغم هلعي الشديد إلى أن أفتح باب العرين. يكفيني تمامًا أن أنتظر هنا، ولا أفعل شيئًا، فلا توجد قوة في الكون يمكنها أن تفرقنا عن

بعضنا. سأجد في كل الأحوال طريقةً للنزول إلى العرين. لكن كم من الوقت سأنتظر حتى تحين لحظة دخولي إليه، وماذا يمكن أن يحدث خلالها هناك فوق الربوة، أو هنا في العرين؟ الأمر في يدي لكي أجعلها قصيرة، وأفعل على الفور كل ما يجب أن أفعله.

أقترِب من مدخل العرين غير قادر عن التفكير من شدة الإرهاق، رأسي متدلية، وخطواتي مترددة، بين اليقظة والنوم، أتهادى في خطواتي. أرفع الطحلب، وأدلف على مهل إلى الداخل. دفعني شرود ذهني إلى أن أترك مدخل العرين مفتوحًا، إلى أن تذكرت ما أهملت فيه، فصعدت من جديد لأصلح خطأي. لكن لماذا الصعود؟ يكفي أن أجذب السقف الطحلبي. حسنًا، أهبط من جديد وأنا أسحب السقف الطحلبي من خلفي. في هذه الحالة فقط، فقط في هذه الحالة أستطيع أن أقوم بشيء كهذا. ثم أستلقي تحت الطحلب، فوق فريستي التي أحضرتها، ملطخًا بالدماء وبمرق اللحم. وبعدها يمكن أن أستسلم للنوم المعسول. لا يزعجني شيء، ولا يلاحقني أحدهم. فالوضع فوق الطحلب يبدو هادئًا. ولو لم يكن كذلك لما توقفت عن المراقبة، ولما غيرت مكاني وتركت العالم العلوي، ثم نزلت إلى العرين. وعلى الفور بدأت أشعر بتأثير هذا التغيير. إنه عالم جديد، يزودني بقوة جديدة، وما يسمى إرهاق خارج العرين، ليس إرهاقًا في داخله. عدت من الطرقات، لا أشعر بجسدي من الإرهاق والكد، لكن العودة إلى الموطن القديم، والعمل على تحسينات جديدة تنتظرني، وضرورة تفقد جميع القاعات

ولو سريعًا، وقبل كل شيء زيارة سريعة للفناء- كل هذا يحوّل الإرهاق إلى قلق جامح. يبدو الأمر وكأنني استيقظت من سبات عميق وطويل عند دخولي إلى العرين. دائمًا ما يكون العمل الأول صعبًا، ويشغل كل وقتي؛ ألا وهو جرّ الفريسة عبر ممرات المتاهة الضيقة، ذات الحوائط الهشة. أدفعها أمامي بكل قوتي، فتسير الأمور على ما يرام. لكن ببطء. وحتى أسرع من وتيرة العمل أقتطع قطعة من هذا اللحم الكثيف، وألقيها فوق الفريسة، ليتبقى أمامي جزء صغير يسهل دفعه. لكنني محشور مع هذا الكم الكبير من اللحم في تلك الممرات الضيقة، أحتك بها لدرجة الشعور بأنني سأختنق وسط مؤني. كثيرًا ما أتجنب عبئها بأن أسرف في أكلها أو شربها. لكن نقل الفريسة يتم في النهاية، لا يستمر هذا طويلًا، فالمتاهة قوية. أجد نفسي بعدها في ممر طبيعي. أدفع الفريسة عبر الدهليز القصير إلى أحد الممرات الرئيسية التي أعددتها لهذا الغرض والتي تنحدر بشدة لتصب في الفناء. وهنا لا أفعل شيء، فكل شيء يتم من تلقاء نفسه، يتدحرج ويسقط في الفناء. وأخيرًا أجد نفسي في فناء العرين! أخيرًا أستطيع أن أستريح. كل شيء كما هو. لا يوجد أثر لحدوث أي شيء غير متوقع. مجرد خسائر بسيطة ألاحظها من أول نظرة. وسأصلحها على الفور، لكن يجب أن أمرّ سريعًا على باقي الممرات، وهذا لا يتطلب جهدًا يُذكر. فهو كحديث مع الأصدقاء، أعتدت عليه في الأيام الخوالي – أنا في الواقع لست مسنًا إلى هذه الدرجة، لكنى بصعوبة أتذكر عندما كنت أفعل هذا، أو أسمع أن شيئًا كهذا يحدث. أبدأ الآن بالدهليز الثاني وأنا أتعمد تفقده على مهل بعدما رأيت

الفناء. لدي المزيد من الوقت – فدائمًا عندي المزيد من الوقت وأنا في العرين. كل ما أفعله يكون جيدًا وهامًا، وأستمتع به. أبدأ بالدهليز الثاني، أتوقف عن فحصه، ثم أدلف إلى الدهليز الثالث، الذي يقودني إلى الفناء. وعليّ الآن بالطبع أن أعود من جديد إلى الدهليز الثاني، وهكذا تستمر لعبة العمل، وتتزايد، وأنا أبتسم بسعادة حتى أصاب بالارتباك من كثرة العمل. لكني لا آبه بالأمر. من أجلكم أنتم، من أجل الدهاليز والفراغات، من أجل تلك الأمور، من أجل الفناء أتيت، غامرت بحياتي، وقد كنت قبل ذلك غبيًا طوال الوقت لأني استسلمت للخوف، وأبيت العودة إليكم. والآن زال الخطر وأنا بينكم. أنتم مني وأنا منكم، مصيرنا واحد في كل ما قد يحدث لنا، فليدبّ فوق العرين قطيع كامل، وليتربص الغازي، ويقتحم الباب الطحلبي. الآن يصافحني العرين بصمته وخوائه ليؤكد ما أقوله. لكن التعب حل بي الآن، وسوف أتقوقع في إحدى قاعاتي الحبيبة. لم يحدث منذ زمن أن تفحصت كل ما في العرين مرة واحدة، لكن يجب أن أنهي جولتي، لا أريد أنا أنام هنا. لكني سأستسلم لرغبتي، سأستلقي هنا وكأني أرغب في النوم طالما كان الأمر على ما هو عليه من قبل. نعم، هو كذلك، لكني غير قادر على النهوض، سأسلم نفسي لنوم عميق.

يبدو أني نمت طويلًا، واستيقظت من نومي الأخير. ربما كان نومًا خفيفًا، لأن حفيفًا خفيفًا أيقظني. إنه حيوان صغير لم أنتبه له، أو ألق له بالًا، حفر طريقًا جديدًا في غيابي، فالتقى الطريق الجديد مع طريق

قديم يهب منه الهواء، لذلك أسمع هذا الحسيس. لو كان هذا حيوانًا حثالة نشطًا، ولو كانت همته هذه تتسم بالعدوانية، فسوف أسترق السمع في بادئ الأمر من وراء حوائط دهليزي لأتأكد بحركات استطلاعية من مصدر الحفيف، وبعدها يمكنني أن أعالج الأمر. ما عدا ذلك، يمكن أن يصبح هذا الدهليز الجديد فتحة تهوية جديدة طالما توافق ولو قليلًا مع طبيعة العرين. لكن يجب أن أهتم بهذه الكائنات الصغيرة أكثر من ذي قبل، فلا يجب أن أهمل أي شيء.

وبما أنني مدرب جيدًا على تلك الدوريات، فبالطبع لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، ويمكن أبدأ على الفور، فتنتظرني أعمال أخرى، لكن هذا عمل طارئ، ويجب أن يسود الهدوء في أرجاء دهاليزي. هذا الصوت غير ضار نسبيًا، لم أسمعه على الإطلاق عندما أتيت إلى هنا، لا يمكن أن تلحظه إلا أذن مرهفة. ليس صوتًا دائمًا كما هى عادة مثل هذه الأصوات، لكنه صوت متقطّع، يبدو أنها وقفات بين تجمع الهواء. سأبدأ في استكشاف الأمر، لكنني عاجز عن العثور على المكان الذي يجب أن أعالجه، سأقوم ببعض أعمال التنقيب، لكن بصورة عشوائية، وهذا بالطبع عمل بسيط، فلا داعي للحفر والردم والتسوية. لكني لم أقترب بعد من مصدر هذا الحفيف، فمازال يصدر ضعيفًا بلا توقف وعلى فترات، تارة أسمعه كصوت فحيح وتارة أخرى كصفير. حسنًا، يمكنني أن أتغاضي عن الأمر ولو مؤقتًا، صحيح أنه صوت مزعج، لكن توقعي لمصدره أمر غير مشكوك فيه. سوف يتزايد بصعوبة، بل ربما

يختفي من تلقاء نفسه، فلم أنتظر طويلًا هكذا من قبل. مازال الحفيف يتردد مثل المثقاب الصغير بغض النظر عن أنه قد يتوقف فجأة، بينما البحث الدءوب المستمر قد لا يسفر عن شيء. سيسعدني هذا، والآن من الأفضل أن أواصل تجوالي في طرقات العرين، وأزور القاعات، فلم ألق التحية حتى الآن على العديد منها. وحتى الآن مازال الصوت يتردد في أرجاء الفناء، ولا أرغب في التوقف، يجب أن أواصل البحث. هذا الأمر أخذ مني وقتٌ الكثير، الكثير من الوقت الذي يجب أن أستغله على نحو أفضل. في مثل هذه الظروف تجذبني أكثر المسائل الفنية. فعلي سبيل المثال وبناء على الصوت الذي أستطيع تمييزه بأذني بكل وضوح ودقة أتصور مصدره وسببه. والآن أشعر بضرورة التأكد إن كان هذا مطابق للواقع. وهذا سبب وجيه، لأني لو لم أصل إلى نتيجة محددة لا يمكنني أن أشعر بالأمن حتى ولو تعلق الأمر بمعرفة مكان حبة رمل سقطت من فوق جدارٍ متداعٍ. ويعد مثل هذا الحفيف، من وجهة النظر هذه أمر عديم الأهمية. أو ربما يكون مهمًا، سأواصل إذن البحث مرات ومرات، ولن أعثر على شيء، أو ربما أكتشف الكثير. قلت لنفسي: هل كان ينقصني هذا في مكاني المحبوب؟ سأنصرف بعيدًا، إلى منتصف الطريق المؤدي إلى أقرب غرفة. كل شيء هنا مزحة. أريد أن أثبت لنفسي أن هذا الصوت لم يشغلني عن مكاني المحبوب، وأني أسمعه بابتسامة. لكن سرعان ما تختفي الابتسامة، لأن سماع نفس الصوت هنا يؤدي إلى ذلك. لكن دعنا من هذا، أعتقد أن أحداً لا يسمع هذا الصوت غيري. أسمعه بأذني المدربتين بصورة أوضح مع مرور الوقت. كيف يمكنني أن أقتنع

بأنه موجود رغم أن نفس الصوت في الحقيقة منتشر في كل مكان. أعتقد أنه صوت ضعيف وأنا أحاول أن أسمعه وسط الدهليز وليس بأذني خلف الحائط. وبالكاد، بتركيز بالغ أحاول أن أخمن مصدر الصوت دون أن أسمعه. لكن ما يزعجني حقًا هو أنه بنفس القوة في كل مكان، ولا يتفق على الإطلاق مع ما توقعته له في البداية. ولو أنني تنبأت بشكل سليم بسبب الصوت فلابد أنه يصدر قويًا من مكان محدد يمكن العثور عليه، ثم يضعف الصوت كلما ابتعدت عنه. فماذا لو أني أرى الأمر بطريقة غير صحيحة؟ تبقى إمكانية واحدة، وهى وجود مصدرين للصوت، وأن ما أسمعه كان بعيدًا عن كلا المصدرين، وأنني لو اقتربت من أحد المصدرين، فإن حفيفه سيقوى، ولكن نظرًا لضعف الصوت من المصدر الثاني، فإن المحصلة النهائية هى أن قوة الصوت تظل كما هى تقريبًا. يبدو لي أنني أفرق بين الصوتين بصعوبة بالغة عندما أرهف أذني، وهو ما يتفق مع رؤيتي الجديدة. على أية حال يجب أن أوسّع صالة التجارب بصورة أكبر. لذلك سأهبط من الدهليز حتى أصل إلى الفناء، وأبدأ في استراق السمع هناك. شيء غريب. فهنا أيضًا صوت الحفيف. حسنًا، إنه حفيف ناتج عن عملية حفر تقوم بها بعض الحيوانات التافهة التي استغلت غيابي بشكل معيب، إنها بالتأكيد لا تضمر لي عداوة، بل هى منهمكة في عمل يخصها، وطالما لا يعوقها شيء في سبيل تحقيقه فستبقى مسالمة كما هى. كل هذا أعرفه، أتعجب رغم ذلك مما يحدث، ويزعجني، ويربكني وأنا في مهمة ضرورية للغاية أنها تجرأت على الاقتراب من فناء قلعتي. لا فرق عندي،

فقد أعاق هذه الجرذان عمق الفناء الكبير، أعاقتها مساحته الشاسعة، وحركة الهواء الشديدة به. هل دار برأسها الغبي أصلًا أن هذا هو فناء العرين؟ بكل تأكيد لم أسمع من قبل على حوائط الفناء حتى الآن أية أصوات نبش. ورغم أن رائحة البخار النفاذة جذبت العديد من الحيوانات إلى هنا، وكنت أطاردها على الدوام. فكانت تلك الحيوانات تنسل إلى داخل الممرات بعد نبشها، كانت تأتي بعزيمة واهنة، لكن برغبة جامحة، وتنزل إلى هنا عبر ممرات العرين. وها هي الآن تنخر في الدهاليز. ليتني أستطيع تنفيذ خططي الهامة التي كنت أقوم بها في شبابي وفحولتي، أو ليت لدي القوة لتنفيذها، فالإرادة موجودة. من أكثر خططي المحببة إلى قلبي كانت فصل الفناء عن المنطقة المحيطة. أي بناء حوائط بسمك يبلغ طول قامتي تقريبًا – غير أن قاعدة الفناء الصغيرة لا يمكن للأسف فصلها عن الأرض – وعمل خندق متساوي الأبعاد، يلف الفناء من كل جانب مثل الحائط. دائمًا ما تخيلت هذا الخندق – ربما خطئًا – على أنه أجمل مكان يمكن أن أقيم فيه. أضع فوقه حدبة، ثم أسحب نفسي إلى أعلى وأنزلق عليه إلى أسفل، وأتدحرج، فأشعر بالأرض تحت قدمي من جديد، وأمارس كل هذه الألعاب فوق جسم الفناء وليس في ساحة الفناء، يمكنني أن أتجنب الفناء، يمكنني أن أصرف نظري عنه لأجعل عيني تستريح. أؤجل سعادتي بالنظر إليه إلى أوقات لاحقة، ففي كل الأحوال لن أفتقده، لأنه تحت تصرفي تمامًا، وليس واردًا أن أفقده طالما كان هنا مدخل وحيد عادي ومفتوح، لكنني أستطيع تأمينه، وأتحمل صرف نظري عنه، لو خيرت بين البقاء في

الفناء وبين البقاء في الخندق، لاخترت بالتأكيد الخندق، أبقى فيه مدي الحياة، فهناك يمكنني أن أتحرك بسهولة إلى أعلى وإلى أسفل، وأحمي الفناء. وقتها سيختفي الحفيف في الحوائط، سيختفي صوت النبش الكريه حتى من القاعات، وسيسود السلام، وسأصبح حاميًا له. ولن يزعجني الإنصات إلى صوت الحفر، بل سأستمع إلى شيء يعوزني الآن، وهو همهمة الصمت في فناء العرين.

لكن جمال كهذا ليس حقيقيًا، ويجب أن أنصرف إلى العمل. ويجب أن أكون سعيدًا أن هذا العمل سيتم في الفناء، لأن هذا أمر يشجعني على العمل. يجب أن أكون سعيدًا بالطبع، وصار الأمر أكثر وضوحًا، بذل كل الجهد في عمل ظهر في البداية بسيط للغاية. أتفحص بأذني حوائط الفناء، أسمع نفس الصوت في كل مكان، هنا وهناك، على الحوائط وعلى الأرض، عند المدخل وداخل العرين، في كل مكان. كم من الوقت والجهد سيستمر سماع هذا الصوت المتواصل. عندما أبعد أذني عن أرضية العرين لا أسمع أي شيء هنا في العرين، وهو أقل ما يمكنني أن أفعله حتى أخدع نفسي – عندما أريد – لأشعر بالراحة المؤقتة. هذا على عكس الممرات حيث ينتشر الصوت في الفراغات الواسعة. وحتى أهدأ وأعود إلى نفسي كثيرًا ما أمارس تجارب؛ كأن أنصت بانتباه وأقنع نفسي بأني لا أسمع أي شيء. لكن ماذا حدث؟ إن تفسيري الأول للأمر فشل تمامًا. يجب أن أرفض كل التفسيرات الأخرى المطروحة. يمكنني أن أظن ما أسمعه أثناء العمل مجرد شيء بسيط. لكن هذا ينافي

الحقيقة، مستحيل أن أسمع فجأة شيئًا لم أكن أسمعه من قبل رغم أن كان موجودًا طوال الوقت. ربما أن حساسيتي تجاه الأشياء الغريبة في العرين تزايدت بمرور الوقت. لكن قدرتي على السمع بالتأكيد لم تتحسن. هل من طبيعة هذا الحيوان الصغير أن صوته غير مسموع؟ وهو أمر بالتأكيد يمكنني تفهمه. فأنا كنت لأقتله إذا تعرضت للجوع. أمر وارد، حتى هذه الفكرة بدأت تتسلل إلى عقلي، بأن ما هنا هو حيوان لا أعرفه من قبل. ربما كان الأمر كذلك. صحيح أنني أراقب الحياة هنا في العرين منذ وقت طويل وبكل انتباه، لكن العالم يزخر بالعديد من الأشياء ولا يخلو من المفاجآت. لكن في هذا الحالة لن يكون حيوانًا واحدًا، بل قطيع كامل سقط من السماء إلى أرضي، قطيع ضخم من الحيوانات الصغيرة، التي يزيد حجمها عن الحشرات – فصوتها منتشر في أرجاء المكان – لكنها تزيد عنها قليلًا في الحجم لأن حسيسها غير واضح تمامًا. ربما لا تكون حيوانات أو قطيع متجول ويصدر صوتًا يزعجني وصل إلى هنا في حملة ما سرعان ما تنتهي. ويمكنني أن أنتظر ولا أقوم بأي عمل لا جدوى منه. لكنها لو كانت حيوانات غريبة، لماذا لم أرها حتى الآن؟ لقد بحثت كثيرًا عنها حتى أمسك ببعضها، لكني لم أعثر على أي منها. أعتقد أنها ربما تكون حيوانات صغيرة للغاية، أصغر من تلك التي أعرفها، وأن الحسيس الذي تصدره أعلى صوتًا. أفتش عنها في الأرض التي قمت بنبشها، ألقي بكتل الطين في الهواء، فتسقط لتتفتت إلى حبات صغيرة، دون أن أعثر بها علي أي شيء. كدت أصل إلى قناعة بأنني لن أصل إلى شيء بهذه الحفائر العشوائية

الصغيرة.، كل ما أفعله أني أثقب في حوائط العرين، أحفر على عجل هنا وهناك، يداهمني الوقت فلا أتمكن من تغطية الحفر، وتنتشر أكوام الطين في أماكن كثيرة، فتسد الطرق، وتغطي الرؤية. كل هذا بالطبع يزعجني، يعوق حركتي ورؤيتي، حتى استراق السمع يصبح غير ممكنًا. كثيرًا ما يغلبني النعاس أثناء العمل وأنا في داخل إحدى الحفر وإحدى قدمي عالقة وسط الطين قبل أن أجتز بها قطعة طين قبل أن يداهمني النوم. سأغير الآن الطريقة. سأقوم بشق حفرة كبيرة باتجاه صوت الحسيس، ولن أتوقف عن الحفر حتى أصل إلى مصدر الصوت، بغض النظر عن كل النظريات. ثم أقضي عليه إن استطعت، وإن لم أستطع فعلى الأقل أكون قد تحققت من الأمر. هذا التحقق سيوفر لي الهدوء أو اليأس، لكنه في كل الأحوال، سيكون أمرًا واضحًا وسيحقق الغرض منه. هذا القرار سبب لي نوعًا من الراحة. فكل ما قمت به حتى الآن يبدو لي عملًا متهورًا، نتيجة حماس العودة، وبقايا هموم العالم الخارجي وافتقاد السلام الذي يرفرف في العرين، ونتيجة حساسيتي المفرطة نتيجة افتقادى للعرين لفترة طويلة، ففقدت توازني بسبب الظاهرة التي أعترف بأنها غريبة. ماذا يحدث بالتحديد؟ صوت حسيس خفيف. أسمع على فترات متباعدة، أمر تافه لا يمكن القول بأنني سأعتاد عليه، على العكس، لا يمكنني أن أعتاد عليه. ربما يجب أن أراقبه لفترة ما دون أن أفعل شيئًا بشأنه على الإطلاق. هذا يعني أن أواصل استراق السمع اليه كل بضعة ساعات بشكل عشوائي، وأسجل النتائج بصورة دقيقة، ليس على الفور كما أفعل، أسير في الدهاليز

وأضع أذني على حوائطها، وكلما أسمع صوت الحسيس أقوم بثقب الأرض، ليس بغرض البحث عن شيء، لكن أثقبها حتى يحدث شيء يتناسب مع القلق الداخلي الذي أشعر به. أتمنى أن كل شيء قد يتغير من الآن فصاعدًا. أو لا أتمنى – هكذا أعترف لنفسي وأنا مغمض العينين وغاضب من نفسي – لأن القلق يسري في كل كياني طوال الوقت، ولو أنني لم أتمالك نفسي لشرعت على الفور بكل رعونة واستنفار في الحفر، في مكان محدد، ليس مهمًا أين، المهم أني أسمع فيه صوتًا ما، أو لا أسمع. المهم أحفر بغرض الحفر، تمامًا مثل ذلك الحيوان الصغير الذي ربما يحفر بدون هدف، أو لأنه يأكل الطين. تعجبني الخطة الجديدة، ولا تعجبني في الوقت نفسه. لا يمكن أن أعترض على شيء فيها، فليس عندي أي اعتراض منطقي واحد عليها، على ما أعتقد. لكنني رغم ذلك لا أثق بهذه الخطة، أثق فيها بشكل ضعيف، ولن أندهش من أي نتائج سلبية متوقعة، كما أنني لا أثق حتى في النتائج. أعتقد انه من اللحظة الأولى لسماع صوت الحسيس فكرت في مسألة الحفر، وفي أنني لم أبدأ فيها لأنني لم أكن على ثقة كبيرة في نتائجها. ورغم ذلك سأبدأ في الحفر، فليس أمامي طريق آخر، لكنني لن أبدأ على الفور، سوف أرجىء العمل قليلًا. لم أبدأ في العمل بدون تعقل، وسوف أنتظر حتى أتفكر في الأمر وأتمنى ان يحدث هذا قريبًا. في البداية سأقوم بإصلاح الخسائر التي تسببت فيها داخل العرين بسبب الحفائر التي قمت بها، سيتطلب هذا وقتًا كثيرًا، لكنه أمر لا مفر منه، طالما أردت أن تؤدي الحفائر الجديدة إلى نتائج محددة، ستطول هذه الحفائر، ولو لم تؤد إلى شيء فستكون

حفائر بلا نهاية، هذا العمل يعني في كل الأحوال غيابي عن العرين لفترة طويلة في العالم العلوي. وعندما أريد يمكنني أن أتوقف عن العمل وأعود إلى البيت لأزوره، وحتى لو لم أفعل، سيهب عليّ هواء الفناء ويحيطني أثناء العمل. لكني سأضطر إلى الخروج من العرين وأستسلم لقدر غير معلوم. لذلك أريد أن أترك العرين في حالة جيدة حتى لا يقال أنني، أنا، من حارب من أجل توفير الهدوء في العرين، قد أفسدت العرين ولم أصلحه. سأبدأ بإعادة الطين إلى الحفر مرة أخرى. إنه عمل أعرفه جيدًا، وقمت به مرات ومرات دون أن أنتبه إلى أنه عمل يستحق الثناء - خاصة فيما يتعلق بدق الطين وتسويته. أنا شخص لا يُسحق، هذه هي الحقيقة. لكن هذه المرة أبدو ضعيفًا، فأفكاري مشتتة، في كل لحظة وأثناء العمل أضع أذني على الحائط وأستمع، لا يهمني أن الطين يتدحرج إلى الدهليز مرة أخرى. إن الأعمال الزخرفية النهائية التي تتطلب اهتمامًا خاصًا فوق طاقتي. لم يتبق سوى نتوءات قبيحة، وتشققات مزعجة. إضافة إلى أن مثل هذا الحائط الذي تنتشر علية البقع لن يعود إلى حالته القديمة. أحاول أن أقنع نفسي بأنه عمل مؤقت. وعندما أعود، وبعد أن يعم السلام سأجعل كل شيء أفضل. وستكون كل الأمور على ما يرام. نعم، في القصص الخيالية تكون كل الأمور على ما يرام. ومثل هذه السلوى لا توجد إلا في القصص الخيالية. قد يكون من الأفضل القيام بعمل مكتمل من الآن، قدي يكون من الأفضل أن أقوم بإجراء تحسينات متوالية، والتردد عبر الدهاليز، والبحث عن أماكن جديدة يصدر منها صوت الحسيس. وهذا أمر

بالتأكيد سهل للغاية، فهو لا يحتاج سوى إلى التوقف في أي مكان بصورة عشوائية والاستماع إلى الصوت. وسأقوم باكتشافات جديدة. يبدو لي أحيانًا أن صوت الحسيس قد هدأ، وازدادت فترات توقفه، أحيانًا يفوتني سماع الصوت، وهدير الدم يعلو في أذني عاليًا، ثم يتحد هدوء صوت الحسيس والدم وأعتقد أن صوت الحسيس قد انتهى إلى الأبد. فأتوقف عن البحث عن الصوت، وأقفز، فها هى لحظة فارقة قد حدثت في حياتي، وكأن نبع ما قد انفتح وتدفق منه الهدوء إلى العرين. أنتبه حتى أدقق في هذه الظاهرة، أبحث عن شخصٍ أستطيع الوثوق به إلى أقصى درجة، أسرع نحو فناء العرين، أتذكر أني لم أتناول شيئًا منذ وقت طويل لأني سعيت طلية حياتي من أجل حياةٍ جديدة. ألتقط شيئًا من المؤن التي غطاها الطين، ألتهمها وأنا عائد إلى مكان الاكتشاف المذهل، أريد أثناء تناولي الطعام أن أتأكد من شيءٍ ما، أسترق السمع، لكني سرعان ما يخيب ظني، وأسمع حسيسًا واضحًا قادمًا من بعيد. ألفظ الطعام وتنتابني رغبة في دكه بالأرض، وأواصل العمل. لأن أي عمل عليّ مواصلته، في مكان ما أراه ضروريًا، ومثل هذه الأماكن كثيرة. سأبدأ بعمل روتينى، وكأنني أمام أحد المراقبين ويجب أن أؤدي أمامه عملا شكليًا. لكن من الصعب العمل بهذه الطريقة، فربما يظهر اكتشاف جديد. وكأن صوت الحسيس قد ازداد، ليس كثيرًا بالطبع، فالأمر يتعلق بفروق بسيطة، لكنه ازداد، فأنا أستطيع تمييز الأمر بوضوح. وهذه الزيادة في قوة الصوت تبدو وكأن شيءُ ما يقترب. هى بالأحرى صوت أقدام حسيس يقترب بقوة أكثر من كونها صوت

حسيس. أنتفض من عند الحائط، ثم أحاول أن أستطلع بناظري جميع النتائج المترتبة على هذه الظاهرة. أشعر وكأنني لم أؤسس هذا العرين للحماية من هجوم محتمل، لكني أسسته لهذا الغرض، لكن رغم كل خبراتي أرى أن مخاطر الهجوم وإجراءات الدفاع غير واردة- أو واردة (كيف هذا!)، لكنها بعيدة، تتقدمها إجراءات تأمين حياة هادئة، وهى إجراءات لها دائمًا الأولوية داخل العرين. هناك العديد من الأمور التي يمكن القيام بها دون أن تتأثر الخطة الأصلية. كنت سعيدًا على مدى سنوات، رفرفت عليّ السعادة بجناحيها، كنت أحيانًا قلقًا، لكن القلق وسط السعادة لا يؤدي إلى شيء.

ما يجب أن أفعله الآن هو تفقد العرين بصورة دقيقة، ومراجعة دفاعاته وكل ما يتعلق بها، وعمل خطة دفاعية والقيام بكل إجراءات وأعمال تنفيذها على الفور بكل حيوية، تمامًا كما كنت أفعل ايام شبابي. إنه عمل ضروري، تأخر كثيرًا، لكنه ضروري وليس مجرد حفر نفق كبير وظيفته الوحيدة هو توفير الحماية لي بأي طريقة وأنا أشعر هنا بالخطر، والخوف الشديد من أن الخطر ليس وشيكًا. وفجأة أتشكك في خطتي السابقة. أفتقد المنطق في خطة منطقية، فأتوقف عن العمل، البحث عن مصدر الصوت. فلم يعنني بعد الكشف عن صوت حسيس يتعالى، لدي العديد من الظاهر وسأهملها كلها. ومن أجل تحقيق السكينة لنفسي يجب أن أتخلص من التناقض الداخلي في نفسي. ومن جديد أتجول في الطرقات، أدخل طرقات بعيدة لم أرها منذ عودتي

ولو تلمستها قدماي، تتأهب عند قدومي إليها، وترحب بي. لكني لا أستسلم لها وأواصل تجولي دون أن أعرف عما أبحث، بل أؤجل ما يجب عليّ أن أفعله. أذهب بعيدًا حتى أصل إلى متاهة العرين، يغريني البحث عن الصوت عند السقف الطحلبي. الأشياء البعيدة تبدو لي في هذ اللحظة بعيدة، وتعوق خططي. أصعد إلى أعلى وأسترق السمع. الصمت مطبق. المكان هنا جميل، ولا أحد هنا يرعى العرين، الكل مشغول بهمومه التي لا تعنيني، وكل ما يهمني هو الوصول إلى مصدر الصوت. وهنا أسفل السقف الطحلبي هو المكان الوحيد في عريني الذي يمكنني عبثًا من استراق السمع لساعات طويلة. حدث تحول كبير في أوضاع العرين، وصار المكان الخطير مكانًا آمنًا وهادئًا، في حين إجتاح الفناء الهياج الخطر. والأسوأ من ذلك أن ما أشعر به هنا ليس سلامًا حقيقيًا، لم يتغير شيء هنا، فالخطر يطل هنا برأسه، بهدوء أو بصخب. لكني فقدت الشعور به، وتملكني الحسيس المنتشر في حوائط المكان. هل تملكني فعلًا؟ إنه يزداد قوة، ويقترب، وأنا أجوب المتاهة وأبحث عن مصدر الصوت تحت الغطاء الطحلبي. أوشك أن أترك بيتي لهذا الحسيس وأكتفي بأن أجد هناك في الأعلى لو قليلًا من الهدوء. أتركه لهذا الحسيس؟ هل عندي أصلًا رؤية جديدة بخصوص مصدر الصوت؟ إن هذا الصوت يأتي عبر الأخاديد التي صنعها ذلك الحيوان الصغير؟ أوليس هذا هو رأيي؟ لكني لم أتحقق من هذه النظرية بعد؟ هل يأتي من الأخاديد مباشرة أو بصورة غير مباشرة. لو أن الصوت لا علاقة لها بتلك الأخاديد، فليس من الممكن التنبؤ بشيء آخر. ومن

الضروري الانتظار حتى يظهر مصدر الصوت من تلقاء نفسه أو أعثر عليه. يمكنني أن أعمل على هذه التكهنات من الآن، ويمكن القول بأن الماء قد تسرب من مكان ما، وأن ما أعتبره حسيسًا أو صفيرًا ما هو إلا صرير الماء. وبما أنه لا خبرة لي بهذا الأمر فالمياه الجوفية التي وجدتها في بداية الأمر قمت بتجفيفها، ولم تظهر هنا في هذه الأرض الرملية مجددًا منذ ذلك الوقت. ونظرًا لهذه الحقيقة فالصوت لن يكون سوى حسيس، ولا يمكن اعتباره صرير. ولن يتوقف خيالي عن العمل والبحث عن كل الوسائل التي تعيد الهدوء للمكان. وصرت على وشك الوصول إلى قناعة بأن -ما لم تظهر شكوك أخرى حوله - هذا الحسيس يصدر من حيوان ما. لا يصدر من حيوانات كثيرة أو صغيرة، بل حيوان وحيد. لكن هناك شيء يحول دون هذه النظرية وهو أني أسمع صوت الحسيس في كل مكان وبنفس القوة، فضلًا عن أنه متواصل ليلًا ونهارًا. من المؤكد أنني في البداية كنت أتوقع بوضوح وجود مجموعة صغيرة من الحيوانات، لأنني قد أعثر عليها أثناء عمليات الحفر، لكني لم أعثر على شيء، ولم يبق أمامي سوى توقع وجود حيوان ضخم، خاصة وأن ما يتناقض مع هذا الافتراض مجرد أشياء لا تجعل من ذلك الحيوان وهمًا بل خطرًا حقيقيًا في المقام الأول. لذلك استبعدت مثل هذا الإفتراض. سأتوقف عن خداع نفسي. قديمًا شغلتني فكرة أن هذا الصوت يصل إلى مسافة بعيدة لأن الحيوان يعمل بهياج شديد، ويحفر في الأرض بسرعة كبيرة، وكأن شخصًا ما يمر بدهليز واسع والأرض تنتفض بسبب أعمال الحفر التي يقوم بها رغم أنه تجاوزها. وهذا

الاهتزاز وآثار العمل يتحدان ويصلان إلى مسافة بعيدة. وأصداء الحسيس تصلني في نهايتها فأسمعها في كل مكان بنفس القوة. ورغم ذلك تبدو وكأن الحيوان لا يتقدم مني، لأن الحسيس لا يتغير، بل يسير وفق خطة غير واضحة المعالم. فقط أتكهن أن الحيوان يحاصرني في دائرة – وأنا لا أريد أن أصدق أنه يعرف بوجودي – وأنه حاصر عريني عدة مرات عندما كنت أراقبه. يشغلني كثيرًا صوت الحسيس وطبيعته، هذا الصفير والهدير. لكن عندما أحفر وأدق في الأرض على طريقتي، يكون الصوت مختلفًا. كل ما أستطيع تفسيره هو بخصوص هذا الحسيس هو أن أداة الحفر الوحيدة التي يستخدمها ليست مخالب قدميه، ربما يستخدمها للمساعدة، لأن المخالب أو الأظافر، بغض النظر عن قوتها الهائلة، يجب أن تكون حادة. ربما يدك مخالبه في الأرض بضربة واحدة قوية، فيقتلع منها قطعة كبيرة، ثم يتوقف الصوت، ويحين وقت الاستراحة، ثم يلتقط أنفاسه من جديد ليقوم بضربة جديدة. استنشاقه للهواء وما يسببه من ضجيج تهتز معه الأرض، ليس لأن الحيوان قوي، بل لأنه في عجلة من أمره، ومنهمك في العمل. فيصلني هذا الضجيج على أنه صرير فحيح ضعيف. بالطبع لا أفهم كيف يمكنه العمل المتواصل، ربما يستريح قليلًا أثناء الوقفات، لكنه لم يعط نفسه فترة راحة طويلة حتى الآن. يواصل العمل ليلًا ونهارًا، بنفس الحماس والقوة، يضع نصب عينيه مهمة عليه أنه ينهيها بأسرع ما يستطيع، ولديه كل القدرة على إنهائها. يا إلهي! لم أكن أتوقع خصمًا كهذا. ونظرًا لطبيعته هذه سيحدث بالتأكيد شيء ما كنت

أخشاه طوال الوقت، وكان عليّ أن أستعد له على الدوام. شخص ما يقترب! لقد مر كل شيء طوال الوقت في هدوء وسعادة. من قاد الأعداء حتى جعلهم يُطوّقون بيتي؟ لماذا نعمت بكل هذه الحماية طويلًا لتحطّ عليّ الآن هذه اللعنة؟ لا يمكن أن تقارن الأخطار البسيطة التي قضيت كل الوقت أفكر فيها بهذا الخطر الداهم.

هل كنت أعتقد بصفتي مالك هذا العرين أنني سوف أتفوق على كل من يأتي إليه؟ الواقع أني بصفتي مالك هذا البناء الضخم الرقيق، بالطبع، أقف عاجزًا أمام أي هجوم حقيقي. شغلتني متعة امتلاكه. جعلني لطف العرين متساهلًا. أي أذىً يتعرض له كأنه أنا. كان يجب أن أتنبأ بشيء كهذا، ما كان يجب أن أفكر فقط في حماية نفسي – يا له من تفكير ساذج وعبثي! – بل في حماية العرين أيضًا. كان يجب أن أتخذ الإجراءات التي تمكنني من فصل أجزاءه المختلفة، أو أكبر قدر منها، في أقصر وقت عن باقي أماكن العرين الأقل عرضة للمخاطر، وذلك بأكوام شاهقة من التراب، وبذلك أفصلها بشكل متقن حتى لا يعرف المهاجم أن عرين ما يوجد خلف هذه الأرض. وهذه الأكوام لن تحمي العرين فقط، بل ستكون أيضًا مقبرة للأعداء. لكني لم أفعل أيّ شيء لتحقيق هذا الغرض، لم أقم بخطوة واحدة لتحقيق هذا الغرض. كنت متهاونًا مثل الأطفال. قضيت أعوام فحولتي في ألعاب طفولية. كنت أستخف بأفكار المخاطر، ونسيت أن أفكر في المخاطر الحقيقية، رغم ما ظهر من دلائل عليها.

لم يحدث قبل ذلك شيء يمكنني أن أقارنه بالوضع الحالي. لكن شيء مماثل قد حدث عندما شرعت في بناء العرين. الفرق الرئيسي هو أنها كانت مجرد بدايات لبناء هذا العرين... كنت وقتها أعمل كمبتدئ صغير في الدهليز الأول، وكانت المتاهة مجرد اقتراح مبدئي. حفرت وقتها حفرة صغيرة. لم تكن الأبعاد والحوائط واضحة المعالم. ببساطة كان كل شيء في بداياته، ولم يرتق إلى درجة وصفة بالمحاولة. كان يمكنني فجأة التوقف عن كل شيء في حال نفاذ صبري دون أي شعور بالندم. حدث ذات مرة وأنا في وقت الراحة – كنت دائمًا في حياتي أقوم بالكثير من وقفات للراحة – كنت أستلقي بين أكوام الطين، وفجأة سمعت من بعيد صوت حسيس. كنت وقتها ما أزال شابًا. أثار هذا الصوت في نفسي الفضول، وليس الخوف. توقفت عن العمل، ورحت أسترق السمع. بدأت أنصت. لم أصعد بالتأكيد نحو المدخل لأهرب وأختبئ أسفل الطحلب كي أتمرغ هناك بعيدًا عن الصوت. لكني على الأقل بقيت لأسمعه. إستطعت وقتها أن أتحقق من أنه صوت حفر، يشبه ما أفعله، صحيح أنه كان ضعيفًا، لكن ربما ساعد على ذلك بُعد المسافة. كنت شغوفًا بالأمر، لكني بقيت باردًا وهادئًا. قلت لنفسي وقتها، إنني ربما أكون في عرين أحدهم، وأن صاحبه يحفر ليصل إليّ. لو تأكدت وقتها من أن هذه الفكرة حقيقية، لكنت انصرفت لأبني عرينًا في مكان آخر، فلم يكن لدي يومًا ما ميول هجومية أو عدوانية. لكني بالطبع كنت وقتها مازلت صغيرًا، ولم أكن أمتلك عرينًا خاصًا. لذلك كنت باردًا وهادئًا. ما حدث بعد ذلك كان طبيعيًا. لكن لم يكن من

السهل تفسير الأمر. يبدو أن من كان يحفر وقتها كان يسعي للوصول إليّ لأنه سمعني أحفر، ثم قام بتغيير اتجاهه. وهو ما حدث بالفعل. لم أتمكن من معرفة إن كان قد غير اتجاهه لأني أثناء فترى الإستراحة من العمل جعلته يفقد اتجاهه نحوي، أو أنه غير من خططه. ربما أنني كنت على خطأ، وأنه لم يكن يحفر باتجاهي أصلًا. على أية حال، ظل صوت الحسيس يعلو لفترة، وكأنه يقترب مني. وقتها ربما لم أكن لأغضب كشاب صغير لو رأيت من يحفر هذا يخرج من الأرض فجأة. لكن شيئًا كهذا لم يحدث. في لحظة معينة بدأ صوت الحفر يضعف، ويتضاءل ويتراجع، وكأن ذلك الحفّار يغير اتجاهه بالتدريج. إلى أن توقف الصوت تمامًا وكأنه قرر أن يحفر في الإتجاه المعاكس، وانصرف عني إلى مكان آخر. بقيت أسترق السمع لفترة طويلة وسط الهدوء، ثم واصلت العمل من جديد. كان هذا تحذيرًا واضحًا. لكنني سرعان ما نسيته، غير أنه ترك أثره على خطة البناء التي أعددتها.

هل تقع رجولتي بين ذلك الوقت وبين الحاضر، أم أن الأمر ليس كذلك، وأن لا شيء بينهما؟ مازالت فترة الإستراحة الطويلة مستمرة، وأنا أقبل بسمعي على الحوائط، لكن هذا الحفّار غير من جديد خطته، وأدار ظهره، وانصرف عن طريقه وهو يعتقد أنه يمنحني المزيد من الوقت حتى أستعد لاستقباله. لكنني أقل استعدادًا عن ذي قبل. العرين الكبير هنا، يقف عاجزًا عن الدفاع، ولم أعد ذلك التلميذ المبتديء، بل صرت بَنّاءًا مخضرمًا. تظهر آخر قوة لدي عندما أصل إلى قرار. أيّا كان

العمر الذي أمر به فأعتقد أني سأكون سعيدًا لو كنت أكثر هِرمًا مما أنا عليه، عجوزًا لدرجة أني غير قادر على النهوض من فراشي أسفل الطحالب. ولأنني لن أتحمل البقاء هنا، سأنهض، ليس لأنني قد أخذت حقي من الهدوء، بل مزيد من التقدم في العمر، وأنصرف عائدًا إلى بيتي. - كيف كانت الأشياء في آخر مرة رأيتها؟ هل هدأ صوت الحسيس؟ كلا، لم يهدأ، بل ازداد. أتوجس الصوت بشكل عشوائي في عشرة أماكن، فأتأكد من أنه مجرد وهم. فالحسيس ظل كما هو، ولم يتغير أي شيء. هناك على الجانب الآخر لم يتغير شيء، الهدوء يسود، ويتعالى كل شيء فوق الزمن. أعود مرة أخرى عبر الطريق الطويل إلى الفناء، يبدو لي أن كل شيء حولي يتداعى، وكأن شخص ما يراقبني، وكأنه صرف نظره عني حتي لا يزعجني، وكأنه يحاول أن يقرأ أفكاري وقرارات النجاة. أهز رأسي، فلا قرارات عندي بعد. وأنا لم أذهب إلى الفناء للقيام بعمل ما. أدور حول المكان الذي أردت أن أصنع فيه خندقًا، أتفحصه من جديد. كان اختيارًا جيدًا لمكان الخندق الذي يُفترض أن يسير في هذا الاتجاه حيث يوجد كثير من تيارات الهواء الخفيفة، من شأنها تخفيف العمل. ربما لم أكن مضطرًا إلى إجراء أعمال حفر كثيرة إلى مسافات بعيدة. ربما لم أكن في حاجة إلى الحفر حتى مصدر الحسيس. وربما كان يكفي الإنصات إلى تيارات الهواء. لكن كل الأفكار ضعيفة، ولا تشجعني على الشروع في الحفر. هل سيوفر لي هذا الخندق اليقين؟ لقد تجاوزت الأمر، ولم أعد أرغب في أي يقين. سآخذ قطعة كبيرة من اللحم الأحمر المقدد الموجود في الفناء،

وأنصرف بها إلى كومة من الطين، على الأقل سأجد هناك الهدوء لو كان مازال هنا هدوء بالفعل. سألعقها وأقضمها، وأنا أفكر في ذلك الحيوان الغريب الذي يواصل طريقه بعيدًا. أفكر من جديد في أن أتناول المزيد من الطعام المخزون طالما هناك إمكانية. هذه هى الخطة الوحيدة القابلة للتنفيذ والتي أعرفها. وسوف أحاول حل لغز الخطط التي يفكر فيها ذلك الحيوان. إنه يواصل طريقه، لكن هل يبني لنفسه عرينًا؟ وإن كان على سفر فيمكن الاتفاق معه. ولو كان يتقدم نحوي بالفعل فسأعطيه بعض المؤن وسينتهي الأمر. نعم، سينتهي الأمر. يمكنني بالطبع أن أحلم كما شئت وأنا قابع في كومة الطين، أحلم الاتفاق رغم أني أعرف جيدًا أنه لا وجود لشيء كهذا، وأنه لحظة أن نلتقي، أو بمجرد أن نشعر باقتراب أحدنا من الآخر، سيعصر كلانا على أسنانه وأقدامه بكل اهتياج، متجاهلين ما سبق وما هو آت، وسيتحكم بنا نوع جديد ومختلف من الجوع، ربما سيكون شبعًا لكن من نوع آخر. وكما هى العادة، وخاصة في هذا الوقت، ورغم أنه قد يكون متجهًا إلى مكان ما، سيغير من خطط الترحال وخطط المستقبل وهو يرى نفسه أمام هذا العرين وجهًا لوجه. لكن ربما يكون هذا الحيوان يحفر لبناء عرين خاص به. عندها لا يمكنني حتى أن أحلم بأي نوع من الإتفاق. فلو كان حيوانًا شاذًا يعتقد أن عرينه قد يتحمل جارًا له، فعريني لا يقبل بهذا الجار، وخاصة لو كان جارًا يجأر بصوته. يبدو لي بالطبع أن هذا الحيوان بعيد عني للغاية. ربما تحسنت الأمور وتعود كما كانت من قبل لو أنه ابتعد قليلًا، واختفى ذلك الصوت. وستبقى كذكرى سيئة

وأيضًا مفيدة، ستجبرني على إجراء بعض التحسينات. فلو توفر الهدوء وزال الخطر لاستطعت القيام بمهام كبيرة. نظرًا لإمكاناته الهائلة – وهو أمر واضح من همته العالية في العمل - ربما صرف هذا الحيوان النظر عن توسعة عرينه باتجاه عريني، وسار في اتجاه آخر. فلا يمكن التوصل إلى قرار كهذا عن طريق المفاوضات، بل بتعقل هذا الحيوان، أو بضغط ما يمكن أن أمارسه أنا من جهتي. في كلتا الحالتين سيكون أمرًا حاسمًا ما يعرفه عني هذا الحيوان. كلما فكرت في الأمر ازددت قناعة بأن هذا الحيوان لا يعرف شيئًا عن وجودي. ربما سمع عني – وهذا أمر لا أتصوره – لكن بالتأكيد لم يسمع صوتي في هذا العرين. بما أنني لم أعرف بوجوده فلا يمكنه أن يكون قد سمع صوتي. فأنا أتصرف بكل هدوء، ولا شيء أهدأ من ساعة لقائي بعريني. ربما سمع صوتي عندما قمت بإجراء الحفريات التجريبية رغم أن طريقتي في الحفر لا تسبب ضجة كبيرة. لو أنه سمع صوتي لكنت لاحظت أنا أيضًا ذلك، ولتوقف عن العمل ليستمع إليّ. لكن شيئًا لم يتغير.

وطن الفئران (المغنية يوسفينا)[1]



في عام 1924 ساءت حالة كافكا الصحية، وأصيب بالحمى على فترات متقاربة. فتم نقله إلى براغ من قبل صديقه ماكس برود. وهناك كتب آخر قصتين له: "وطن الفئران أو المطربة يوسفينا"، وقصة "فنان الجوع"

مطربتنا تُسمى يوسفينا. من لم يسمعها من قبل لن يعرف مقدار قوة صوتها وهى تغني. ليس هناك من لم يُفتن بغنائها. وإن وُجِد فهذا يعني أن جنسنا لا يحب الموسيقى بصفةٍ عامة. إن الموسيقى بالنسبة لنا هى الصفاء الهادئ. إن حياتنا صعبة. نحاول أحيانًا أن نلقي عن كاهلنا جميع هموم الحياة اليومية. رغم ذلك لا نستطيع أن نصل إلى تلك الأشاء البعيدة عن حياتنا الأخرى مثل الموسيقى. إننا نعتبر الذكاء العملي الذي نحتاجه أكثر من أي شيء، من أهم أولوياتنا. والابتسامة التي تنتج عن هذا الذكاء تمنحنا دائمًا السعادة. لا نشكو كثيرًا، ولا ننتبه إلى السعادة التي قد تسببها الموسيقى لو أننا بحثنا فيها عن السعادة – وهو ما لا يحدث. لكن يوسفينا استثناء. فهى تحب الموسيقى، وتجيد صناعتها. إنها الوحيدة، وربما برحيلها – الله أعلم متى – ستختفي الموسيقى من حياتنا.

كثيرًا ما فكرت في أمر الموسيقى. فنحن لسنا موسيقيين تمامًا. كيف نفهم غناء يوسفينا، أو لو كانت يوسفينا تعترض على أننا نفهمها، كيف لنا أن نعتقد أننا نفهما؟ الإجابة البسيطة تمامًا ربما تكمن في أن جمال هذا الغناء رائع، إلى درجة أن الحس البليد لا يمكنه مقاومته. لكن هذه الإجابة ليست كافية. لو أن الأمر كذلك بالفعل فيجب أن نكون على قناعةٍ أكيدة وشعور دائم وغير عادي بأن شيئًا لم نسمع مثله من قبل يخرج من هذه الحنجرة، شيء نحن غير قادرين على سماعه، شيء يوسفينا وحدها القادرة على إيصاله لنا، وليس أحد

آخر. لكن هذه حسب رأيي ليست الحقيقة. فأنا لا أشعر بهذا، ولم ألحظ شيئًا كهذا عند الآخرين. فنحن كأصدقاء مقربين يعترف كل منا للآخر بأن غناء يوسفينا ليس شيئًا غير عادي.

هل هذا حقًا غناء؟ لدينا تقاليد غنائية، رغم غياب الحس الموسيقى عندنا. فالغناء موجود في وطننا منذ القدم. تحكي عنه الأساطير، وحفظته الأغاني التي لم يتمكن أحد من ترديدها. نعتقد أنه غناء، ولا يمكننا أن نقارن هذا الاعتقاد بالفن الذي تقدمة يوسفينا. هل هذا حقًا غناء؟ أليس مجرد صراخ؟ كل منا قادر على أن يصرخ في الآخرين. إنها المهارة الحقيقية في وطننا. أو ربما ليست مهارة، لكنها مظهر مميز من مظاهر الحياة. كلنا نصرخ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يسمي الصراخ فنًا. نصرخ دون أن نفكر في أمر كهذا، وحتى دون أن نلاحظه. يوجد بيننا من لا يعرف أن الصراخ يُعدّ من سماتنا. لو أن الأمر كذلك، وأن يوسفينا لا تغني، بل تصرخ فقط، وأن الصراخ، على ما أعتقد على الأقل يتخطي الحدود المعروفة – إنها حتى لا تكتفي بالصراخ الطبيعي مستعملة قواها، هذا الصراخ الذي يُطلقه كل عمال المناجم طوال اليوم أثناء العمل دون أي مجهود – لو أن هذه هى الحقيقة، فلن يكون فن يوسفينا فنًا، بل سيكون من الأفضل مناقشة لغز تأثيرها القوي.

لكن ما تصدره ليس مجرد صراخ. لو ابتعدتم عنها قليلا، وأنصتم، أو بالأحرى جربتم من هذا المنطلق مثلًا عندما تغني يوسفينا بين أصوات أخرى أن تتحروا صوتها. لن تسمعوا بالتأكيد سوى صراخ عادي تمامًا، وسيكون ظاهرًا قليلًا برقته وضعفه. لكن لو أنك وقفت أمامها، ستجد أنه ليس مجرد صراخ. من الضروري لكي نفهم الفن الذي تؤديه ألا نسمعها فقط، ولكن أن نراها أيضًا. قد يكون غناؤها مثل صراخنا اليومي، لكن الشيء المختلف في الأمر أن أحدهم صعد إلى المسرح بشكل استعراضي، وبدأ يؤدي شيئًا عاديًا. إن شق ثمرة البندق ليس فنًّا بالتأكيد. لذلك لن يجرؤ أحد على دعوة الجمهور ليشق أمامهم حبات البندق. ولو فعل هذا، وتحقق له ما أراد، فلن يكون الأمر مجرد شقّ حبة بندق. أم أن شق حبات البندق فن، واكتشفنا أننا لم نعط هذا الفن الاهتمام اللازم، لأننا نجيد هذا الأمر بكل سهولة. برهنت كسارة البندق الجديدة على حقيقة الأمر، وأنها تساعد على نجاح العمل لو أنه كان أقل كفاءة في شق البندق من معظمنا.

إن الأمر مشابه لو قارنّاه بغناء يوسفينا. ما يعجبنا فيها هو ما لا يعجبنا في أنفسنا. وهذا منسجم معنا تمامًا. كنت ذات مرة حاضرًا عندما نبهها أحدهم – هذا يحدث كثيرًا – إلى الصراخ القومي المعروف. هذا أمر طبيعي تمامًا، لكنه بالنسبة لـيوسفينا شيء يتخطى الحدود. ارتسمت على وجهها ابتسامة وقحة، مليئة بالزهو، لم أر مثلها من قبل. هى في الظاهر إنسانة رقيقة، رقيقة بشكل واضح. بلادنا غنية بمثل هذه الشخصيات

النسائية. لكنها في تلك اللحظة ظهرت وقحة تمامًا. لكنها سرعان ما شعرت بذلك، ربما بسبب ملاحظتها العالية، فاستدركت الأمر. هي على أية حال ترفض الربط بين الفن والصراخ. من يحكم على الأمر بطريقة مغايرة لن يصاب إلا بالغضب الدفين، وسيشعر بالازدراء. ليس هذا غرورًا عاديًا. لأن المعارضين، وأنا منهم نوعًا ما، لا يقلون في إعجابهم بها عن جمهورها. لكن يوسفينا لا تكتفي فقط بالإعجاب، بل تريد أن يعجب بها الناس على طريقتها، وليس مجرد الإعجاب العادي. عندما تجلس أمامها ستفهمها، وستدافع عنها. إلا إذا كنت بعيدًا عنها وأنت تجلس أمامها ستعرف أن صراخها ليس ككل صراخ.

بما أن الصراخ يُعدّ من عاداتنا التلقائية، قد يعتقد البعض أن هناك من يصرخ بين مستمعي يوسفينا ليقول إنه سعيد وهو يستمع إلى فنها. عندما نكون سعداء نصرخ أحيانًا. لكن جمهورها لا يصرخ. إنه جمهور هادئ مثل الفئران. نحن نلتزم الصمت وكأن سلامًا نشتهيه قد حل علينا ونحن مسلحون بصراخنا الخاص. هل يصيبنا غناؤها بالنشوة، أم هو ذلك الهدوء الاحتفالي الذي يرافق صوتها الضعيف؟ حدث ذات مرة أن بعض الحمقى بدأوا يصفرون عبثًا عندما كانت يوسفينا تغني. كان هو نفس الصوت الذي نسمعه من يوسفينا. جاء من الأمام. كان رغم كل الابتذال صراخًا ضعيفًا هنا وسط الجمهور الذي نسي صفير الأطفال. لا يمكن التفرقة بينهما. لكننا استوقفنا المرأة التي اعترضتها، وجعلناها تصمت بتذمرنا وصفيرنا. رغم أن هذا لم

يكن ضروريًا. فهي على أية حال كانت ستصاب بالخوف، ويعتريها الخجل عندما تطلق يوسفينا صوتها الاحتفالي، وتغرق في الطرب بذراعيها المفرودتين، وحنجرتها التي تنطلق بأقصى طاقتها.

هذا ما كان يحدث دائمًا. كان حدوث أي شيء بسيط، أو عارض، أو ظهور أي عائق، أو سماع طقطقة في العمود الفقري، أو صرير أسنان، أو عطل في أجهزة الإضاءة يجعلها ترفع من صوتها. ما يجعلها تفعل ذلك هو أنها تغني وفي أذنيها ضجيج. لا ينقصها الحماس ولا التصفيق. أما الفهم الحقيقي لفنها كما تفهمه هي فقد أعربت عنه قديمًا. كانت كل مقاطعة لها تناسبها تمامًا. إن أي شيء خارجي يعكر صفو غنائها يمكنها القضاء عليه في معركة سهلة، أو بدون أي معركة، وهو بالنسبة لها مجرد تحدٍ. إنه يجبر الجمهور على الانتباه والتوقف، لا عن الفهم بل عن الهيام.

إن كانت هذه الأمور البسيطة تساعدها، فماذا عن الأشياء الكبيرة. إن حياتنا متقلبة بصورة كبيرة. كل يوم يحمل لنا مفاجآتٍ وهمومًا، آمالًا ومخاوف لا يقوى الفرد على تحملها لو لم يتمتع بدعم من أحبائه ليلًا ونهارًا. حتى مع هذا الدعم تظل الأمور شديدة الصعوبة. نجد أحيانًا آلاف الأذرع ترتجف تحت عبء مخصص لفرد واحد. كانت يوسفينا تعتقد أن أوانها قد آن. فهي تقف هنا، كائنًا رقيقًا، مصاب مصابًا برعشة وقلق، خاصة أسفل قفصها الصدري. وكأنها تضع في

تلك اللحظة كل قوتها في الغناء، وكأن كل ما يمنعها من الغناء قد فقد كل قواه، فقد تقريبًا كل إمكانيات الحياة، وكأنها صارت عارية، تغامر بوجودها. صارت تحت حماية أرواح خَيِّرة. وكأن دَفعة نفَس بارد تكفي لقتلها وهى منفصلة عن نفسها، مستغرقة في الغناء. أما نحن، المعارضون المزعومون نقول في تلك اللحظات: "إنها لا تجيد حتى الصراخ. عليها أن تحاول، وتبذل مجهودًا أكبر حتى تخرج من داخلها شيئًا – لا نتحدث هنا عن الغناء – شبيهًا بالصرخات القومية" هكذا نرى الأمور. رغم أن هذا أمر لا مفر منه كما يُقال، لكنه انطباع عابر، وسريع الزوال. وسنغرق عاجلًا وسط مشاعر جمهور يستمع إليها بكل إنصات، أجسادهم متلاصقة ويتنفسون بكل حذر.

لكي تجمع حولها مثل هذا الحشد من شعبنا الذي يتحرك ويتدافع هنا وهناك لأسباب غير معلومة تمامًا يكفي يوسفينا غالبًا أن تومئ برأسها، بشفتيها المواربتين، وبعينين تنظران إلى أعلى كي تتخذ وضعًا ينم عن أنها تستعد للغناء. يمكنها أن تفعل ذلك في أي مكان. لكن يجب أن يكون مكانًا سهل الرؤية. قد يكون مناسبًا أيضًا أحد الأركان الخفية التي نختارها صدفة في لحظة تجلّي. كانت أخبار حفلاتها الغنائية تنتشر على الفور، وعلى الفور تبدأ المسيرات إلى هناك. أحيانًا تظهر عقبات، لكن يوسفينا تحب الغناء في أوقات الإثارة. فعندما تستجدّ بعض أمور الحياة لتزعجنا وتجبرنا على السفر، فتمنعنا رغمًا عنا من التجمع السريع، كل ما تفعله يوسفينا هو أن تبقى في وضعها

المهيب، أحيانًا بدون جمهور كبير – ثم تثور بالطبع، وتخبط بقدميها، وتسب بطريقة لا تليق بامرأة، وأحيانًا تعُضّ. لكن سلوكا كهذا لا يؤثر في سمعتها. وبدلًا من أن نروض تطلعاتها المفرطة، يقوم كل منا بما يستطيع لكي يلبي تلك التطلعات. فيرسلون الرُّسل لإحضار المستمعين. يُخفون عنها إجراء كهذا. يظهر الحراس في الطرقات، يحثون القادمين على الإسراع. يستمر هذا إلى أن يصبح عدد الحاضرين مقبولًا.

ما الذي يدفع الشعب على أن يهتم بـيوسفينا كل هذا الاهتمام؟ القضية سهلة ولا تتجاوز صوت يوسفينا، بل تتعلق به. من الممكن أن نتجاوز هذا تمامًا، ونربطها بقضية أخرى مختلفة لو استطعنا أن نؤكد أن الشعب منقاد تمامًا لصوتها. لكن الأمر غير ذلك. إن شعبنا لا يعرف الانقياد غير المشروط. إن هذا الشعب الذي يحب الموهبة الطبيعية أكثر من أي شيء آخر، والصراخ الطفولي، والغناء البريء فقط، ذلك الذي ينسال من الشفاه. شعب كهذا لا يمكنه أن ينقاد بدون شروط. هذا ما تعرفه يوسفينا، وتقاومه بكل ما تملك من قوة في جسدها الضعيف.

لا يجب أن نبالغ كثيرًا في تلك الأحكام العامة. فالشعب منقاد لـيوسفينا، لكنه ليس انقيادًا غير مشروط. فلا يمكنه على سبيل المثال أن يسخر من يوسفينا. لكن دعنا نعترف أن هناك أشياءَ في يوسفينا تدعو إلى السخرية. ونحن، بصفة عامة شعب ساخر. نعتبر السخرية

رغم كل المآسي في حياتنا هى ملاذنا الدائم. لكننا لا نسخر من يوسفينا. لديّ انطباع بأن الشعب يعتبر نفسه في علاقته بـيوسفينا، ذلك المخلوق الرقيق، الذي يتطلب الحرص، المخلوق الموهوب بشيء ما، بالغناء على ما أعتقد، يعتبر نفسه مؤتمنًا عليها، ويجب أن يحافظ على الأمانة. لا يعرف أحد سببًا لهذا. كل ما أعرفه أن هذا هو الواقع. ولا نسخر من شيء هو أمانة عندنا. فالسخرية منه تعني خيانة الأمانة، وقمة الإثم الذي يرتكبه أي عابث في حق يوسفينا هو أن يقول يومًا "يغلبني الضحك عندما تظهر يوسفينا

إذن الشعب يرعي يوسفينا وكأنه أب يرعى طفله الذي يمد إليه يده – ليس واضحًا إن كان يمدها رجاءً أم تحدياً. ويفزعنا ألا يكون شعبنا غير كفء للقيام بواجبات الأبوة. لكنه في الحقيقة يقوم بتلك الواجبات، على الأقل في هذه الحالة، وبصورة مثالية. لا يمكن لأي فرد أن يقوم بما يقوم به الشعب كله في هذا السياق. الفرق بين قوة الفرد وقوة الشعب شاسع بالطبع. يكفي أن يضع الشعب من يحميه في أحضانه الدافئة لكي يصبح آمنًا. لا يجرؤ أحد بالطبع على أن يتكلم مع يوسفينا عن أمر كهذا. ستقول عندها: "سحقًا لحمايتكم!" سنقول لها في أنفسنا: نعم، نعم، سحقًا! لكن بغض النظر على هذا فهي لا تنفي شيئًا من هذا. فلو أنها ثارت، فلن تكون سوى أساليب طفولية، وامتنان على طريقة الأطفال. على الأب ألا يلقي بالًا لأمر كهذا.

لكن هناك أشياء أخرى لا يمكن شرحها بسهولة فيما يتعلق بعلاقة يوسفينا بالشعب. فهى ترى الأمر بطريقة مغايرة، تعتقد أنها هى من يحمي الشعب. تعتقد أن غناءها يحمينا في المواقف السياسية والاقتصادية. فهو قادر على شيء كهذا، وليس أقل من هذا. لو أنه لم يمنع الكارثة فسيمنحنا القوة على تحملها على الأقل. إنها لا تقول هذا ولا ذاك. تتكلم قليلًا، وتصمت أمام كل لغو. لكن بريق عينيها ينم عنه، ويمكن أن نقرأه من فمها المغلق. قليل منا يستطيع أن يبقي فمه مغلقًا، لكنها تستطيع. عندما تتلقى خبرًا سيئًا – ففي بعض الأيام تصلها الأخبار متلاحقة، بعضها أخبار باطلة، وبعضها يحمل نصف الحقيقة – تنتفض على الفور، وفي أحيان أخرى تسقط من الإعياء. تنتفض، وتمد عنقها، وتحاول أن تتفحص قطيعها، كراعي الماشية قبل العاصفة. من المؤكد أن الأطفال أحيانًا يقومون بمثل هذه التصرفات على طريقتهم الغريبة والتلقائية. لكن تصرفات يوسفينا ليست بلا سبب مثل تصرفاتهم. إنها بالطبع لا تحمينا، ولا تمنحنا القوة. من السهل أن تلعب دور حامي هذا الوطن الذي تأقلم مع الألم، ولا يدخر جهدًا حيال نفسه. إنه شعب سريع في اتخاذ قراراته. يعرف الموت جيدًا، ويبدو من الوهلة الأولى هائبًا في مناخ من الجرأة الجنونية التي يعيش فيها على الدوام. لكنه رغم ذلك شعب مبدع وجريء – أؤكد مرة أخرى أنه من السهل أن تلعب دور حامي هذا الوطن الذي طالما حمى نفسه، رغم الضحايا الذين يصيبون المؤرخين بالفزع - نحن بصفة عامة لا نهتم كثيرًا بالتاريخ. ورغم ذلك تظل الحقيقة أننا في لحظات الضيق

نستمع إلى صوت يوسفينا بكل إنصات. نقف أمام الخطر الداهم صامتين، بكل تواضع وامتثال لسيطرة يوسفينا. نحن نحب اللقاءات، ونرحب بالتزاحم. يدفع أحدنا الآخر، خاصة عندما يكون الدافع إلى هذا شيء خارج الموضوع الرئيسي المزعج. إنه شيء وكأننا شربنا معًا على عجل - نعم، من الضروري الإسراع، وهذا ما تنساه يوسفينا غالبًا - كأس السلام قبل بداية المعركة. إنه ليس عرضًا غنائيًا، بل بالأحرى تجمعًا للشعب. هذا التجمع الذي يصاحبه هدوء رهيب، لا يقطعه سوى صوت صراخ رقيق في المقدمة، يعد لحظة هامة، أهم من أن نسخر منها.

مثل هذه العلاقة لا يمكن أن ترضي يوسفينا. رغم كل الاستياء الذي تثيره فيها مكانتها غير الواضحة دومًا، هناك شيء ما لا تراه بنفسها بسبب ضيق أفقها. يمكن إجبارها بدون جهد كبير على أن ترى أكثر مما تراه - في هذا الاتجاه، أي اتجاه الصالح العام يوجد قطيع من المتملقين يعمل بلا توقف - لكن من المؤكد أنها لن تضحي بغنائها، وتكتفي فقط بالغناء دون أن يلتفت إليها أحد، في أحد أركان التجمع البشري، الذي هو في حد ذاته ليس بالشيء البسيط.

حتى هذا ليست مضطرة إلى فعله. لأن فنها لن يكون مجهولًا رغم رجود الكثير من الأمور التي تشغل بالنا. إن الهدوء الذي يسود هنا لا يرجع إلى الغناء فقط. فكثير منا لا يرفع إليها عينيه، لأنه غارق بوجهه في معطف جاره، وتبدو يوسفينا وكأنها تحاول فوق المسرح عبثًا. رغم

ذلك لا يمكننا إلا أن نعترف أن شيئًا مما تغنيه يصل إلينا بالضرورة. إن هذا الصراخ الذي يعلو في اللحظة التي يلزم فيها الآخرون الصمت يصل إلى كل فرد وكأنه رسالة وطن. إن صراخ يوسفينا وسط القرارات الصعبة يشبه تقريبًا كفاح شعبنا للبقاء وسط هدير عالم الأعداء. إن يوسفينا تحرز نجاحًا. هذا الصوت التافه، وهذا الأداء التافه يحرز نجاحًا، ويرشدنا إلى الطريق. إن التفكير في أمر كهذا يبعث على السرور. إننا قد لا نتحمل مغنيًا حقيقيًا في هذه اللحظة، لو كان له وجود عندنا من الأساس. سنرفض بكل قوة وجود عرض غنائي مشابه، وسنعتبره سخافة. ليت يوسفينا تتحلي بالمعرفة، وتدرك أننا إن كنا نسمعها، فهذه شهادة ضد غنائها. ربما تشعر بشيء كهذا، وإلا فلماذا تشكو دائمًا بأننا لا نستمع إليها. إلا أنها تغني وتغني، وتقاوم هذا الشعور بالصراخ.

لكن من ناحية أخرى قد يكون هذا الأمر مصدر سعادة لها. فنحن إلى حد ما نستمع إليها، وعلى ما يبدو بنفس الأسلوب الذي نستمع به إلى المغني الفنان. إنها تحقق نفس التأثير الذي يسعى المطرب الفنان إلى تحقيقه وهو مسلح بوسائلها غير الكافية. ربما أن هذا يرتبط بأسلوبنا في الحياة.

نحن لا نعرف في وطننا فترة الشباب. بالكاد نعرف مرحلة الطفولة القصيرة. رغم وجود مطالبات دائمة بأن ينال أطفالنا نوعًا من الحرية، نوعًا من الراحة. نُطالب بالاعتراف بحقهم في حياة خالية من

الهموم، وبحقهم في اللهو الطائش، وفي بعض الألعاب. نطالب أن يحظى هذا الحق بالاحترام. تظهر مثل هذه المطالب، ويؤمّن عليها الجميع، ولا تحظى مطالب غيرها بمثل هذا التوافق. لكن في الوقت نفسه لا يتحقق منها شيء على أرض الواقع. يُقرون الطلبات، وتجرى محاولات لتحقيقها، ولكن سرعان ما تعود الأمور إلى ما كانت عليه. إن حياتنا هكذا؛ عندما يبدأ الطفل في المشي ولو قليلًا، ويبدأ في التعرف على العالم من حوله، يجب أن يهتم بشؤون نفسه مثل الكبار. إن الأرض التي اضطررنا للعيش فيها مُشتتين لأسباب اقتصادية متسعة للغاية. أعداؤنا كثيرون، والمخاطر التي تطل علينا من كل مكان لا تعد ولا تحصى – لا يمكننا أن نبعد أطفالنا عن الصراع الوجودي. لو فعلنا فسيكون هذا نذيرًا بقرب نهايتهم. إضافة إلى كل هذه الأسباب الكئيبة يوجد سبب واحد مُشجِّع: إبداع الجنس البشري. جيل واحد – وكل جيل متعدد – يُلِحّ على الجيل الآخر، ليس لدى أطفالنا الوقت ليكونوا أطفالًا. لو كان الأطفال في بلاد أخرى يلقون الرعاية الجيدة؛ يبنون لهم المدارس، ويتدفق الأطفال، مستقبل الوطن، من تلك المدارس يوميًا، فستجد هناك دائمًا أطفالًا يخرجون يومًا بعد يوم لفترة طويلة. نحن ليس لدينا مدارس، ورغم ذلك تتدفق من وطننا على فترات زمنية قصيرة حشود لا تحصى من الأطفال التي تصفر وتزقزق، إلى أن يحين وقت الصراخ، تتدحرج وتتهادى إلى الأمام إلى أن يحين وقت الجري. تبعثر كل شيء في طريقها بطريقة خرقاء إلى أن تبدأ الإبصار. أطفال بلدنا! إنهم ليسوا كهؤلاء الأطفال في المدارس. لا، أطفال جدد، وجديدة.

أطفال لا نهاية لهم، لا يتوقفون. بمجرد أن يظهر طفل، يتوقف على الفور عن كونه طفلًا. تتبعه وجوه أطفال أخرى لا تكاد تمُيزها عن بعضها وسط هذا العدد الكبير وهذه الهرولة، وجوه وردية اللون مبتهجة. رغم أن هذا شيء جميل، ويحسدنا الآخرون عليه، إلا أننا غير قادرين على أن نضمن لأطفالنا طفولتهم. ولهذا عواقبه. هناك سذاجة تنتشر في وطننا لا تنتهي، ولا يمكن اقتلاعها. نحن نتصرف أحيانًا بحماقة، على نقيض أفضل ما فينا، وضد المنطق العملي السديد. نتصرف بحماقة وغفلة، وتهور، وسخاء، وإهمال تمامًا مثل الأطفال. كل هذا لا يصلح إلا في جلسة سمَر بسيطة. وعندما تصبح سعادتنا خالية من زخم الطفولة، يبقى فيها شيء ما. تستمد يوسفينا بقاءها منذ أن بدأت من هذه السذاجة.

إن وطننا بالكامل ساذج، وشاخ قبل الأوان. السذاجة والكهولة تظهران عندنا على غير ما تظهران في الشعوب الأخرى. تعوزنا فترة الصبا، فنحن نبلغ سريعًا سن الرشد، ونظل راشدين لفترة طويلة للغاية. يترك الإرهاق واليأس أثرًا كبيرًا على طبيعة شعبنا منذ تلك اللحظة. تلك الطبيعة القوية والمتعلقة بالأمل. ترتبط بهذه الطبيعة الميول غير الموسيقية. تقدم بنا العمر، ولم نعد نتفاعل مع الموسيقى. إن ما بها من إثارة وسمو لا يمكن أن يجتمع مع العبء الذي نحمله. نهز لها أيدينا. لقد اكتفينا بصراخنا. الصراخ من وقت لآخر. هذا هو كل ما نفعله. ربما يكون بيننا من هو موهوب في الموسيقى. لو كانوا موجودين

بالفعل فإن طبيعة أبناء وطننا سوف تقاوم هذه الموهبة قبل أن تتطور. يمكن أن تصرخ يوسفينا على النقيض كما تشاء، أو تغني، أو تسميه ما تشاء. إن ما تفعله لا يزعجنا، بل يعجبنا. نحن نتقبله تمامًا. لو أن ما تفعله ينطوي على نوع من الموسيقى، فإنها ستكون في أضيق الحدود. من المؤكد أنها تحافظ على بعض التقاليد الموسيقية، لكن هذا لا يهمنا على الإطلاق.

يوسفينا تعطي لشعب بهذه العقلية شيئًا آخر. ففي حفلاتها الغنائية، وخاصة في الأوقات الهامة لا أحد يهتم بمطربة كهذه إلا الشباب الصغار. هم فقط يتابعونها بكل الإعجاب، وهى تنتأ شفتيها، وهى تطلق الهواء من بين أسنانها الأمامية الجميلة، وهى تصغي بإعجاب إلى النغمات التي تصدرها بنفسها، وهى تتحمس لحركات جديدة، لا تدركها هى نفسها. لكن جمهورها يتراجع، وهذا أمر واضح. هنا، في تلك الوقفات بين الفقرات، يغرق الوطن في الأحلام. كأن أجسادهم تسترخي، وكأن الكائن الثائر سمح لنفسه بعد العرض أن يتمدد ويسترخي في سرير الوطن الكبير الدافئ. يتردد في تلك الأحلام صراخ يوسفينا من وقت لآخر. إنها تطلق عليه صراخًا فائرًا، ونحن نسميه صراخًا تشنجيًا. لكنها بالتأكيد هنا في مكانها الصحيح، مثل الموسيقى التي تعثر على اللحظة التي تنتظرها. في هذا شيء من الطفولة البريئة القصيرة، شيء من السعادة المفقودة التي لن يجدها أحد. لكن في هذا أيضا شيء من حياة العمل المعاصرة. شيء من حيوية خفية

وغامضة، وأيضًا دائمة، ولا تقهر. لا تعبر عن كل هذا بأنغام ضخمة، بل بأنغام انسيابية، وهامسة، وحميمية، وأحيانًا بصوت أجش. هذا بالطبع صراخ، أليس كذلك؟ إن الصراخ هو لغة شعبنا، إنه يصرخ طيلة حياته وهو لا يعرف. لكن الصراخ هنا متحرر من قيد الحياة اليومية، ويحررنا للحظات قليلة. بالفعل لا نريد أن نخسر هذه العروض.

لكننا مازلنا بعيدين عما تؤكده يوسفينا بأنها تدعمنا في تلك اللحظات، الخ، الخ. للشخص العادي بالطبع، وليس للمتملقين من أنصار يوسفينا. يقولون كثيرًا بجرأة تلقائية: "لا يمكن أن يكون إلا كذلك. كيف يمكننا تفسير هذا الإقبال الكبير، وخاصة في ظل خطر محدق. الإقبال الذي حال أكثر من مرة دون توفير الدفاع المناسب؟" هذا حقيقي للأسف. لكن هذا لا يعود إلى دور يوسفينا الشهير. لنتذكر عندما فرّق العدو مثل هذا الجمع فجأة، ومات العديد من أبناء وطننا. قامت يوسفينا التي تسببت في هذا كله، وربما أنها استدعت العدو بصراخها، باللجوء إلى أكثر الأماكن أمنًا، وكانت أول من اختفي بهدوء وبأسرع ما يمكن تحت حماية حاشيتها. لكن الناس جميعًا تعرف هذا. رغم ذلك يعاودون الهرولة كلما أرادت يوسفينا، فتنهض وتغني. يمكننا أن نستنتج من هذا أن يوسفينا تقف خارج القانون تقريبًا. يمكنها أن تفعل ما تشاء، حتى وإن كان ما تريده يهدد المجتمع، فهو يغفر لها كل شيء. لو كان الأمر كذلك فسوف تكون مطالب يوسفينا مفهومة تمامًا. بل في إطار هذه الحرية التي منحها إياها الوطن، في

إطار هذه المنحة غير العادية التي لا تُقدّم لأحد غيرها، المنحة التي تخالف القانون. في إطارها يمكننا أن نفسر ما تؤكده هى بنفسها أن الوطن لا يفهمها، وأنه ينظر إلى فنها في ذهول العاجز، ولا يشعر بأنه أهل لها. يحاول دائمًا بأفعال يائسة أن يعوض يوسفينا عن الظلم الذي لحق بها، وكان هو السبب فيه. فيضعها ويضع رغباتها خارج إطار قوانينه، تمامًا مثل فنها الذي صار خارج حدود فهمه. عجبًا! ليس هذا هو التفسير الصحيح. ربما أن الوطن قد استسلم أمام يوسفينا من خلال التفاصيل. لكنه لم يستسلم لها بدون شرط.

منذ القدم، ربما منذ بداية مسيرتها الفنية تسعى يوسفينا إلى أن تتحرر من كل الأعمال لأنها تغني. يجب أن تتحرر من الاهتمام بقوت يومها، وبكل ما يرتبط بصراعنا الوجودي، وتفرض نفسها، كما هو واضح، على الوطن ككيان مستقل. إن المواطن المتعجل – وهؤلاء عندنا كُثْر – يمكنه أن يحكم على صلاحيته الداخلية بناءً على هذا المطلب الغريب، وبناء على التركيبة الروحية التي استطاعت أن تفكر في هذا المطلب. لكن وطننا يستنتج أشياء أخرى، ويرفض المطلب بكل اطمئنان. لا يجهد حتى نفسه بتفنيد أسباب هذا المطلب. إن يوسفينا تشير على سبيل المثال إلى أن المجهود الذي قد تبذله في العمل سيؤثر سلبًا على غنائها. صحيح أنه قد يكون مجهودًا بسيطًا مقارنة بالمجهود الذي تبذله في الغناء، لكنه يمنعها تمامًا من الاسترخاء بعد الغناء بشكل كافٍ. يمنعها من استجماع قواها استعدادًا للغناء من جديد. فهى تقول

إنها تستهلك في الغناء كل شيء، ورغم ذلك لا يمكنها في ظل هذه الظرف أن تصل إلى قمة الأداء. يسمعها الوطن وكأنها لم تقل شيئًا. هذا الوطن الذي يستسلم بسهولة لأهوائه، لا يسمح أحيانًا لأي شيء أن يؤثر فيه. أحيانًا يكون الرفض قويًا إلى درجة تصيب يوسفينا بالدهشة. فتنصاع لهم، وتبدأ العمل كما ينبغي. تغني بأفضل ما لديها، لكن فقط لفترة وجيزة، ثم تواصل الصراع بعد ما تكون قد استجمعت قواها – وهى قوى كبيرة، لاحدود لها على ما يبدو.

من الواضح إذن أن يوسفينا لا تسعى إلى تنفيذ ما تقوله. إنها إنسانة عاقلة. فهى لا تكره العمل. فكراهية العمل عندنا تُعد أمرًا غير شائع. بالتأكيد لن تتغير حياتها عن ذي قبل حتى لو انصعنا لمطالبها. لن يعوقها العمل عن الغناء، ولن يصبح غناؤها أفضل – وهو ما تسعى إليه. إنه مجرد اعتراف بفنها، تقدير عام، واضح ودائم، وفاق كل ما هو معروف حتى الآن. لكن كل شيء دون ذلك يبدو لها سهل المنال. إنها ترفض هذا الأمر بكل إصرار. ربما كان عليها منذ البداية أن تشن هجومها في اتجاه آخر. ربما اكتشفت الآن خطأها، لكنها الآن لن تنجح. إن التراجع يعني أنها تخون نفسها. لذلك ليس أمامها إلا أن تدافع عن هذا المطلب أو تسقط.

لو أن لها بالفعل أعداء، كما يُقال، فها هى الفرصة سانحة لأن يتلهو بمتابعة هذه المباراة دون أي مجهود. لكن ليس لها أعداء، قد

يكون هناك من يتحفظ عليها، لكن مباراة كهذه ليست مصدر سعادة لأي شخص. ليس لأن الوطن هنا يظهر في موقف القاضي البارد. فهذا من النادر أن يحدث عندنا. ولو أن أحدهم تبنى موقفًا كهذا، فإن فكرة أن الوطن قد يتعامل معه بنفس الطريقة ليست مقبولة إطلاقًا. لا يتعلق رفض الطلب بالأمر نفسه، لكن الوطن يمكنه أن يغلق الباب أمام أحد مواطنيه بطريقة محكمة، ويكون على النقيض، يكون في حالات أخرى أكثر انفتاحًا في رعايته الدائمة بهذا المواطن، من منطلق أبوي أو أكثر من ذلك.

لو وقف الفرد في مكان الوطن، فيمكن القول إن هذا الرجل كان يتراجع أمام يوسفينا طوال الوقت، برغبة جامحة في وضع حد لهذا التدليل. كان يتراجع بصورة تفوق طاقة البشر، وهو على يقين من أن التراجع، رغم كل هذا، تجاوز حدوده الحقيقية، وأنه تراجع أكثر من اللازم كي يسرع من وتيرة الأمور. ومن أجل أن يدلل يوسفينا أكثر، ويشجعها على المزيد من الطلبات، إلى أن قامت أخيرًا برفع طلبها الأخير. وهنا اتخذ قراره النهائي الذي استعد له طويلًا. لكن الأمر هكذا ليس دقيقًا. فالوطن لا يحتاج إلى ى مثل هذه الحيل. كما أن حبه لـيوسفينا حقيقي ومؤكد، وطلب يوسفينا كبير، حيث إن أي طفل غير متحيز في إمكانه أن يتوقع رد الفعل عليه. ورغم ذلك من الممكن أن يكون رأي يوسفينا في هذه القضية قد تسببت فيه أفكار مرفوضة أضافت المزيد من الكآبة والمرارة.

ورغم أن لديها مثل هذه الأفكار، فهى لا تثنيها عن المعركة. وقد ضاقت حلقات الصراع في الفترة الأخيرة. وإن كانت تقود حتى الآن هذه المعركة فقط بالكلمات، فها هى تتلمس وسائل أخرى تراها أكثر فعالية، ونراها نحن أكثر خطورة عليها.

لذلك يعتقد الكثيرون أن يوسفينا تلح في فرض شعور بأنها تتقدم في العمر، وأن صوتها يضعف، لذلك هى ترى أن هذا هو الوقت المناسب لتقود فيه صراعها الأخير من أجل الاعتراف بها. أنا لا أصدق هذا الكلام. لن تكون يوسفينا كما عرفتها لو كانت هذه هى الحقيقة. فهى ترى أنه لا يوجد ما يسمي بالشيخوخة ولا بضعف صوتها. وإن كانت تطلب شيئًا، فإن ما يدفعها إليه ليست أمورًا خارجية، بل حذر داخلي. إنها تلجا إلى آخر إكليل غار، ليس لأنها تسقط في هذه اللحظة، لكن لأنه أعلى الأكاليل. ولو كان في استطاعتها لرفعته إلى أعلى أكثر فأكثر.

إن الازدراء باستغلال المشاكل الخارجية لا يمنعها بالطبع من أن تستخدم أكثر الوسائل احترامًا. إنها لا تشكك على الإطلاق في أنها على حق. وهو يتوقف على نوع الحقوق التي تكسبها، خاصة أن جميع الوسائل الشريفة في هذا العالم كما تتخيله هى تفشل بالضرورة. ربما لهذا السبب قامت بنقل الصراع حول حقوقها من مجال الغناء إلى مجال آخر أقل قيمة. قامت حاشية يوسفينا بنقل أقوالها إلى العالم. تؤكد فيها أنها مازالت قادرة على الغناء إلى درجة تحقيق متعة حقيقية للوطن في جميع طبقاته،

وحتى لدى المعارضة المختفية. متعة حقيقية ليس كما يتخيلها الوطن الذي يؤكد أنه يشعر بها في غناء يوسفينا من البداية، لكنها متعة بناء على رغبة يوسفينا. ويضيف: ولأنه لا يمكن أن نُزور ما هو نبيل، ونرفع ما هو وضيع، فلابد أن تبقى الأمور كما هى عليه. هذا هو الحال في صراعها من أجل التحرر من العمل. صحيح أنه صراع أيضًا حول فنها، لكنها هنا لا تحارب بسلاح الغناء عظيم القيمة بشكل مباشر، وكل وسيلة تستخدمها مفيدة لها. فانتشرت على سبيل المثال مقولة إنه لو لم يتم الاستجابة لطلبها فسوف تقلل يوسفينا من تنويعات صوتها. أنا لا أعرف شيئًا عن هذه التنويعات، فلم ألاحظ في غنائها شيئًا يمكن أن يكون تنويعًا. لكن يوسفينا تريد أن تقلل من تنويعها في الغناء. لن تتوقف عنه، بل ستقلله. لكني لم ألاحظ في هذا أي تغيير عن عروضها السابقة. إن الوطن بصفة عامة كان يستمع كما هى العادة، دون أن ينطق كلمة عن تلك التنويعات. أيضًا لم يتغير شيء بخصوص طلب يوسفينا. هناك الكثير من الرشاقة في مظهر يوسفينا وبالتأكيد في طريقة تفكيرها أيضًا. أعلنت بطريقة نموذجية بعد انتهاء الحفل – وكأن قرارها بشأن التنويعات الصوتية كان قرارًا صعبًا على الوطن أو مباغتًا –إنها في المرة القادمة ستغني بكل التنويعات الصوتية من جديد. لكنها بعد الحفلة الغنائية التالية تراجعت عن قرارها. الآن يقولون إنها قد توقفت عن تلك التنويعات إلى الأبد، ولن تعود إليها إلا بعد ما يُلبى طلبها بالإيجاب. وكأن الوطن لم يسمع هذا التصريح، ولا هذا القرار، أو القرارات الجديدة. تمامًا مثل رجل بالغ لا

يستمع إلى جلبة طفله وهو غارق في التفكير، ومغدق في الإحسان، لكن الوصول إليه صعب.

لكن يوسفينا لا تتراجع. مثلًا بدأت تؤكد مؤخرًا أنها أُصيبت بجرح في ساقها أثناء العمل. لذلك من الصعب أن تقف أثناء الغناء. وبما أنها لا تستطيع الغناء إلا وهى واقفة فهى مضطرة إلى أن تختصر وقت الغناء. لم يصدق أحد أنها أصيبت بالفعل، رغم أنها تعرُج، وتستند على حاشيتها! لو افترضنا أن جسمها الصغير رقيق بشكل خاص، لكننا وطن عامل، ويوسفينا جزء منه. لو أننا عرجنا من كل خدش بسيط، سيصير الوطن كله يعرج إلى الأبد. فلتظهر وهم يقودونها مثل الكسيحة، ولتظهر على هذ الحالة المثيرة للشفقة أكثر من أي وقت مضى، فسيظل الوطن يستمع إلى صوتها بنفس الوفاء والحماس كما كان من قبل – لكنه لن يعبأ كثيرًا بقضية اختصار وقت الغناء.

لكنها لا يمكن أن تظل تعرج إلى الأبد. تبدأ في ابتكار شيء آخر، فتدّعي الإرهاق، والحزن والوهن. وها نحن أمام حفلة موسيقية وعرض مسرحي في آن واحد. نرى حاشية يوسفينا تسير خلفها، تستدر عطفها، وتستحلفها بأن تغني.

إنها ترغب في الغناء، لكن لا تستطيع. يسترضونها، ويتملقونها، ويكادون يحملونها إلى المكان الذي أعدوه لها مسبقًا لكي تغني فيه. في النهاية توافق وسط دموع غير مفهومة. لكن كيف تغني وهى تجاهد

ضد إرادتها. تسقط على المقعد وذراعاها مسترخيتان بخمول بطول جسمها، وليستا مفرودتين كما كان يحدث في السابق، فتعطي انطباعًا بأن ذراعيها ربما قصيرتان. كلما تحاول أن تغني تعجز عن المواصلة. تشير إلى هذا بهزة برأسها. ثم تسقط على الأرض أمام أعيننا. بالطبع بعد ذلك تنهض من جديد وتغني بطريقة أعتقد أنها لا تختلف عن السابق. ربما – لو أن لديكم حساسية للفروق البسيطة – ستستمعون إلى بعض الإثارة غير المعتادة التي تمنح العرض مزيدًا من النجاح. عندما تنتهي، لا يبدو عليها الإرهاق كما كانت من قبل. تنصرف بخطوات قوية – لو أمكننا أن نطلق على طقطقتها هذا الوصف – وهى ترفض أي مساعدة من حاشيتها، ثم تلقي نظرة باردة متفحصة على جمهورها الذي يتراجع بكل احترام ليُفسح لها الطريق.

حدث شيء كهذا منذ وقت قريب. لكن الشيء الجديد هو أنها اختفت عندما وقف الجمهور ينتظرها. لم تبحث عنها حاشيتها فقط، لكن الكثيرين عرضوا خدماتهم في البحث عنها، دون مقابل. اختفت يوسفينا. إنها لا تريد أن تغني، لا تريد أن تقبل توسلات أحد. لقد تركتنا إلى الأبد.

غريب أن هذه المرأة الذكية أخطأت الحساب. أخطأت كثيرًا حتى اعتقدنا أنها لا تجيد الحساب مطلقًا. استسلمت لقدرها الذي لا يمكن وصفه في عالمنا إلا أنه قدر محزن. رفضت بنفسها الغناء، دمرت السلطة التي سيطرت بها على قلوبنا. كيف استطاعت أن تنال هذه

السلطة وهى لاتعرف هذه القلوب جيدًا. اختفت، وتوقفت عن الغناء. لكن الوطن الهادئ الذي لم يظهر أي شعور بخيبة الأمل، الوطن السيد، الجمهور القائم بنفسه، هو وحده – رغم أن الأمور تبدو غير ذلك – هو وحده من يمنح الإحسان، ولا يقبله، ولا حتى من يوسفينا. هذا الوطن يواصل طريقه.

من المؤكد أن يوسفينا انتهت. وقريبًا ستأتي اللحظة التي تنطلق فيها آخر صيحاتها، ثم تصمت. إنها حلقة من حلقات كثيرة في تاريخ وطننا. وسوف يتجاوزها الوطن. لن نتجاوزها بسهولة، وهذه حقيقة. كيف سيلتزم الجمع المتوقع مثل هذا الصمت التام؟ بالطبع سيلتزم. ألم يكن هادئًا مع يوسفينا؟ هل كان صراخها الحقيقي أعلى وأكثر حيوية من ذكراها؟ ألم يكن صوتها وحتى في حياتها مجرد ذكرى؟ ألم يرفع وطننا بكل حكمته صوت يوسفينا إلى الأعالي حتى صار خالدًا؟

ربما أننا لن نخسر الكثير بدونها. لكن يوسفينا التي تخلصت من عذاب الحياة الدنيا، العذاب الذي لا يَحِلّ، كما قالت، إلا بالمختارين، اختفت بسعادة وسط حشد الأبطال الذي لا يحصى في وطننا، وقريبًا – ولأننا لا نكتب التاريخ – ستحصل على خلاص أكبر بالنسيان مثل كل أشقائها.

المحتوى

مقدمة المترجم 2

سور الصين العظيم 7

تقرير إلى الأكاديمية 27

هو (مذكرات من عام 1920) 43

الزوجان 59

فنان الجوع 69

أبحاث كلب 85

العرين 137

وطن الفئران (المغنية يوسفينا)................................... 183

فرانز كافكا (3 يوليو 1883 - 3 يونيو 1924)

كاتب تشيكي كتب بالألمانية، هو من أعظم كتاب الحركة التعبيرية ورائد الكتابة الكابوسية. لا يعد "فرانز كافكا" من العلامات البارزة في تاريخ الأدب الألماني فحسب، بل في تاريخ الإنسانية. فهو أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة.

تعلم كافكا الكيمياء، والحقوق، والأدب في جامعة "شارل" في براج. ولد لعائلة يهودية متحررة، شقيق لولدين وثلاث بنات. كانت الألمانية هى لغته الأم، كما تحدث أيضًا بالتشيكية والفرنسية. لم يكن يجيد اللغة العبرية رغم أنه كان يهوديًا. تعلم العبرية الحديثة على يد المدرس "مودريخاي لانجر". عمل موظفًا في شركة تأمين حتى تقاعده المبكر في عام 1922. أمضى وقت فراغه في الكتابة الأدبية التي رأى فيها هدف وجوهر حياته. نشرت القليل من كتاباته خلال حياته، لكن معظمها نشر بعد وفاته على يد صديقه المقرب "ماكس برود"، الذي لم يستجب لطلب "كافكا" بإبادة كل كتاباته.

كانت حياته مليئة بالحزن والمعاناة، بما في ذلك علاقته بوالده. فـ"كافكا" كان مثقفًا مرهف الحس، وقع تحت حكم والد مستبد وقوي، وهو ما ترك تأثيرًا كبيرًا على طفولته، وظهر في رسالة طويلة كتبها بعنوان (رسالة إلى أبي). ظهرت آثار هذه العلاقة بصورة خاصة في رواية (المحاكمة) حيث تقبَل الشاب حكم الموت الذي أصدره عليه والده ومات غرقًا.

أصيب "كافكا" في عام 1917 بمرض السل، وقضى جزءًا من حياته متنقلًا بين المصحات العلاجية في التشيك وسلوفاكيا والنمسا وألمانيا، إلى أن توفي في النمسا عام 1924. ورغم وفاته المبكرة في سن الأربعين، إلا أنه استطاع بأدبه السوداوي وكتاباته عن سعي الإنسانية إلى الله والعدالة، أن يترك بصمة في الأدب الإنساني العالمي بالإضافة إلى معاناته التي ترجمها في كتاباته.

يأتي هذا الكتاب في إطار مشروع ترجمة الأعمال الكاملة لـ"كافكا". وقد بدأ هذا المشروع عام 2014 بمناسبة بمرور تسعين عامًا على وفاته. تضم الأعمال إعادة ترجمة لأهم ما كتبه "كافكا"، وكذلك قصصًا تنشر لأول مرة باللغة العربية.

2




9 789773 191948 >



www.alarabipublishing.com.eg